مؤمنات

أحبهن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم



بقلم

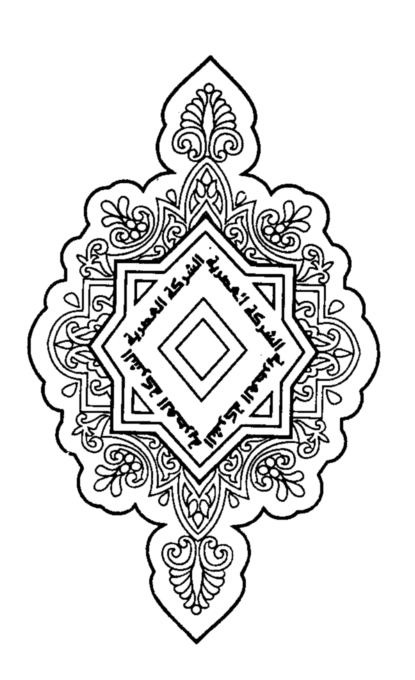
محمود عبد الحميد الأحمد

أستاذ الثقافة الإسلاميّة والفكر المعاصر

في جامعتي أبوظبي وعجمان

مكتبة الجامعة

أبوظبي


الشركة المصرية
الشركة المصرية


مركز المراة للدراسات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)
الشركة المصرية
الشركة المصرية

مؤمنات

أحبهن الله ورسوله ﷺ

بقلم

محمود عبد الحميد الأحمد
أستاذ الثقافة الإسلامية والفكر المعاصر
في جامعتي أبوظبي وعجمان

مكتبة الجامعة
أبو ظبي

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - 2005 م

الناشر: مكتبة الجامعة - أبو ظبي

شارع المرور هاتف: 6422530 (02)

شارع زايد الأول هاتف: 6323011 (02)

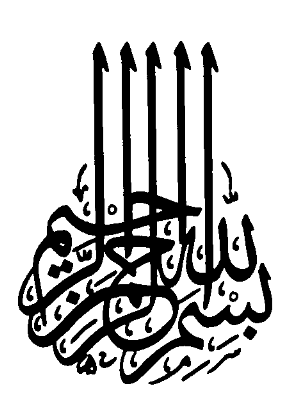
فاكس: 6422510 (2 971)

ص.ب. : 3020 أبو ظبي أ.ع.م.

بريد الكتروني: unibookshop@hotmail.com

التصميم والاخراج والطباعة للغلاف والداخل:

المطبعة العصرية: www.almaktaba-alassrya.com



قال عز وجل: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ .... ﴾.

[الأحزاب: ٦]

وقال جلّ جلاله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

[إبراهيم: ٣٧]

وقال: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

[آل عمران: ٣٥]

وقال: ﴿ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

[النور: ٢٦]



إهـداء

أهدي عُصارة بحوثي وتحليلي في هذا الكتاب:

إلى كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، لتستعين به على معرفة سِيَرِ النبيلات من النساء، فتقتديَ بهن وتتخلق بأخلاقهن، لتحشر معهن يوم القيامة في أعلى عليين.

إلى التي ترى الحياة موقفاً ورسالة وتربية، تُبنى على علمٍ وتأبى الجهالة.

مُنَاجَاةُ مُحِبٍّ

اللَّهم لك الحمد ولك الشكر ولك المنّة، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أسألك أن تصليَ على حبيبك ومصطفاك سيدنا محمد ﷺ.

تقدّست وتعاليت أنت منشئُ الأشياء ومبدعها، وأنت قيّوم السموات والأرض وقاهرها، ظهرت إلهي في الأشياء بآيات إحسانك وعجائب قدرتك وغرائب حكمتك، فأشهدتَ من أحببتهم أنوارك الجليّة، وحجبتَ من أبعدتهم عن آياتك الربانية، ولو شئت أن تُحيط الجماد بشيء من علمك لعلَّمته، ولو شئت أن تحجب الملائكة المقربين عن شهود آياتك الجلية لحجبتهم ولا تُسأل عما تفعل.

أسألك يا إلهي بعَدَمٍ كنت فيه والكون حيطتي، وبوجود تحققت به وعلمك العلي حيطتي، وبعجزٍ تحقّقت به منذ كنت طينة لا حول لي ولا قوة، وباضطرار تيقنت به منذ كنت ماءً مهيناً في قرار مكين، وبجمالك العلي الذي اشهدتنيه في نفسي وفي آفاقي بعد مشاهدة التوحيد وانتشالي من أوحال الأوهام والخيالات.

اللَّهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَع الدين وغلبة الرجال.

يا من إذا وقعت المصيبة وحلّت النكبة وجثمت الكارثة، نادى المصاب المكروب: يا اللَّه.

يا من إذا أُوصدت الأبواب أمام الطلاب، وأسدلت الستور في وجوه السائلين، نادوا: يا اللَّه.

يا من إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه نفسه بما حملت، صاح: يا اللَّه.

يا من إذا ضلَّ الحادي في الصحراء ومال الركب عن الطريق وحارت القافلة في السير، نادَوْا: يا اللَّه.

يا من إليه يصعد الكَلِم الطيب، والدعاء الخالص، والهاتف الصادق، والدمع البريء، والتفجّع الوالِه.

يا من إليه تُمد الأكفّ في الأسحار، والأيادي في الحاجات، والأعين في الملمّات والأسئلة في الحوادث.

يا من باسمه تشدو الألسن وتستغيث وتلهج وتنادي، وبذكره تطمئن القلوب وتسكن الأرواح وتهدأ المشاعر، وتبرد الأعصاب، ويثوب الرشد، ويستقر اليقين.

اللَّهم اجعل مكان اللَّوعة سلوةً، وجزاء الحزن سروراً، وعند الخوف أمناً.

اللَّهم أبرِدْ لا عج القلب بثلج اليقين، وأطفئ جمر الأرواح بماء الإيمان.

اللَّهم أزل الوساوس بفجر صادق من النور، وأزهق باطل الضمائر بفيلق من الحق، وردَّ كيدَ الشيطان بمدد من جنود عونك مسوّمين.

اللَّهم ألقِ على العيون الساهرة نعاساًأَمَنَةً منك، وعلى النفوس المضطربة سكينة وأثبْها فتحاً قريباً.

اللَّهم اهدِ حيارى البصائر إلى نورك، وضلَّالَ المناهج إلى صراطك، والزائغين عن السبيل إلى هداك.

اللَّه أكبر، اللَّه أعزّ من خلقه جميعاً، اللَّه أعزّ مما نخاف ونحاذر، نعوذ باللَّه الذي لا إله إلا هو، الممسك السموات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه، من شرّ عباده وجنودهم وأتباعهم وأشياعهم، من الجن والإنس.

اللَّهم كن لنا جاراً من شرّهم، جلّ ثناؤك وعزَّ جارك، وتبارك اسمك، ولا إله غيرك.

ربنا أعنا ولا تعن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، واهدنا ويسر الهدى لنا، وانصرنا على من بغى علينا.

ربنا تقبل توبتنا، واغسل حوبتنا، وأجب دعوتنا، وثبت حجتنا، واهد قلوبنا، وسدد ألسنتنا واسلُل سَخيمة صدورنا.

اللَّهم ألهمنا رشدنا، وأعذنا من شرور أنفسنا.

اللَّهم إنا نسألك فواتح الخير وخواتيمه وجوامعه، وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة.

اللَّهم ارفع ذكرنا وضع وزرنا وأصلح أمرنا وطهر قلوبنا، وحصن فروجنا ونور قلوبنا واغفر ذنوبنا يا أرحم الراحمين.

اللَّهم اجعلني صبوراً واجعلني شكوراً، واجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً يا ذا الجلال والإكرام.

مُقَدِّمَةٌ

الحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وتُبلّغ بمنّه وكرمه أقصى الغايات، وتُنال بفضله أرفع الدرجات، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده الشافعِ المشفع وحده، ورحمة اللَّه المهداة إلى العالمين، وأكمل الخلق وأشرف المرسلينَ، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإني لما أكرمني اللَّه عزّ وجلّ بالانتهاء من كتابة كتاب: **دراسات في الثقافة الإسلامية والفكر المعاصر)** تاقت نفسي أن أكتب كتاباً عن مؤمنات صادقات أحبهن اللَّه ورسوله ﷺ، فاستخرت اللَّه جل جلاله، فشرح اللَّه لذلك صدري، ويسر لي فيه أمري، وأعانني على تحقيق هذه الرغبة التي ملكت عليَّ شَغاف قلبي، فجاء هذا الكتاب، أُمتع نفسي وإخوتي القراء والقارئات بجمعِ مادته من أهم المراجع وأوثقها، فتجردت من حَولي وقوتي واعتصمت بحول اللّه وقوته سبحانه وتعالى، وتحليت بالصبر والجَلَد على البحث والتمحيص، والمراجعة والموازنة، والترجيح والتصحيح، وغير ذلك مما يتطلبه التأليف من دقة في الفهم وأمانة في النقل.

وقد رأيت من الخير أن أذكر من سيرتهن ما تكون الحاجة إليه ماسة، والضرورة إليه ملحّة، من غير خوض في التفاصيل، دفعاً للسآمة والملل.

وقد بذلت جهدي في تطويع الأساليب المنقولة من كتب السِيَر وتقريبها إلى عقول أهل العصر على اختلاف درجاتهم في الثقافة والفَهم.

والحق أنني لم أجد عناءً يستحق الذكر في جمع مادة هذا السِّفر، لأنني كنت أكتبه أولاً على صفحات قلبي، بمداد من خالص حبي، فأستوعب ما أقرأ حفظاً وفهماً، ثم أمليه على يراعي (قلمي) فيفرغه في صفحات من نور، أرجو أن تشرق بها القلوب المؤمنة، فتهتدي بهداهن وتطمئن بذكراهن.

وقد رجوت أن يفهم القارىء الكريم من خلال هذا الكتاب أن الاسلام أعزَّ المرأة وكرَّمها وأنصفها، وأعطاها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات، وأوصى الرجل بها خيراً؛ بوصفها شقيقتَه في المعتقدات والعبادات والمعاملات وتحمُّل

التَبِعات في تربية النَّشىء وصنع الأجيال، وتعمير الأرض واستمرار الحياة؛ فهي مطالَبة بجميع التكاليف الشرعية مثل الرجل إلا ما كان منها غير ملائم لفطرتها وطبيعتها، ولا طاقة لها به، ولا قدرة لها على فعله أو تركه.

ورجوت أيضاً بتأليف هذا الكتاب أن تكون كل مسلمة عند حسن الظن بها؛ فتحافظ على هذه المنزلة التي ارتقت إليها في ظل هذا التشريع السماوي العظيم، وذلك بأن تتحلى بالفضائل التي تحلت بها المؤمنات اللاتي أشاد الله بذكرهن في كتابه العزيز، كآسية امرأة فرعون التي آمنت بربها حتى لقيت ربها، وهي تقول كما حكى القرآن عنها: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

ومريم بنت عمران التي ضربت أروع الأمثال في الطهر والعفاف والتبتل، فجعلها الله وابنها آية للعالمين.

وأم موسى التي أحسنت التوكل على خالقها ومولاها حين ألقت وليدها في اليم بإلهام منه جل جلاله، ولم تخف عليه بعد ذلك من شيء، وأصبح فؤادها خالياً من الهم إلا من ذكر ابنها موسى عليه السلام؛ لعلمها أن الله قد تولى حفظه وحمايته.

وبِلقيس ملكة سبأ، تلك المرأة التي لا يُعرف لها مثيل في الحكمة والفطنة والسياسة والحُنكة العسكرية، والخبرة الواسعة بمواطن الخير ومواطن الشر ومجريات الأحداث، وطبائع الملوك وعواقب الأمور.

وأما أمهات المؤمنين: فهن المثل الأعلى للمؤمنين والمؤمنات جميعاً، لأنهن تلقَّين العلم من منابعه الأصلية، وربَّاهن رسول الله ﷺ بنفسه، وصنعهن الله له على عينه؛ فأطعنه في كل شيء، ووقفن عند حدودهن في السراء والضراء والشدة والرخاء، ولم تزدهن الدنيا من الله إلا قرباً؛ فأشاد الله بذكرهن ورفع مكانتهن بأن جعلهن للمؤمنين أمهاتٍ، فقال عزّ وجلّ: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

وبنات النبي ﷺ قد زانهن الله بجمال الخَلْق والخُلُق، وأكمل لهن الدين، وأتمّ عليهن النعمة، وجعلهن خير سلف لخير خلف.

لذلك كلّه وجدت لزاماً عليّ أن أعطّر فكري وقلمي بدراسة مباركة عن نساء ظهرن في حياة خاتم الأنبياء وسيد الأنام محمد ﷺ، اللواتي هنّ صفوة الصفوة من النساء ـ نساء النبي، أمهات المؤمنين ـ لأنهن عشن في كنف الحبيب محمد ﷺ،

وتربين على الوحي الإلهي المنزل على قلب النبي الكريم ﷺ، لذلك فإن أجمل ما يقدم للمرأة المسلمة اليوم: سيرةُ أمهات المؤمنين ليتربين عليها، ويعشن في ظلالها، ويتزودن منها بأسمى المعاني وأنبل الدروس، إن هذه السيرة الطاهرة العطرة، تنير قلوبهن بنور الإيمان، وتصلهن بزاد من التقوى واليقين، وتصلهن بأولئك اللاتي نُظمن في عِقد فريد، ونلن الشرف والمجد بالارتباط بالنبي العظيم ﷺ، فشاركن في حياته ﷺ، بل كنّ مِلءَ حياته رضي اللّه عنهن، يصحبنه في أسفاره ومغازيه ويهيئن له البيت السعيد الهادئ، الذي من خلاله ينطلق لدعوته ناشراً، ولرسالته مؤدّياً ﷺ.

ومن هنا، وجّه اللّه سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات إلى الاقتداء بالنبي العظيم ﷺ في حياته: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهؤلاء النساء العظيمات الخالدات ـ نساء النبي ﷺ ـ لسن كأحد من النساء بنص القرآن الحكيم، وقد كلفن بفقه الكتاب، وحفظ السنة، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] فكنّ أيضاً مناط القدوة ومحل الأسوة.

وقد جمعت مادة هذه الدراسة ـ بعون اللّه وتوفيقه ـ من مصادرَ موثوقة، ومناهل مرموقة، وأودعتها شواهدَ من القرآن الكريم، كلام اللّه عزّ وجلّ الرحيم الرحمن، الذي لا يرقى إلى علمه علم ولا بيان، وأتبعتها بفرائدَ من الحديث النبوي الصحيح، الذي لم يلحقه طعن أو تجريح، تاركاً ما ثبت أنه ضعيف، أو شابته الظِّنّة والتحريف.

نعم، إن التعريف بتاريخ أمهات المؤمنين وحياتهن مع النبي الحبيب ﷺ، واجب إسلامي أصيل، والعلم بمفاخرهن ومناقبهن العظيمة أوجب، والاطلاع على سيرتهن من أعظم وسائل التربية والتزكية، لأن مدار رحاها على قطب التأسي والاقتداء، فلا شيء يفعل في جميع الأنفس فعل الأسوة والقدوة. ولقد كان من فضل اللّه عزّ وجلّ على المؤمنين وجود هذا العدد من النساء في حياة النبي الأعظم ﷺ، إذ لو لاه ما استطاعت امرأة واحدة أن تستوعب كل شؤون النساء، ولو لاه ما رأينا آلاف الأحاديث المروية عن الصادق المصدوق ﷺ، من طرف زوجاته الطاهرات رضي اللّه عنهن، يتحدثن فيها عن آلاف الأمور، كانت ستبقى غامضة أو غير معروفة. وكان زواج المصطفى ﷺ من كل واحدة من أمهات المؤمنين لمصلحة وحكمة أرادها ربّ العزة جلّ جلاله، وكان الوحي يقوّم

سلوكهن مع النبي الحبيب ﷺ، لأنهن محل القدوة للنساء، فمن غيرهن يكنّ المثلَ الأعلى للزوجات؟ وبمن تقتدي المرأة المسلمة في حياتها؟ إن المرأة المسلمة اليوم في حاجة ماسة إلى أن تعود إلى رشدها، وأن تتبوأ مكانَها مرّة أخرى، وتعتصم بدينها، وتقتدي بزوجات السيد الأكرم ﷺ، وتنسج على منوالهن، وماذاك إلا لأن المرأة هي المجتمعُ كلّه.

وتشمل الدراسة في هذا الكتاب، خمسة أقسام، وَفْق ما هو آت بإذن اللّه جل جلاله:

١ ـ النساء المؤمنات اللواتي سطّر اللّه عزّ وجلّ ذكرهن في القرآن الكريم، فأصبحن مثلاً يحتذى به إلى يوم الدّين.

٢ ـ النساء اللواتي شهدن طفولة خير خلق اللّه ﷺ، وكان لهنَّ الباع الأطول في تربيته وتنشئته وتهيئته لحمل أمانة اللّه تعالى، وهنّ أمهات النبي الحبيب ﷺ.

٣ ـ النساء اللواتي دخلن حياته بزواجه منهن، فأصبحن أمهاتِ المؤمنين.

٤ ـ النساء اللواتي وُلدْن له وكان لهنّ خيرَ أب، وكنَّ نعم الزوجات والأمهات، بنات السيد الأكرم ﷺ.

٥ ـ النساء اللواتي شددن أزره ﷺ في دعوته، ونافحن عنه في محنته، ولم يدخرن جهداً في نصرته وذلك بحكم القرابة والنسب، وليس في ذلك بِدعٌ ولا عجب، فهن عمّاته ﷺ، ورضي اللّه عنهن.

وقد اجتهدت في هذا السِّفر المتواضع، أن أقدمه بعونه عزّ وجلّ وتوفيقه، بسيرة سهلة مبسّطة، وقد عُنيت بإبراز مواطن العبر والدروس منها وتجليتها حتى يعمّ بها النفع إن شاء اللّه تعالى، مبتعداً فيه عن الأقوال المسهَبة والاستطرادات المطولة، وأن أجتنب مواضع الزّلل فيما كتبت.

هذا، وإني لأرجو اللّه سبحانه وتعالى، أن أكون قد وُفقت بعونه تعالى فيما بيّنته، واستخلصته من عبر ودروس، فإن يكُ من صحة وصواب، فمحض فضل من اللّه تبارك وتعالى، وله الحمد والمنّة، وإن يكُ من خطأ، فمن سهو القلم وكبوة الفكر، والخيرَ أردت، وما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب.

وفي ختام المسك: أحب أن أهتبل هذه النُّهْزة من الأوقات الشريفة لأرفع كفّيَّ ضارعاً إلى من لا يخيب للعبد الوسائل، مع أكفّ الملايين من سكان الخليج والوطن العربي، أن يلحق المولى عز وجل، السَّيدةَ الجليلة، صاحبة القلب الكبير والحسّ العميق، مَنِ امتدت أيادي برّها وإحسانها إلى الجمّ الغفير من شريحة

النساء، فصارت بذلك مستحوِذة على أفئدة المؤمنات الصادقات اللواتي شُغفن بها حبّاً، صاحبة السمو: (**الشيخة فاطمة بنت مبارك**) وزيرة الصدق وقرينة السيد الوالد (**صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان**) متّعه اللّه بعافيته وجعله من المعمَّرين بطاعته، كِفاء رعايته الفائقة لشعبه ووطنه الذي بناه في بضعة عقود لؤلؤية، بحيث جعله يتبوأ مكانة الصدارة بين دول العالم المتحضر.

أسأله جل جلاله أن يلحقَها وزوجَها وذريتَها بموكب هذه الثلّة المباركة النيِّرة السالفة الذكر ليكونوا جميعاً قرةَ عين لصاحب الوسيلة والفضيلة سيدنا محمد ﷺ وليباهي بهم الأمم السابقة إنه سميع قريب مجيب الدعاء. وآخر دعوانا أنِ الحمد للّه رب العالمين.

وكتب
المعتز باللّه الصمد
محمود عبد الحميد الأحمد
أبوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة
الأحد ـ ١٠ محرم الحرام ١٤٢٥ هـ ـ الموافق لـ ١ فبراير ٢٠٠٤ م

تَمْهِيْدٌ

القَصص مرآة تعكس لأهل كل عصر ما وقع في العصور الحالية من صراع بين الخير والشر؛ فيرى كل إنسان فيها ذاته وأوصافه النفسية والخلقية؛ فيتمكن من أن يحكم لنفسه أو على نفسه بأنه من أهل الخير أو من أهل الشر وَفق المعايير التي يحملها هذا القصص.

فهو منهج تربوي حكيم؛ يصور الطبائع البشرية تصويراً يقرّب الحقائق ويجسِّد المعاني في أسلوب شائق واضح، يحمل بين طياته العظة والعبرة والنصح والتوجيه بطريق غير مباشر؛ هذا الأسلوب الفني أشدُّ تأثيراً من الأسلوب الوعظي المباشر.

وكل قصة يكون لها بالطبع طابعٌ يميزها، ومحورٌ تدور في فَلَكه، ومقاصدُ تتجه إلى إبرازها وتحقيقها على النحو الذي يريده صاحبها من خلال سرده لأحداثها بالأسلوب الذي يروق له ويعرف به.

والقصص له فنونه وشجونه، وخصائصه ومميزاته وخطُواته البيانية وآثاره النفسية على من يقرأ أو يسمع؛ فهناك القصة الأدبية التي تُعَبِّرُ عن الأحداث ذات المضمون الواحد بأسلوب بياني ساحر.

وهناك القصة الاجتماعية، التي تعالج قضية من قضايا المجتمع بأسلوب فكري معين؛ لوضع الأمور في نصابها بطريقٍ غير مباشر، إلى غير ذلك من الأنواع المعروفة لدينا أو لدى الكثير منا.

فالقصة ـ كما هو معروف ـ ذات أحداث متتابعة، لها موضوع معين وطابع خاص وتأثير ما.

وكتابي هذا يدور في فَلَكِ البحث فيه على كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ وعلى الأخبار الصحيحة الواردة في كتب التواريخ والتفاسير والسِيَر.

ولا يغْنيني في هذا الكتاب ولا في غيره من كتبي ما لا يتعلق بذكره فائدة، فإن ذلك يحجب المقاصد التي ينبغي إبرازها عن الظهور، ويشغل القارىء عن الأصول المعتبرة التي تؤكدها القصة وتعمق فهمها في القلوب المؤمنة؛ فالشأن في

القصص الديني أن يصحح المعتقَد، ويُقوِّمَ الأخلاق، ويهذِّب الطباع، ويهدي الناس إلى الطرق المثلى في إصلاح أمور دينهم وشؤون دنياهم.

وقد تأدبت بأدب القرآن في سياق القصة؛ فكنَّيْتُ عما يُستقبح ذكره، وسترت من الأحداث ما يجب ستره، وأجملت ما ينبغي الإجمال فيه، وفصلت ما ينبغي تفصيله بالقدر الذي يكفي ويشفي.

وكنت متأسياً برسول اللّه ﷺ في ذكر الأخبار التي جاءت على لسانه أو جرت بها أفعاله، مكتفياً بما جاء في كتب السنة الصحيحة؛ فلا تجدني أذكر خبراً ضعيفاً في سنده، إلا في فضائل الأعمال إذا احتاج إليه السياق.

وقد كان مبلغ همّي في هذا السِّفر أن أبرز ما في القصة من عظات وعبر وتوجيهات حكيمة تهدي الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

واللّه أسأل أن ينفعني بما كتبت، والقارىء بما قرأ، والسامع بما سمع، إنه سميع قريب مجيب.

القسم الأول

مؤمنات خلَّدَ اللَّهُ ذكرهنَّ في مُحْكَمِ آياتِه!!!

السَّيدةُ حواءُ أَمُّ البَشَرِ رضيَ اللَّهُ عنْها

السَّيدةُ سَارةُ بنتُ هَارَانَ رضيَ اللَّهُ عنْها

السَّيدةُ هَاجرُ أمُّ إسْماعِيْلَ رضيَ اللَّهُ عنْها

السَّيدةُ آسِيةُ بنتُ مُزَاحم رضيَ اللَّهُ عنْها

السَّيدةُ أمُّ مُوسَى عليه السلام

السَّيدةُ مَرْيَمُ بنتُ عِمْرَانَ رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ حَوَّاءُ أمُّ البَشَرِ رضي اللَّهُ عنها

كان اللَّه ولا شيء معه، فخلق الخلق وعرَّفهم بنفسه ليعبدوه؛ فعرفوه وعبدوه طوعاً وكرهاً، وسبحوا بحمده بلسان الحال والمقال.

وكان آدم عليه السلام من جملة مخلوقاته، خلقه فسواه فعدله وركَّبه بقدرته ومشيئته في أجمل صورة وأحسن تقويم؛ ليسند إليه عمارة الأرض وإصلاحها بقدر طاقته البشرية.

وقد زوده اللَّه بالعقل والعلم، وباهى به ملائكته، وعرفهم فضله عليهم ومكانته عنده ووظيفته التي أسندها إليه، وأمرهم بالسجود له [١].

ثم خلق من ضِلَعه الأيسر حواء[٢]؛ لتكون له لباساً وسكناً، ولتكون أماً لبنيه، وتعينه على تأدية وظيفته، وتشاركه آلامه وآماله.

المرأة قسيمة الرجل في عمارة الكون:

ومن هنا نعلم أن المرأة قسيم الرجل في عمارة الأرض وإصلاحها وإقامة حدود اللَّه فيها والثواب المترتب على ذلك كله، وأن لها من الحقوق مثلَ ما عليها من الواجبات، وَفق ميزان العدل الذي أنزله اللَّه من فوق سبع سماوات وأشار إليه في كتابه العزيز بقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهذه الدرجة هي متابعتها للرجل بالمعروف، ومسؤوليته عنها وعن سائر شؤونها بالمعروف.

وهذا ما يتضح لنا في قصة آدم وحواء؛ فقد أمر اللَّه آدم عليه السلام أن يسكن الجنة وأن يصحب معه حواء؛ فقال جل جلاله في سورة البقرة: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

---

(١) أي: تحيته وتعظيمه على النحو الذي أراده جل جلاله.

(٢) سميت حواء من الفعل حوى، لأن آدم قد حواها بحبه وأحتواها لنفسه؛ فسكن إليها وسكنت إليه، وجمعهما اللَّه في خير، وجعل بينهما مودة ورحمة ولأنها خلقت من حي.

فوجه الخطاب إليه بوصفها تابعة له وبوصفه مسؤولاً عنها، وبسكنها معه تمت له النعمة. وأكبر الظن أنها لو لم تكن معه في الجنة ما استمتع بنعيمها سواء أكانت الجنة في السماء أم في الأرض على ما سيأتي بيانه قريباً.

هذا من حيث الأمر بالسكن. لكن من حيث التمتع بنعيمها، أمرهما معاً بالتساوي فقال: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

ومن الأدلة القوية على أن المرأة تابعة للرجل، وأنه مسؤول عنها في مقابل طاعتها له وانقيادها إليه ـ قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

فهو الذي يشقى في تحصيل الرزق وتحمل أعباء الحياة بالدرجة الأولى.

والمرأة تعين الرجل في تحمل هذه المسؤولية بقدر طاقتها إن أرادت ذلك من غير إكراه.

وهما معاً في الحياة شريكان؛ يسعد كل منهما بسعادة الآخر، ويشقى كل منهما بشقائه، مع التفاوت في شعور كل منهما بمقدار مسؤوليته تجاه الآخر.

ونحن لا ندري هل أمر اللّه آدم بسكنى الجنة عقب سجود الملائكة له مباشرة، أم كان بعد ذلك بزمن طويل، ولا ندري هل خلق اللّه حواء مع آدم أم خلقها بعده بسنين.

ومعرفة ذلك أو جهله لا يتعلق به فائدة ولا مضرة، وقد طواه القرآن عنا، فلا ينبغي أن نخوض فيه مع الخائضين.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ يشعر بأنه سيخرج منها يوماً ما؛ لأن الذي يسكن في مكان لا بد أن يتحول عنه، وهو في الغالب لا يملكه؛ فدخول آدم وحواء في الجنة ـ كما يقول القرطبي في تفسيره ـ كان دخولَ سكنى لا دخول إقامة.

وقد أباح اللّه الأكل من ثمارها الطيبة أكلاً هنيئاً مريئاً، فقال جل جلاله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

والرغد: طِيب العيش واتساعه، ولكنه جل شأنه نهاهما عن شجرة معينة، وأخبرهما أنهما لو أكلا منها زال النعيم عنهما وفارقهما وفارقاه، وبذلك يكونان قد ظلما أنفسهما، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

أي لأنفسكما بالمعصية.

وقد جاء النهي عن الأكل من الشجرة بأبلغ أسلوب، مبالغةً في التحذير، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ أي: ولا تَدْنُوا من الشجرة، فتسولَ لكما أنفسكما الأكل من

ثمارها، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وليس المراد الدنوَّ منها كما هو ظاهره، وإنما المراد الأكل، مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ أي لا تأكلوه ظلماً وعدواناً.

ولم يعين لنا ربنا عز شأنه في كتابه العزيز نوع هذه الشجرة، لأنه لا يتعلق بذكر نوعها فائدة، فينبغي علينا ألا نتكلم فيه ولا نشغل أنفسنا بالبحث عنه، بل إن في البحث عنه افتياتاً على القرآن، ودخولاً فيما لا يعني.

وعاش الزوجان الحبيبان في الجنة حيناً من الدهر:

وعاش آدم وحواء في الجنة حيناً من الدهر لا يعلمه إلا اللّه، يتمتعان بخيراتها ونعيمها؛ حتى أغراهما إبليس اللعين بالأكل من الشجرة، فلما أكلا منها أخرجهما اللّه من جنته إلى الأرض التي خلقا منها ولها.

وفي ذلك يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

أي: أذهبهما وأبعدهما عن الجنة بكذبه عليهما أنه لهما ناصح، كما دل عليه قوله جل جلاله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢].

أي: أنزلهما بخداع منه وغفلة منهما، فقد أقسم لهما باللّه تعالى أنه صادق فيما ادعاه، فاعتقدا أنه لا يجرؤ أحد أن يحلف باللّه كذباً فصدقاه، وغَفَلا عن تحذير اللّه لهما الوارد في قوله جل شأنه: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧].

وقد أغراهما اللعين على حين غفلة منهما بأنهما لو أكلا من الشجرة التي نهاهما اللّه عن الأكل منها، لكانا كالمَلَكَيْنِ في القوة والنور وعدم التأثر بالتفاعلات الكونية المؤلمة، وغير ذلك من الخصائص التي تتميز الملائكة بها، وسوف يكونان من الخالدين الذين يطول بقاؤهم، وهما يحبان ذلك بحكم ما رُكِّب فيهما من غريزة حب التملك وحب البقاء.

ولو نظرنا إلى ما جرى به القدر، لوجدنا أن آدم عليه السلام لم يكن عاصياً للّه عن تعمد وقصد، وإنما كان عن خطأ وقع فيه وأغراه إبليس به، فنسي النهي عن الأكل من الشجرة، ونسيت زوجه أيضاً؛ فأكلا منها فأهبطهما اللّه إلى الأرض ليعمُراها.

ولم يكن ذلك ـ فيما نرى ـ عقوبة لهما؛ لأن اللّه قد أمرهما بالسكن في

الجنة ولم يأمرهما بالإقامة فيها ـ كما أشرنا من قبلُ نقلاً عن القرطبي.

وقد عذر الله آدم عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أي: فنسي نهي الله له عن الأكل من الشجرة وتحذيره من الشيطان، ولم يكن له عزم على المعصية فوقع فيها قضاءً وقدراً؛ فيكون بذلك عاصياً بمخالفة لا يستحق العقوبة عليها؛ لهذا تلقاه الله بالكلمات التي تاب بها عليه، وهي التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقد كان آدم عليه السلام أول تائب إلى الله عزّ وجلّ، وكانت حواء أول تائبة إلى الله تبارك وتعالى.

لا علاقة لحواءَ بخروج آدم من الجنة!!

ويذهب فريق من العلماء إلى أن حواء هي السبب في إخراج أبينا آدم من الجنة، ويقولون: لولاها ما استجاب لإغراء إبليس اللعين!!

والحق أن آدم وحواء كانا شريكين في قَبول هذا الإغراء على السواء؛ لأن الشيطان كما وسوس له وسوس لها، فلا نتصور أن آدم يميل إلى إغراء زوجه بطاعة إبليس، وهو القوّام عليها والأقوى منها إيماناً بالله وحزماً في تقدير أبعاد الأمور.

فهي وإن كانت قد قطفت الثمرة فقد اشترك معها بالقبول والأكل منها، وكان قطفها للثمرة موافقاً لهواه ولرغبته في الخلود.

وقد اختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

والأصح الذي تحتمله الآية أنهما لما أكلا من الشجرة طار ما عليهما من ثياب ساترة، وأضحيا عاريَيْن؛ فاستحيا أحدهما من الآخر، وكان إبليس هو السببَ في نزع الثياب عنهما، كما يدل عليه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وهذه الآية ـ كما يتبادر إلى أذهاننا ـ هي خلاصة العظة والعبرة أينما كان، وواجبنا أن نحذر منه كل الحذر، وأن نعاديه كما يعادينا، فلا نستجيب لهواجسه ووساوسه بقدر طاقاتنا البشرية.

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

ويقول جلّ جلاله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٠، ٢٠١].

ما هي جنة آدم عليه السلام؟

وقد ألح كثير من الناس في الإجابة على سؤال طالما تردد على ألسنة العلماء والعوام: هل الجنة التي أسكن اللّه فيها آدم هي جنة الخلق أم جنة في الأرض؟

والخلاف بين العلماء في هذه المسألة حُسم بوقوع الإجماع على أن الجنة هي جنة الآخرة، على الرغم من أن اللّه قد أخفاه عنا ليستنبطه العلماء الراسخون، لكن لا بأس أن نُطفيء ظمأ هؤلاء السائلين بأن الراجح عندنا بما وقع الإجماع عليه على أن الجنة التي سكنها آدم عليه السلام وزوجه هي جنة الآخرة لأن ـ أل ـ فيها للعهد، فلا يعدل عن الإجماع لاستنباط مخالف له واللّه أعلم وأحكم.

وقد ذكر الشيخ حسنين مخلوف في صفوة البيان قولاً تفرد به أبو مسلم الأصفهاني المعتزلي بأن الجنة بستان في الأرض، وهو شاذ عن جمهور العلماء فلا يعتد بقوله، وقد خالف الاجماع أيضاً في كون حواء خلقت من فضلة طين آدم عليه السلام وليس من الضِلَع، فلا يعتدّ بخلافه، فقوله ساقط بين العلماء.

ونقل الزُرقاني في شرحه على المواهب اللدنية للقسطلاني شارح البخاري عن الإمام القرطبي المفسر ج١ ص ٣٠٢: أن جمهور الأشاعرة قالوا: هي جنة الخلد، بل حكى إجماع أهل السنة عليه (والقرطبي من نقلة الإجماع المعتد بهم)، عن عطية صقر في فتاويه.

وهبط آدم عليه السلام من الجنة التي أسكنه فيها إلى الأرض وعاش فيها هو وزوجه حواء زمناً طويلاً لا علم لنا بتقديره، فأخرج اللّه منهما ذرية تفرقت في جنباتها، وكثر النسل وعم الفضل، وبارك اللّه في الأرض ومَن عليها من البشر، وبعث فيهم رسلاً مبشرين ومنذرين.

وكرَّم اللّه هذه الذرية وفضلها على كثير ممن خلق تفضيلاً، وسخر لهذا الإنسان ما في البر والبحر، فكان منهم المؤمن والكافر، والبار، والفاجر، وجعل بعضهم لبعض ظهيراً في خلافة الأرض وإصلاحها وتعميرها، وفضل بعضهم على بعض في الرزق، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليكون كل منهم متعاوناً مع أخيه مسخراً في خدمته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

فرضي اللّه تعالى عن أمنا وأم البشر جميعاً حواء عليها السلام وجعلها في جنة النعيم، وحشرنا معها يوم الفزع الأكبر والهول العظيم، إنه على كل شيء قدير.

السَّيدةُ سارَّةُ بِنْتُ هَارَانَ

سارة بنت هاران زوج إبراهيم عليه السلام ـ صِدّيقة عرفت ربها بفطرتها؛ فآمنت به وأخلصت له دينها.

فهي أول امرأة آمنت بإبراهيم عليه السلام بعد أمه؛ فتزوجها إكراماً لها وتقديراً لجهدها معه في الدعوة إلى عبادة الواحد الأحد جلَّ جلاله.

وكانت تصغره بعشر سنين، وكانت عقيماً لا تلد؛ فبشرها اللّه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وأثنى عليها في كتابه العزيز ثناءً حسناً، وأفاض عليها من رحماته وبركاته، وخلّد ذكرها في العالمين.

ولادة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام:

وقد وُلد إبراهيم عليه السلام في بلدة (فَدَام آرام) من أرض بابل بالعراق، ونشأ عليه السلام بين فريقين ضالين: فريق يعبدون الأصنام ويتمسحون بها، ويدعونها رغباً ورهباً، ويرجون منها جلب الخير ودفع الضر؟!!!

وفريق كانوا يعبدون الكواكب ويصنعون لها الهياكل، ويسمونها بأسماءٍ ما أنزل اللّه بها من سلطان، ويزعمون أنها أرباب، بعضها أشد من بعض، وأنها تُدعى فتجيب، وتنفع وتضر.

وكان أبوه رأسَ الفريق الأول؛ يصنع الأصنام ويبيعها لهم ويعبدها معهم.

وكان لهم ملك يعبد الكواكب يقال له: النمروذ بن كنعان[١].

وكان إبراهيم عليه السلام بمعزل عن هؤلاء وأولئك منذ حداثة سنه؛ يعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، فما كانوا يعبؤون بقوله ولا يعيرون أسماعهم إليه.

فلما بعثه اللّه إليهم، بدأ بدعوة أبيه بأسلوب هادىء مشرق مقنع، فيه أدب وتلطف ورعاية للأبوة الحانية، مع شدة لا تخل بالأدب ولا تتنافى مع المروءة والمودة.

---

(١) اختلف المؤرخون في الملك الذي حاج إبراهيم في ربه. انظر هذا الخلاف في كتاب قصص الأنبياء والتاريخ للدكتور: رشدي البدراوي جـ٢ صـ٢٥٢ وما بعدها.

وتلطف بقومه في دعوتهم إلى اللّه؛ فحدثهم عن نفسه وعن عقيدته واتجاهه ومنهجه، وذكرهم بالبعث والنشور وما يلقى فيه المجرمون من خزي ونكال، وما يلقى فيه أصحاب القلوب السليمة من نعيم مقيم في جنات النعيم.

وقد قص اللّه علينا في القرآن الكريم حواره مع أبيه وقومه من عبّاد الأصنام، وحواره مع الملك الذي ادعى أنه يحيي ويميت، ومع قومه من عباد الكواكب[١].

وقد لقي من الفريقين أذىً كثيراً وإعراضاً شديداً؛ فهاجر هو وزوجه سارّة وابن أخيه لوط عليهما السلام إلى الشام فسكنوا فيها.

ارتحال إبراهيم عليه السلام من العراق إلى مصر:

ثم رحل إبراهيم عليه السلام إلى مصر حين أصاب أرضهم الجدب؛ ليجد فيها أرضاً خصبة يرعى فيها أنعامه، وهناك في أرض مصر حدث لسارة حادث كان محنة أعقبتها منحة.

وذلك أن جباراً من الجبابرة كان والياً على مصر، قد أخبره بعض حاشيته أن رجلاً قدم من الشام، ومعه امرأة غاية في الجمال تسمى سارةً، فقال: ائتوني بها، فلما جاؤوه بها أراد أن ينال منها أكثر من مرة فعصمها اللّه منه، وكف يده عنها؛ فظن أنها شيطان؛ فأمر بإخراجها من ساحته، وأعطاها جارية يقال لها: (هاجَر).

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كَذَبات[٢]: ثنتان منهن في ذات اللّه: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ و﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس؛ فأرسل إليه وسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، فقال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذّبيني؛ فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده؛ فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي اللّه لي ولا

---

(١) ارجع إلى كتابي: (مع الأنبياء وجهادهم).

(٢) ليس الكذب هنا على حقيقته، بل هو عبارة عن تعريض وتلويح، واستعمال المعاريض عند الضرورة جائز، فهو كقوله ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين)، فالحسد هنا معناه الغبطة، وهي تمني مثل ما للغير، بخلاف الحسد على الحقيقة، فإنه تمني زوال نعمة الغير، والعرب يتوسعون كثيراً في إخراج الكلمات عن حقائقها إلى معانٍ أخرى مجازية.

أضرك، فدعا بعض حجبته، فقال: إنك لم تأتني بإنسان وإنما أتيتني بشيطان فأخدمها هاجر[١]، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده مَهْيَم[٢] فقالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر. قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء[٣][٤].

وقد قال إبراهيم عليه السلام لزوجه سارّة: قولي أنا أخته؛ قولي أنا أخته؛ لأن من عادة القوم أنهم لا يأخذون الأخت ولا يعتدون عليها؛ ولكن يأخذون الزوجة، وقد عَرَف إبراهيم ذلك عنهم فقال ما قال، والله أعلم بما كان.

إمرأة ما عرف التاريخ صابرة مثلها!!

فرحت سارة بهاجر، وأحبتها حباً شديداً، ووهبتها لإبراهيم عليه السلام؛ فولدت له إسماعيل، ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يخرج بهاجر وولدها إلى مكة ويتركهما هناك؛ ليعمر بهما هذا الوادي المبارك، فامتثل إبراهيم عليه السلام أمر ربه عزّ وجلّ وخرج بهما إلى هناك، حيث لا ماء ولا زرع، ثم تركهما وانصرف بعد وداع طويل ومرير، وكلما خطا خطوة تبعده عنهما أحس بالحنين إليهما، فلما أشرف على الوادي وكاد ينفصل عنه راجعاً إلى الشام، دعا ربه بدعوات سجلها الله في كتابه العزيز.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال جل جلاله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٧].

ولكن هل صحيح ما قيل: من أن سارة غارت من هاجر لما ولدت ولدها إسماعيل غَيْرة شديدة، وأغرت بها زوجها إبراهيم، وأوعزت إليه أن يبعدها عن وجهها ويفعل بها الأفاعيل؟!

نقول: كلا! فذلك محض افتراء؛ فهي امرأة سليمة القلب، نقية السريرة، لا

---

(١) أي أعطاها هاجر لتخدمها.

(٢) أي ماذا حدث، أو كيف الحال؟

(٣) هي كلمة فيها مدح للعرب، لأن ابن ماء السماء هو أبو النعمان بن المنذر ملك الحيرة.

(٤) هذا الحديث أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء من طريق مرفوعاً وموقوفاً، وأخرجه أيضاً مرفوعاً من طريقين في كتاب النكاح، وأخرجه مسلم في الفضائل مرفوعاً.

تدفعها غيرتها إلى مثل هذا ولا ما هو دونه مما فيه معصية للّه تعالى.

ثناء اللّه جل جلاله عليهما!!

وقد أثنى اللّه عزّ وجلّ عليها، وبشرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فكيف يتأتى منها هذا وحالها ما قد وصف اللّه عزّ وجلّ في قوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

إن هذا العمل لو نسب إلى امرأة عادية ـ لكانت موضعَ ذم عند العقلاء من خيرة الناس، فكيف بامرأة نبي آمنت به وهاجرت معه، وتخلقت بأخلاقه؟!

ومن أقوى الأدلة على أن الغيرة لم تحملها على ذلك، ما ورد في صحيح البخاري من أن هاجر سألته حين تركها: (آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم).

إذاً هو أمر اللّه لم يكن إبراهيم عليه السلام ليفعل ذلك عن أمره أو أمرها، وهل يليق به أن يسمع لها ويطيع في أمر كهذا؟!

لو قيل: إن فلاناً من الناس ـ أطاع امرأته في إلقاء ولده في مكان قفر، لا نبات فيه ولا ماء، بعيداً عنه، وهو رضيع، وأمه لم ترتكب جُرماً، ماذا يقول عنه الناس؟!

فعلى المسلم أن لا يتلقى كل خبر بالقبول حتى يعرِضه على كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ، ويُحَكِّمَ عقله في فَهم النصوص، وما تحتويه من المعاني اللائقة بالمقام، والمناسِبة لمقتضى الحال والمآل.

ومن تدبَّرَ بإمعان في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

نقول: من تدبر هذه الآية وجد من الأدلة على صدق ما ذكرناه ما يطمئن به قلبه، ويدفع عنه الرِيبة من أساسها.

فقوله: ﴿أَسْكَنتُ﴾ يدل على أخذ الأمان لهاجر وابنها من اللّه تعالى؛ لأنه أسكنهما في جوار بيته المعظم جلَّ جلاله وعزَّ جاهه في أحبّ البقاع إليه.

ولفظ: ﴿أَسْكَنتُ﴾ يشعر من أول نظرة إلى أن هذا الأمر فيه دلالة على الرضا والطمأنينة واستقرار الحال وحسن المآل.

وقوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يدل على أن ذريته ستكثر وتنتشر في هذه الأرض المباركة؛ بدليل التعبير بواو الجماعة، وأنه لم يسكنهم في هذا المكان إلا ليقيموا الصلاة لا لإبعادهم عن سارّة.

ودعاؤه لهم بأن يسخر لهم أفئدة من الناس تهوي إليهم، وأن يرزقهم من الثمرات ما يقيم أَوَدَهم ـ دعاؤه هذا يدل على أنه لم يفعل ذلك إلا بأمر اللّه ولأمر قضاه اللّه وقَدَّرَه.

سارّة تغار من هاجر غيرة محمودة لا مذمومة:

غارت إذاً سارة من هاجر غَيرة محمودة العواقب، وتمنت من أعماق قلبها أن يكون لها ولد من صُلب زوجها الحبيب؛ ليكون قرة عين له ولها، وليكون أخاً لإسماعيل، يشد من أزره، ويشاركه في أمره، ويكون معه في السراء والضراء، ويقوم كل منهما بواجبه نحو ربه ونحو أبيه؛ فسألت ربها عزّ وجلّ أن يحقق لها هذه الأمنية ولم تبالِ بعُقْمها؛ لعلمها أن اللّه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الفعال لما يريد؛ فاستجاب اللّه لها، وأعطاها سُؤْلَهَا إنه كريم وهاب.

الملائكة تبشر إبراهيم بغلام عليم بعد أن ناهز المِائة!!

فأنزل اللّه ملائكة من السماء على إبراهيم عليه السلام تبشره بغلام عليم من زوجه سارة؛ ففرح بذلك فرحاً عظيماً، وشاركته سارة سروره، وربما كانت أشدَّ منه فرحاً وعجباً؛ لأن عاطفة المرأة أقوى من عاطفة الرجل في مثل هذه الأمور، ولا سيما إذا نظرنا إلى ما كانت تعانيه من داء العقم وعاره.

وهذه البشرى تحمل في طياتها بُشَرَاً:

الأولى: أنها تلد غلاماً كما ولدت هاجر غلاماً.

والثانية: أن هذا الغلام سيكبَر؛ فلا تخشى عليه من الموت المبكر، وفي هذا ما فيه من إدخال الطمأنينة على قلبها وقلبه، وأنه يتزوج وسيولد له غلام اسمه يعقوب، وولد الولد أعز من الولد ـ كما يقولون.

ثم جاءتها بشرى أخرى فوق هذه البشرى، وهي أن اللّه عزّ وجلّ سيعمهم برحمته، وينعم عليهم بالمزيد من بركاته؛ جزاء صبرهما الطويل وشكرهما الدائم.

ومن عظيم هذا الأمر أن المَلَك الذي حمل البشرى لإبراهيم عليه السلام حملها إلى سارة أيضاً بخصوصها، وكلمها كما كلمه، وأزال من قلبها الوحشة والخجل، وأعلمها أن الأمر لا يخضع للأسباب ولا تعوقه العوائق؛ فهو أمر اللّه الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا

لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٣].

يذكر المفسرون أن الرسل الذين جاؤوا إلى إبراهيم عليه السلام بالبشرى كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، فلما دخلوا عليه قالوا: سلاماً؛ فسلم عليهم بسلام هو أحسن من سلامهم ـ كما يقول النحاة[1] ـ وهذا ما يقتضيه الشرع الحكيم[2]، وأحسن استقبالهم، وقدم لهم طعاماً شهياً، وهو لا يعلم أنهم ملائكة، وهذا الطعام عجل حنيذ ـ أي: مشوي ـ وقد وصفه الله في سورة الذاريات بالسمن فقال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فيضم هذا الوصف إلى ذلك.

وقوله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فيه أدب من آداب الضيافة؛ إذ خدمهم بنفسه، وقرب الطعام إليهم وهم في أماكنهم، ودعاهم إلى تناوله بلطف ومودة.

وكانت سارة ترى وتسمع ما يقوله الملائكة؛ فلم تملك نفسها حين سمعت بهذه البشرى؛ فصكت وجهها بأصابعها إظهاراً للعَجَب كما تفعل النساء، وقالت كما جاء في سورة الذاريات: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ وكما جاء في سورة هود: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

فكان قولها هذا تسبيحاً بحمد الله، وإقراراً بعظيم قدرته، وشكراً له على وافر نعمه، فسؤالها هذا ليس سؤال إنكار، كلا بل هو سؤال تعجب وإقرار.

ولهذا كان جواب الملائكة عن سؤالها هذا بما قد ذكر في الآية؛ فقد أزاحوا عنها دواعي العجب المفاجىء، وردوها إلى الحال التي كانت عليها من الطمأنينة والسكينة، ودعوا لها ولأهل بيت إبراهيم عليه السلام بوجه عام بمزيد من الرحمة

---

(١) قال ابن القيم في بدائع الفوائد جـ٢ صـ١٥٢... وقد كانت تحيته أعظم من تحيتهم، كما تفيد الجملة الإسمية؛ فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية، تقديره: سلمنا عليك سلاماً، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية، تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم.

لا ريب أن الجملة الإسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم عليه السلام أكمل وأحسن، وحذف الخبر يفيد سرعة الإجابة وحسن الترحيب، قال رحمه الله: وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه ﷺ، وهو مقام الفضل، وذلك بأن حياهم بأحسن من تحيتهم.

(٢) قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

والبركة؛ لأن اللّه يحمَد من حمِده، ويعظُم من عظمه؛ فهذا هو شأنه مع أنبيائه وأوليائه المقربين.

السيدة سارّة تلد وهي ابنة تسعين عاماً!!

وقد بُشِّرَ إبراهيم عليه السلام به بعد أن ناهز المِائة من عمره، وكانت زوجه رضي اللّه عنها في التسعين من عمرها، واللّه على كل شيء قدير، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

ومن عرف ذلك لا ييأس أبداً من رحمته، ولا يستنكف أن يسأله سؤال الواثق بعظيم قدرته؛ فقد جاء في الحديث الصحيح: (ادعوا اللّه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن اللّه لا يستجيب من قلب غافل لاهٍ)[1].

وشب الغلام العليم وترعرع بين أبويه الكريمين على مثال الخلق الفاضل والكمال الوافر، ونهل مِن أبيه العلم، وورث منه الحلم كما ورثه إسماعيل، إلا أن إسحاق قد برَّز في العلم؛ فوصف اللّه كلاً منهما بما قد برّز فيه واشتَهَر به حتى صار كالعَلَمِ عليهما، بحيث إذا قيل: أقبل العليم عرف بأنه إسحاق، وإذا قيل: أقبل الحليم ـ عرف بأنه إسماعيل.

زواج إسحاق وتبليغه دعوة اللّه سبحانه وتعالى:

ولما بلغ إسحاق عليه السلام مبلغ الرجال زوَّجه أبوه من (رفقة بنت بتوئيل) فولدت له: عيسو ويعقوب في بطن واحدة.

وقد أرسل اللّه إسحاق إلى قومه فلبث فيهم عمراً طويلاً يدعوهم إلى اللّه، ويعلمهم أحكام الشريعة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام.

وعاش إسحاق عليه السلام حتى بلغ من العمر مِائة وثمانين سنة، وكانت وفاته بعد غياب حفيده يوسف بمصر باثنتي عشرة سنة، ودفنه ابناه: عيسو ويعقوب في الغار الشريف حيث دفن إبراهيم وزوجه سارة، ورفقة امرأته.

الدروس والعبر المستفادة من قصة هذه المؤمنة العظيمة:

وبعد: فهذه قصة سارة في رحلتها الطويلة مع إبراهيم عليه السلام، وهذه هي سيرتها الحميدة في الأولين والآخرين، وهذا هو شأنها مع رب العالمين وأحكم الحاكمين جل جلاله.

وقصتها مليئة بالعظات والعبر ـ كما عرفنا ـ فهل من مُدَّكِرٍ؟!

---

(١) رواه الترمذي والحاكم في المستدرك.

إن أبرز ما في قصتها ـ حُسْنُ التوكل على اللّه، وعظيم الرجاء في رحمته؛ فقد كانت رضي اللّه عنها تثق كل الثقة في فضل اللّه سبحانه وتعالى، وتوقن اليقين كله بأن اللّه عزّ وجلّ لن يقطع رجاءها حين طلبت منه الولد وهي عقيم، إنها امرأة لا تعرف اليأس، ولا يعرف اليأس لها طريقاً، وكيف تيأس من رحمة اللّه وقد آمنت بربها إيماناً لا يخالجه شك ولا تعتريه شبهة.

لقد صبرت على العقم زمناً طويلاً، والناس يعيرونها بذلك، وهي لا تعير لهم سمعاً؛ لأنها تعلم أن الأمر كله للّه، وأنه سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم على أنفسهم، وأن وراء كل محنة منحةً، وأن مع العسر يسراً.

ومع العقم كان كِبَر السن؛ فلم يثنها هذا عن طلب الولد؛ لأنها تعلم أن قدرة اللّه جل جلاله لا تتوقف على الأسباب؛ فهو الذي يخلق الأسباب وَفق علمه الواسع وإرادته النافذة وقدرته المنجزة.

لقد تَحَنَّفَتْ مع زوجها للّه عزّ وجلّ، وانقطعت لعبادته، فلم يكن للشيطان عليها سبيل.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

فسلام اللّه وبركاته ورحماته على سارة وهاجر وزوجهما وأولادهما، وجعلهم في عليين، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

الصابرة الواثقة بحفظ اللّه لها

السيِّدةُ هاجرُ أمُّ إسْمَاعِيْلَ

عرفنا في حديثنا السابق عن سارة بنت هاران: أنها لما هاجرت مع زوجها إبراهيم عليه السلام إلى مصر ـ أراد طاغية من طغاتها أن ينال منها؛ فعصمها اللّه منه، فخلّى سبيلها وأهدى إليها هاجر؛ فأهدتها لزوجها إبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل؛ فأمره اللّه عزّ وجلّ أن يسكنها هي وولدها عند بيته المحرم؛ فأسكنها هي وولدها هناك، ودعا لهما وسائر ذريته بالخير والبركة.

ونريد أن نواصل حديثنا عن السيدة هاجر رضي اللّه عنها وعن ولدها إسماعيل عليه السلام فنقول: إن هاجر لما تركها إبراهيم عليه السلام ومضى لحاله ـ تعلقت به وقالت له: آللَّهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم قالت: إذاً لن يضيعنا، وهي كلمة تفيض من قلب سليم مفعم بالإيمان، وتدل على حسن توكلها على اللّه سبحانه وتعالى وعظيم ثقتها في فضل خالقها ومولاها، وتنبئ عن مدى علمها بسنة اللّه في خلقه، ومعونته مع المقربين من عباده، فهو عزّ وجلّ لا يضيع أجر المحسنين، ولا يقطع رجاء السّائلين، وهو خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين.

هكذا فلتكن نساء العالمين!!

لقد تبعته حين تركها وانصرف وقالت: يا إبراهيم أين تذهب و تتركنا؟ وكررت عليه هذا السؤال، وهي تعلم أنه لا يظلمها ولا يهضمها حقها، ولا يفرط فيها ولا في ابنها، لكنها تريد أن تستوثق من هذا الأمر، وتستفسرَ عن مصيرها ومصير ابنها فلعلها تجد منه جواباً مطمئناً، وهي تعلم أنّ ما قُدِّرَ سوف يكون.

ولما تركها وانصرف راشداً متوكلاً على اللّه تعالى، رجعت هاجر إلى مكانها عند البيت، وهي مطمئنة القلب مستأنسة في وحدتها بربها عزّ وجلّ، وهو نعم الأنيس.

وللّه دَرُّها! كيف مكثت وحدها في هذا المكان الموحش دون أن تخشى على نفسها ووليدها من الوحوش الضارية في الوديان والقفار، والهوامّ الكامنة في الجحور والحفر؟! وكيف اطمأنت إلى الماء والزاد الذي معها على قلته، ولم تفكر لحظة في نفاده؟!

إنها لصبور شكور قد اجتمعت فيها شعب الإيمان كلها، واستجمعت لنفسها

عزائم المتوكلين وخصائص الموقنين، والتوكل على اللَّه هو الاعتماد عليه والثقة بفضله مع مباشرة الأسباب.

واليقين هو الإيمان النقي الصافي الذي لا يخالجه شك ولا تعكر جلوته شبهة، لقد رضيت باللَّه رباً وبالإسلام ديناً، وأسلمت وجهها للَّه عزّ وجلّ، ورضيت بقضائه وقدره، فلبثت زمناً تشرب من الماء الذي معها وتأكل من الزاد الذي في حوزتها، وترضع وليدها حتى نفِدَ الماء والزاد، وعطش إسماعيل عليه السلام وعطشت هي أيضاً، وكان لابد أن تبحث عن الماء في كل مكان تستطيع أن تذهب إليه؛ فوليدها لا يصبر على الظمأ مثلها، والأمر جِدٌّ خطير، لا ينبغي فيه الانتظار حتى يأتي مرتحلٌ معه ماء؛ فتسأله أن يعطيها جُرُعاتٍ منه؛ فانطلقت تبحث عن الماء هنا وهناك فلم تجد؛ فصعِدت على الصفا ثم صعِدت على المروة، وأخذت تحدق بعينيها نحو الطرق المؤدية إلى مكة لعلها تبصر إنساناً يسعفها بجُرعة ماء لرضيعها، وكررت ذلك سبع مرات، فلم تجد شيئاً.

ونبع ماء زمزم!!

قال ابن عباس فيما يرويه البخاري: (قال النبي ﷺ: فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صَهْ[١] تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غوث[٢] فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء فجعلت تُخوِّضه[٣] وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف).

قال ابن عباس رضي اللَّه عنه: قال النبي ﷺ: (يرحم اللَّه أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً)[٤]. فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملَك: لا تخافي الضيعة، فإن ها هنا بيتاً للَّه يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن اللَّه لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً عَنِ الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله.

وظلت هاجر مع ولدها وحيدَيْن حتى جاءت عليهما رُفقة من قبيلة عربية يقال لهم: جُرْهُم؛ فطلبوا منها أن يعيشوا بجوارها لينتفعوا بهذا الماء؛ فأذنت لهم واستأنست بهم.

---

(١) كلمة بمعنى أنصت.

(٢) أي: بلغ قولك سمعي، إن كان عندك غوث فأت به..

(٣) تحركه بشدة هكذا وهكذا.

(٤) أي: لسقي الناس منها في مكة كلها وفي غيرها من القرى والمدن.

وعاشت هي وولدها إسماعيل في جوار آمن، وهو جوار اللّه تبارك وتعالى عند بيته المحرم، ثم في جوار هؤلاء العرب الذين ساقهم اللّه جل جلاله إليها، فجاؤوا إلى هذه الأرض المباركة على قَدَر، وكان إبراهيم عليه السلام يزور هاجر وابنها إسماعيل في كل سنةٍ مرةً أو مرتين بحسب ما تقتضيه الظروف والأحوال.

هكذا فليكن الآباء والأبناء!!

وشبَّ إسماعيل عليه السلام وأصبح قادراً على الضرب في الأرض؛ فجاء أبوه لزيارته، فلما رآه شاباً يافعاً وفتىً قوياً ـ تعلق قلبه به؛ فأراد اللّه عزّ وجلّ ألا يشاركه أحد في حبه، وهو النبي الذي تحنَّف[1] إليه وانقطع عن سواه فأراه في المنام أنَّه يذبحه ـ ورؤيا الأنبياء وحيٌ ـ فأتى إليه فقص عليه رؤياه، لا ليستشيره في هذا الأمر الذي قضاه اللّه وقدره، ولكن ليعرف رأيه ويختبر حلمه وصبره، وليهيء نفسه لاستقبال هذه التضحية بصدر رُحب وقلب مطمئن.؟!!

فوجده على علم بأن رؤيا الأنبياء حق، وأن أمر اللّه لا مرد له، وأن العبد ليس له في نفسه شيء، وأن كل شيء في رضا اللّه سبحانه وتعالى هين، وأن الموت في سبيل اللّه شهادة، وأن الصبر نصف الإيمان، وأن كثيراً من المؤمنين قد لقي من البلاء أشد من ذلك فصبروا واحتسبوا، وأن الأمر كله للّه أولاً وآخراً، فأفصح لأبيه عما يدور في خَلَده؛ فأقبل إبراهيم عليه السلام إلى ولده ليذبحه وهو أقوى منه عزماً وأشد صبراً وجَلَداً؛ فتلّه إلى جنبه وطرحه أرضاً، وأخذ السكين بيده اليمنى وهمّ بالذبح لتنفيذ أمر ربه سبحانه وتعالى فإن تأخير أمر اللّه عظيم!!

وضجت الملائكة وأدرك اللّه إبراهيم برحمته، وفدى ولده إسماعيل بكبش عظيم؛ فذبحه تحقيقاً للرؤية وتلبية للأمر، وجعل هذا الفداء سنةً متبعة في شريعة سيدنا محمد عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والتسليم.

وقد سجل اللّه هذه القصة في كتابه العزيز فقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١١١].

(١) أي: مال إليه بقلبه عن كل ما سواه وأسلم إليه أمره كله.

العظات والعبر من هذه القصة :

ومن هذه القصة نعلم أن اللَّه عزّ وجلّ أرحم على الولد من أبيه بل هو أرحم به من نفسه، وأنه سبحانه وتعالى لا يحب لعباده إلا الخير، ولا يريد أن يكلفهم ما لا طاقة لهم به، وإذا اختبرهم بشيء فإنما يريد أن يمحص قلوبهم لذكره، لكي لا تكون مشغولة بغيره؛ غَيْرة منه عزّ وجلّ على الصفوة من عباده.

فقد ابتلى خليله إبراهيم عليه السلام غيرة عليه من ابنه الذي بلغ السعي معه وقرَّت به عينه، وكاد يشغل به بعض الشيء عما محَّضه اللَّه له وهي الخُلة، كما قال جل شأنه: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ فأمره بذبحه لينزع منه ما قد يحمله ـ ولو للحظة ـ على التقصير في واجب هذه المرتبة العظيمة، فلما كان للَّه ما أراد لم يكن هناك داع لذبحه؛ ففداه بذبح عظيم، وفعل به ما يستحقه من التعظيم والتكريم، وجعل قصته مثلاً للآخرين، وعظة للمتقين.

ويتزوج إسماعيل عليه السلام بعد المحنة :

ولما بلغ إسماعيل عليه السلام الثامنة عشرة من عمره، تزوج فتاة من جرهم يقال لها: صدا بنت سعد، وجاء إبراهيم عليه السلام لزيارته وزيارة أمه هاجر فلما انتهى إلى بيت هاجر دلته على بيت ولده؛ فتوجه إليه فلم يجده، وسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا رزقاً، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم؛ فقالت: نحن بشرٌ وفي ضيق وشدة، وشكت إليه؛ فقال: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه؟!!

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً ـ أي: أحسَّ وأبصر أن ضيفاً قد ألمّ ببيته فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم، جاءنا شيخ صفته كذا وكذا؛ فسألني عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أننا في جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غيّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأمرني أن أفارقك؛ فالحقي بأهلك، وطلقها.

ذلك أن إبراهيم عليه السلام ـ أدرك أن هذه الزوجة فظة غليظة القلب، لا تحمد اللَّه ولا تصلح أن تكون أماً للذرية التي وعده اللَّه بها لتحمل رسالته إلى مشارق الأرض ومغاربها.

وكان إبراهيم عليه السلام قد توجه إلى بيت هاجر، وهناك لحق به ابنه إسماعيل، وأديا مناسك الحج معاً، وبعد انتهائها عاد إبراهيم عليه السلام إلى حبرون.

ومرت الأيام وتزوج إسماعيل مرة أخرى ـ قال ابن هشام ـ من عاتكة بنت

عمرو الجرهمي، قال الواقدي: إنها شاملة بنت مهلهل، وبعد عامين تاقت نفس إبراهيم عليه السلام للحج وزيارة ولده إسماعيل؛ فشد الرحال إلى مكة في قافلة صغيرة من بعض غلمانه، رواحل تحمل الخيام والزاد، وسار حتى وصل مكة وضرب خيامه؛ ثم توجه إلى حيث دارُ إسماعيل، فلم يجده فسأل امرأته عنه؛ فقالت: خرج يبتغي لنا طعاماً، قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم.

قالت: نحن بخير وسَعة، وأثنت على اللَّه عزّ وجلّ، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللَّهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه.

فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير، قال: أفأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال ذلك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسككِ.

وبحث إسماعيل عن والده فوجده يطوف حول الكعبة، وأتما مناسك الحج معاً كما في المرة السابقة.

واطمأن إبراهيم عليه السلام إلى تلك الزوجة الوفية الصابرة الشاكرة وتوقع أن ذريته ستكون منها؛ فحمِد اللَّه عزّ وجلّ وكرَّ راجعاً إلى حبرون، وهي البلدة التي يسكن فيها مع زوجه سارة.

وأغلب الظن أن إبراهيم عليه السلام كان يزور هاجر وإسماعيل في موسم الحج ليؤدي المناسك مع نخبة من خيار أتباعه؛ ولينشر دينه بين جرهم والعماليق الساكنين بمكة، وبين القبائل المارة بها في تجارتها، أو الوافدة إليها في موسم الحج.

ويتعاون الأب والإبن على بناء البيت الحرام:

ولبث إبراهيم عليه السلام زمناً ثم جاء إلى مكة لأمر عظيم الشأن، وهو بناء البيت الحرام؛ فالتقى بولده إسماعيل وأخبره بما جاء من أجله؛ فأبدى له رغبته في معونته على بناء هذا البيت المحرم؛ فكان إبراهيم عليه السلام يرفع القواعد من البيت، وإسماعيل يناوله الحجارة حتى أتما البناء.

يقول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

ولما بلغ إسماعيل أربعين سنة، بعثه اللّه للناس رسولاً يدعوهم إلى دينه ودين أبيه ودين الأنبياء جميعاً؛ فاستجاب لدعوته قوم، وأعرض عنها آخرون.

وفاة السيدة هاجر عليها السلام:

وبينما كان إسماعيل عليه السلام عائداً من رحلة في جنوب شبه الجزيرة العربية، ماتت هاجر رضي اللّه عنها، ودفنت بالحِجْر بجوار الكعبة، وكان عمره إذ ذاك خمسين سنة، وكان عليه السلام يتنقل في شبه الجزيرة العربية من مكان إلى مكان؛ ليدعو الناس إلى اللّه عزّ وجلّ، شأنه في ذلك شأن أبيه عليه السلام؛ فقد كان يفعل ذلك.

ولهذا عرف العرب جميعاً هذا الدين السمح؛ فاعتنقه الكثير منهم.

وبموت هاجر طويت صفْحة من صَفَحات التاريخ الخالدة؛ فكانت هذه الصفحة نوراً وهدىً لكل مؤمنة تريد أن تلقى ربها جل جلاله، سليمة القلب نقية السريرة حميدة السيرة، تجمع شعب الإيمان كلها، وتخلص للّه دينها، وتعمل جاهدة على أن تنال من اللّه الرضا كل الرضا، فسلام على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق في العالمين.

وسلام على سارة وهاجر وذرية أهل هذا البيت من المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدين.

صاحبة الملك والحكمة

السَّيدةُ بِلْقِيسُ مَلِكَةُ سَبَأ

بِلْقِيس ملكة من ملوك سبأ، ولِيَتْ المُلك بعد موت أبيها: الهَدهاد بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان، وذلك في القرن السابع عشر قبل البعثة.

وقد سَاسَت قومها سياسة حكيمة أشاد القرآن الكريم بها، وقصّ علينا طَرَفاً منها؛ فأحبها الخواص والعوام ـ لما تميزت به من الخُلُق الفاضل والسلوك النبيل، والعقل الرشيد والذكاء النادر في عالم الأذكياء من الرجال والنساء ـ وخضعوا لحكمها، ووضعوا أنفسهم تحت إمرتها، وأسلموا لها قيادهم على رضاً وطيب نفس منهم، مع أن النخوة العربية كانت تأبى كل الإباء أن يولوا أمرهم امرأة.

امرأة فريدة في سماتها النفسية والعقلية والخلقية!!

وهذا إن دل على شيء ـ فإنما يدل على أنها امرأة فريدة في سماتها النفسية والخلقية والعقلية، فاقت في قدُراتها وملكاتها عظماء الرجال من قومها؛ فآثروها بالملك، وارتضوا أن تكون خلفاً لأبيها، وكان من أعظم ملوكهم، وأشدهم بأساً، وأوسعهم حلماً وسياسة.

ولفرط حبهم لها وتقديرهم لعظمتها ـ زعموا أنها ابنة امرأة من الجن يقال لها: ريحانة بنت السكن!!!

وليس الأمر كما زعموا، وإنما دعاهم لذلك ـ الإفراط في الإعجاب بتصرفاتها لشؤون الملك وحسن تدبيرها لعظائم الأمور في حينها، بعد استشارتهم فيها والنظر لها.

ومهما تكلم المؤرخون عنها ـ فلن يستطيعوا أن يُجلُّوا لنا سيرتها كما جَلَّاها القرآن الكريم.

فعلينا إذاً أن نَتَعَرَّف على سماتها وخصائصها وسياستها مع قومها من قصتها مع سليمان عليه السلام.

إن القرآن الكريم قد أخبرنا أنها كانت ملكة على مدينة سبأ، وهي المدينة

التي قصّ اللّه عزّ وجلّ علينا قصة أهلها، الذين كانوا يعيشون في أمن ورخاء وطيب هواء وسط جِنان فيحاء، فلما كفروا وأعرضوا ـ بدل اللّه يسرهم عسراً وأمنهم خوفاً، وشتت شملهم ومزقهم كل ممزق(١).

وأخبرنا أنها قد أوتيت من كل شيء يحتاج إليه الملوك في سياسة الناس وتدبير الملك، وأن لها عرشاً عظيماً، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

الهدهد أستاذ وعبقري في الذكاء!!!

وجاء خبرها إلى سليمان عليه السلام على لسان الهدهد، وهو ليس كالهداهد، التي نراها أو نسمع عنها، وإنما هو هدهد فريد في نوعه، قد صنعه اللّه بقدرته صنعاً خاصاً؛ ليكون داعياً من دعاته المرشدين؟!!

وأخبرنا جل جلاله في هذه القصة أنها وقومها يسجدون للشمس من دون اللّه، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم فصدهم عن سبيل الهدى، وأنهم لا يهتدون إلا إذا جاءهم رسول من عند اللّه، يصحح لهم المسار، ويرشدهم إلى طريق الحق والرشاد.

يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢٦].

هذه الآيات تكشف عن مواطن العبرة في أسمى مظاهرها وأرقى معانيها؛ إذ يتفقد سليمان الطير؛ ليتعرف على الحاضر منه والغائب، فيفقد ـ بعد التحري والبحث ـ طائراً عجيباً، له في الجند شأن عظيم؛ فهو يتقدم الجند في مسيرهم ليكشف لهم عن مواطن الماء ـ وهو الهدهد، فيغضب سليمان عليه السلام لفقده غضباً شديداً ويتوعده بالتعذيب أو الذبح، إن لم يأته بحجة ظاهرة مقنعة، تمهد له العذر في غيبته.

وظل سليمان عليه السلام يترقب مجيء الهدهد، فإذا هو مقبل من جنوب الجزيرة العربية فسأله سليمان عليه السلام عن سبب غيابه، فمكث غير بعيد؛ ليريه أنه لا يخافه ولا يخشاه، ولا يعنيه ما تهدده به أثناء غيابه؛ لعلمه أن ما أخطأه لم

---

(١) اقرأ قصتهم في سورة سميت باسمهم. من قولهم تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٩].

يكن ليصيبه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وحدثه بكل أناة وثقة عن أمر عظيم ما كان ينبغي أن يجهله، وهو قريب منه، ولديه من الوسائل ما يجعله محيطاً به وملماً بأبعاده من غير جهد ولا مشقة.

حقاً إن هذا الهدهد لا يخاف إلا اللّه، ولا يهاب أحداً سواه!! يمكث قريباً من سليمان؛ ليعلمه أنه غير قادر عليه ـ وإن كان بين يديه ـ إلا إذا أقدره اللّه؟! فالملك للّه أولاً وآخراً، والأمر كله بيده، والخلق جميعاً في قبضته.

ويتكلم الهدهد فيقول بكل ثقة واعتزاز: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: أوتيت من العلم ما لم تؤته، وعرفت شيئاً لم تعرفه، وأنا طير صغير، وأنت ملك عظيم!! سخّرَ اللّه لك الجن يعملون بين يديك، وسخّرَ لك الريح تجري بأمرك!!

إن الأمر الذي أحطت به كان قريباً منك، ومع ذلك لم تحط به علماً، ولا أدري هل كان ذلك قصوراً منك أم كان ذلك شيئاً حجبه اللّه عنك لحكمة يعلمها.

قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾، وهي قرية في جنوب الجزيرة العربية على قرب من بَلاط ملكك، ولديك من الوسائل ما يقرب البعيد، جئتك من سبأ بنبأ يقين، لا ريب فيه.

والنبأ في اللغة: هو الخبر العظيم الفائدة.

وأخذ يقص عليه هذا النبأ، وهو مصغ إليه، والناس من حوله منصتون في دهشة وإعجاب؛ فهم لا يفهمون لغته ولا يعرفون ما يقول.

قال: إني وجدت امرأة تملكهم، وتسوسهم بحكمة وفطنة، ولها عرش عظيم كعرشك يا سليمان، وربما يكون أعظم.

الهدهد يعطي سليمان عليه السلام درسين عظيمين!!!

إنه قد لقنه درسين ـ والنبأ العظيم لم يبدأ بعد.

الدرس الأول: يفيد أن اللّه عزّ وجلّ قد قسم العلم على أجناس كثيرة من خلقه، فمهما أوتي الإنسان من علم فإن هناك من الخلق الصغير الشأن من هو أعلم منه بأمور كثيرة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

فلا يفخر إنسان على إنسان، بل ولا على حيوان بما آتاه اللّه من علم مهما كان علمه غزيراً.

والتواضع للعلم وأهله من شِيمة العلماء، والشكر على نعمة العلم من سمات الأتقياء، وطلب المزيد منه من شأن المحبين له، والشغوفين بتحصيله، والعاقل من يقول: ربِّ زدني علماً.

والدرس الثاني: أن عرش سليمان ليس هو الوحيدَ في العالم، وليس هو الرجل الذي يملك قومه ويسوسهم ـ بل هناك امرأة، نعم هي امرأة، ملكة في قومها، قد أوتيت من الخبرة والحكمة شيئاً لا يستهان به، وأوتيت من كل شيء تحتاج إليه يا سليمان، وهذا رد على قوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

ولها عرش عظيم، بحسب مقاييس العصر الذي كان يعيش فيه سليمان عليه السلام، وتعيش فيه ملكة سبأ.

ومقاييس العظمة كثيرة، وهي تختلف من عصر إلى آخر، كما هو معروف في علم الاجتماع، فلم يفخر سليمان بعرشه، ولا بما أوتي من علم غزير، وثراء واسع، وسلطان كبير إلا تحدثاً بنعمة اللّه عليه.

وسليمان عليه السلام منزه عن الغرور والخُيَلاء، ومعصوم من كل ذنب، فالدرس نفذ من خلاله إلى غيره من أتباعه وممن يجيء بعدهم إلى يوم القيامة.

ثم أخذ الهدهد بعد هذا التمهيد الخطير يقص عليه هذا النبأ الذي جاء به، فيقول: (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون اللّه) وهي خلقٌ مثلهم، وعلل ذلك بأن الشيطان قد لعب برؤوسهم، وأفسد عليهم فطرتهم، وزين لهم سوء أعمالهم، وصدهم عن السبيل المستقيم، فهم لا يهتدون إلى اللّه الذي خلقهم من العدم، وربَّاهم على موائد العز والكرم.

وهم في حاجة إليك يا سليمان، يا من أوتيت النبوة، وكلفت هداية الخلق بقدر وسعك وطاقتك، وكان الأولى بهؤلاء أن يسجدوا للّه الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، ويعلم ما تخفون وما تعلنون، وهو اللّه الذي لا إله سواه، ربي وربك، ورب كل شيء، وهو صاحب العرش الأكبر والملك الأعظم جل جلاله.

سليمان عليه السلام يسمع قول الهدهد ويبادر الاتصال!!

وما كاد سليمان عليه السلام يسمع قول الهدهد حتى بادر بالاتصال بأهل هذه المملكة ودعوتهم إلى الإيمان، فكتب إليهم كتاباً موجزاً بليغاً، يدعوهم فيه إلى الإسلام، وأرسل الكتاب إليهم مع الهدهد الذي جاء بنبئهم، فهو أحقُّ بذلك من غيره؛ لأنه أعرف بهم وبالطريق إليهم، وقد أوتي من الحكمة ما يجعله قادراً على إلقاء الرسالة إلى الملكة بطريقة تجذب انتباهها وتحملها على أخذها وفضها وقراءتها، وهو أقدر على أن يعرف صدى هذه الرسالة في نفوس القوم إذا عرضتها عليهم مليكتهم.

وفي هذا يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ ٱذْهَب

﴿بِكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٧ ـ ٢٨].

ولسليمان عليه السلام الحق في ذلك؛ فالتثبت في مثل هذه الأخبار ضرورة سياسية وعسكرية؛ حذراً من أن تكون مكيدة من الشيطان، فربما يكون الشيطان قد أغرى الهدهد بذلك؛ ليدفع سليمان إلى محاربة قوم ليسوا على الحال التي وصفها، فيصيبهم بجهالة لا مبرر لها، وربما يكون الهدهد قد وَهِم في تبين أحوال القوم، أو قصر في استكشاف أمرهم.

فقوله هذا الخبر، والخبر ـ كما قال علماء اللغة ـ قول يحتمل الصدق والكذب لذاته، فلا بد من التثبت على كل حال.

ومن جهة أخرى قد قال سليمان للهدهد ما قال؛ لكي يبين لقومه أن السلطان من شأنه أن ينظر في كل أمر يعرض عليه ببصره وبصيرته؛ ليقتدوا به في ذلك.

وربما أراد أن يُلَقِّنَ الهدهد درساً في مخاطبة الملوك فقال له ما قال؛ لأن الهدهد قد جرحه بما ألقاه عليه أمام جنده، فأراد أن يبادله واحدة بواحدة، حتى يَرْعَويَ فلا يتجرأ عليه مرة أخرى.

وأيّاً ما كان، فإن المتدبر في كتاب اللّه تعالى يستطيع أن يتعرف من خلال هذا الحوار الساخن على الكثير والكثير مما تحتمله الألفاظ من المعاني والمقاصد.

ويمضي السَّفير السليماني ـ الهدهد ـ ويلقي الكتاب إلى الملكة!!

ويمضي الهدهد في تنفيذ أمر الملك، ويلقي الكتاب إلى الملكة سبأ، ثم يراقب الأمر من بعيد كما أمره؛ ليخبره بما رأى وما سمع.

وتقرأ الملكة هذا الكتاب بإمعان وتدبر؛ فيعجبها أسلوبُه المهذب، وتستشف منه أن كاتبه يتكلم من منطق القوة، وأنه حكيم قد جمع كل ما يبتغيه منها ومن قومها في جملتين:

الأولى: تنهاهم عن التعالي عليه، والثانية: تأمرهم بالإتيان إليه مسلمين.

وهذا النهي قد حوى الكثير والكثير من أنواع الهداية وألوان الوعد الكريم المترتب على امتثاله عن رضاً وطيب نفس.

ولم تكن هذه الملكة مستبدة برأيها، كما هو الشأن في كثير من الملوك، ولكنها كانت تستشير وتستخير، ثم تأخذ الحيلة المثلى والتدبير المحكم إذا لم تجد رأياً صائباً يرضي الأطراف جميعاً.

فها هي تقرأ الكتاب، وتعرف محتواه ومغزاه ومرماه؛ فيجتمع أشراف القوم وتعرض عليهم ما فيه بأسلوب مهذب، وتعبير جميل، فيه تعظيم لشأنهم، وتربية

لنفوسهم، واعتراف لهم بأنهم من ذوي المكانة السامية عندها، وأنهم من أقرب المقربين إليها، وأنها لا تقطع أمراً دونهم، ولا تقدم على شيء حتى تستشيرهم فيه.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣٢].

وقد عَرَف الملأ أن في الكتاب طلباً لا هَوادة فيه، ولا مهرب منه، فهاجوا وماجوا، وأكثروا اللغط والغلط حتى ابتعدوا عن صواب القول في هذا الأمر الجلل، وتَنَحَوْا عن الجِدّ والحزم في اختيار القرار، فهدَّأت الملكة من رَوْعهم وخففت من حدتهم، وطلبت منهم أن يفتوها في هذا الأمر، ويشيروا عليها فيه برأي يجنبها ويْلات الحرب، وهي كما عهدوها عند حسن ظنهم بها، لا تقطع أمراً دونهم، ولا تقصر في تحقيق الأمن والسلام والرخاء في ربوعهم، فهي دائماً تحضرهم في مجلسها، وتشهدهم على كل شأن من شؤون دولتها، وتستعين بهم على تأدية واجباتها، وتحب لهم ما تحب الأم لولدها.

ولكن القوم لم يكونوا أهلاً للمشورة، ولا أصحاب رأي في مثل هذه الأمور، وإنما كانوا يعتزون بمكانتهم عندها، ويغترون بقوتهم وبأسهم، ويميلون إلى الحرب أكثر مما يميلون إلى السلام، ولا يقدّرون عواقب الأمور، لهذا أسندوا الأمر إليها، وهي امرأة وهم رجال، وقد جمعتهم للمشورة،

فكيف يتركون الأمر لها ولا يظهر مِنْ صواب الرأي ما تسترشد به في اتخاذه، في شأن ما جاء في هذا الكتاب الكريم! إنهم لم يكونوا عند حسن ظنها بهم؛ فقد خذلوها في مطلبها، وافتقدتهم في الموقف الذي كان ينبغي أن تجدهم فيه.

إن الرأي الذي أبدَوْه هو الدمار بعينه كما تصورته؛ فالحرب إذا اندلعت لا تبقي ولا تذر، ولا سيما إذا كان العدو ملِكاً كسليمانَ، شديد البأس عظيم الخطر.

فلا بد من الحيلة إذاً، والحرب خُدعة، وقد تفعل الحيلة ما لا تفعله السيوف، والمرأة بطبعها ذات حيل، وذات كيد عظيم، وهذه موهبة خصت بها دون الرجل في غالب الأحوال.

فانظر كيف حكى القرآن رأيهم ورأيها: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٣ ـ ٣٥].

التهور والتسرع من شأنه أن يهلك الأخضر واليابس!!!

إن التهور والتسرع في مثل هذه الأمور من شأنه أن يهلك الأخضر واليابس، وإن استخدام القوة قبل استخدام الحيلة في فض النزاع وحل الإشكال حماقةٌ لا يرتكبها إلا من سفه نفسه، وفقد عقله وحسه.

وقد رأت هذه الملكة الذكية أن تقدم لسليمان وأشراف مملكته هدية عظيمة؛ لعلمها أن الهدية تجلب المحبة وتذهب العداوة، وتقرب الناس بعضهم من بعض، وتكشف عن طبيعة المُهدى إليه، فإنْ قبلها سليمان فهذا ما كانت تبغي، ولا شك أن هذا القَبول سيترتب عليه من الأمور ما تُحمد عاقبته، وإن لم يقبلها فالأمر جِدٌ لا هزل فيه، وعندئذ يكون من الخير لها ولقومها أن تستجيب له وتدخل في دينه؛ إيثاراً للسلامة والعافية؟!!

فيا لها من امرأة عاقلة حازمة، تعرف من أين يأتي الخطر، وكيف تتحراه قبل وقوعه، وكيف تتقيه لو وقع!!

ولكن سليمان عليه السلام يفطن لهذه الحيلة ويرد الرسل بالهدية، ويوحي إليهم بأنه قادم لحربهم بجنود لا قبل لهم بها، ولا طاقة لهم على قتالها، وأنه عازم عزماً مؤكداً على إخراجهم من قريتهم أذلة صاغرين، والملكة تعرف ذلك حق المعرفة، وقد صرحت به لقومها، وأين هي من سليمان عليه السلام؟!! ومن هي التي تخوض معه حرباً غير متكافئة بكل المقاييس الحربية؟! فلا بد أن تستجيب لهذا الداعي إلى الإسلام، فتدخل معه في دينه ويدخل معها من قومها من شاء.

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ
*ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٦ ـ ٣٧].

الملك سليمان عليه السلام يجمع حاشيته ويستشيرهم:

وعلم سليمان عليه السلام بعزمها عن طريق الوحي أو الإلهام، فاستشار الملأ في الإتيان بعرشها، وقال لهم: أيكم يأتيني بعرشها في أقرب وقت وأحسن حال، فقام عفريت من الجن وقال: أنا آتيك به قبل أن ينفض مجلسك، وقال رجل[(١)] ممن آتاه الله علماً من الكتاب: بل أنا آتيك به قبل أن تنظر إلى شيء ثم يرتد إليك بصرك عنه، أي في أقل من الثانية بالحساب الفلكي، فأمره فأتى به،

(١) يقال: إن اسمه آصَف بن برخياء.

فلما رآه مستقراً عنده ـ علم أن هذا اختبار من اللّه عزّ وجلّ؛ فتواضع لعظمته، واستغرق في شكره كما هو شأنه عند حدوث النعم؛ تحقيقاً لأمر اللّه تعالى له ولأبيه من قبلُ، ولأتباعهما من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ [سبأ: ١٣].

يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۞ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ۞ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

ولم يكن سليمان عليه السلام يرجو من إحضار العرش إلا ليريها آية من آيات اللّه الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته؛ لتؤمن به عن قناعة وثقة، لا ليريها مظهراً من مظاهر قوته هو ـ كما يتوهم بعض من لا علم لهم بأوصاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

سليمان عليه السلام يختبر ذكاء الملكة!

وأراد من جهة أخرى أن يختبر ذكاءها وقدرتها على التمييز بين عرشها وعرش غيرها، وينظر كيف يكون تصورها، وحالها عندما ترى عرشها أو عرشاً كعرشها، وماذا تقول عندما تُسأل عنه، إلى غير ذلك مما يكشف عنه هذا الاختبار.

وقد أمر سليمان عليه السلام بعض خدمه أن يُنكِّر لها عرشها، فيغير بعض ملامحه، فلما جاءت ونظرت إلى العرش قيل لها:

أهكذا عرشك؟ فقالت: كأنه هو! لتُمْسِك بالأمر من طرفيه، فإنها لو قالت هو، فربما لا يكون هو، فتكذب، وتضطر إلى التماس الأعذار، ولو قالت: ليس هو، تكون كاذبة أيضاً، وتبدو وكأنها غبية ليس لها حُنْكة في التمييز بين ما لها وما ليس لها.

وتعلن الملكة إسلامها مع سليمان للّه رب العالمين:

ولما دُعيت إلى دخول الصرح الذي كان يجلس فيه سليمان، رأت كأن هذا الصرح لجة ماء؛ فكشفت عن ساقيها، وكشفت في الوقت نفسه عن بدائيتها وضيق أفقها، وضعف شخصيتها أمام هذا الملك العظيم، والنبي المرسل عليه السلام، وعبرت عن ارتباكها أمام هذه المواجهة الصعبة، فقال لها سليمان: لا بأس عليك؛ إنه صرح مُمَلَّس من قوارير مملوءة بالماء، يخيل للناظر إليها من أول وهلة أنها

لجة؛ فأعلنت إسلامها مع سليمان، وندمت على ما كان منها من عبادة غير اللَّه سبحانه وتعالى.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ * قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤١ ـ ٤٤].

إنها امرأة جمعت بين العلم والحكمة، وحسن التدبير والسياسة، ودماثة الخُلُق وصدق المقال، وسلامة الفطرة؛ فقد قدرت الأمور قدرها، والتمست لقومها السلامة بكل سبيل، وساقتهم بالحكمة إلى الدين الحق، وذللت ما في طريق هدايتهم من عقبات كؤود، فقد وفدت على سليمان بعد أن أسلمت وجهها للَّه عزّ وجلّ ومعها قومها، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾؛ ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾، وقد عرفت بفطنتها أن العرش عرشها، وأن اللَّه هو الذي أقدر سليمان على الإتيان به؛ معجزة له على نبوته ورسالته عليه السلام.

وجاء قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. جواباً عن سؤال مقدر ينشأ في ذهن السامع وكأنه يقول: كيف خرجت عن فطرتها وعبدت الشمس من دون اللَّه، وهي على ما هي عليه من رجاحة العقل، وسلامة الطبع، وسرعة البديهة؟!

فقيل: إنها من قوم أوغلوا في الكفر، وقد نشأت فيهم فأشربت حب هذه العقيدة الفاسدة، وأعماها التقليد عن عبادة اللَّه الذي خلقها من العدم، وأسبغ عليها وافر النعم، ورباها على موائد العز والكرم، وكانت في حاجة إلى من يردها إلى الفطرة التي فطرها اللَّه عليها، فكانت هدايتها وهداية قومها على يد سليمان عليه السلام.

وقد أعلنت إسلامها وهي في قومها، ثم أعلنته وهي أمام عرشها في بَلاط سليمان، وأعلنته وهي بين يديه، وأعلنت أنها أسلمت مع سليمان للَّه رب العالمين.

فهي توحي لسليمان بأنها معه في إسلامها، وما دام الأمر كذلك فلتكن معه أيضاً في مُلكه قريبة منه أو مصاحبة له، وكأنها ـ تخطبه لنفسها بأسلوب غير مباشر، فيه تورية وتلميح يدل على ذكاء مفرط يدعو إلى العجب والإعجاب! فمن حقها أن تنعَم بجواره، فهي ملكة وهو ملك!! وهي من أنسب النساء له وأحقها به، وقد استجابت له من أول وهلة ومن غير تردد، وجاءت إلى بيته، ومثَلَت بين

يديه، فلا ينبغي أن تخرج من هذا البيت بخُفَّيْ حُنَين، وقد أسلمت معه، فلتبقَ معه حتى تلقى اللّه عزّ وجلّ، وزواجه منها أقل مكافأة يقدمها إليها.

هذا ما فهمته من قولها: (مع سليمان) ولو لم تُرِد ذلك لقالت: وأسلمت للّه رب العالمين، واللّه أعلم بمراده من كلامه، فإن يكن هذا الفَهم صحيحاً فلي غُنمه، وإن يكن خاطئاً فعليَّ غُرمه.

الدروس المستفادة من قصة هذه الملكة العظيمة:

هذه هي قصة ملكة سبأ، يحدثنا عنها القرآن بإيجاز معجز، فيرينا بوضوح ليس فيه أدنى غموض:

١ ـ أن المرأة كالرجل في عقله وتدبيره، ووفائه بالعهد وإخلاصه لدينه وأمته، وقدرته على مواجهة الأمور بالحزم والعزم والحيلة، واتخاذ الوسيلة المثلى في التغلب على الصعاب وتحقيق المراد.

ولهذا جعل اللّه ثوابها مثل ثوابه في الدنيا والآخرة؛ فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ومن هنا نعلم أن المرأة لا يمنعها مانع من تولي بعض الوظائف التي تكون كُفأً لها، وقادرة على تأديتها على الوجه الصحيح، بشرط أن يتحقق لها ما يحفظ عليها دينها وعرضها.

وإذا رأينا للفقهاء قولاً يخالف ذلك ولم يكن له وجه صحيح من الكتاب والسنة، رددناه عليهم بمثل ما جاء في هذه القصة؛ فإن اللّه عزّ وجلّ قد أشاد بما صنعته هذه الملكة، وقَصَّهُ علينا؛ لنتخذه مثلاً يحتذى، وعبرة نستلهم منها الرشد في نظرتنا إلى المرأة وتعاملنا معها واعتمادنا عليها في بعض الأمور التي تحسنها كما يحسنها الرجل، حتى ولو كانت هذه الأمور خاصة بالحكم والسياسة.

ولو لم يكن الأمر كذلك، لبَيَّنَ اللّه لنا في هذه القصة خطأ القوم في توليتها ملكة عليهم ورضاهم بذلك من غير اعتراض، وإسناد الأمر إليها فيما استفتتهم فيه، وإظهار استعدادهم لما تأمرهم به.

والقرآن الكريم إذا أخبرنا بخبر ولم يُعَلِّق عليه بشيء فهو يُقرُّه؛ إذ لو كان فيه أدنى انحراف لَبيَّنه.

وقد عرفنا من قصة هذه الملكة ـ أنها كانت أهلاً لهذه الوظيفة العظمى بكل المقاييس الاجتماعية والسياسية، لكن ينبغي أن نعلم أن الإسلام لم يعطها في ظله أمر الخلافة العظمى لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها هنا، وأعطاها الحق في تولي أية وظيفة بعدها تكون أهلاً لها دون عوائق، ودون أن تكون سبباً في تعطيل الرجال عن ممارسة حقوقهم فيها بالأصالة(١).

وليس هذا القول منافياً لقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤].

لأن المراد بالقوامة في الآية ـ قوامة الرجل في بيته وداخل أسرته، كما يفهم من قوله جلّ جلاله في تعليلها: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤].

وليس هذا القول أيضاً منافياً لقوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم: (خاب قوم وَلَّوا أمرهم امرأة)؛ لأن هذا الحديث إنما قيل في ظروف خاصة بأهل فارس؛ فقد انتهى إلى علم النبي ﷺ أن امرأة كانت تملكهم، فاستشرى الفساد في الرعية، واستبد الظلمة منهم بأهل تلك البلاد؛ فتوالت عليهم الهزائم من قِبَلِ الروم، فلم يجدوا منها مخرجاً، فقال النبي ﷺ ما قال نعياً على هؤلاء الذين لم يولوا منهم قائداً ماهراً ينقذ البلاد من هذه الهزائم المتوالية، وركنوا إلى امرأة ليس لها من الأمر شيء، وليس لديها خبرة بتدبير شؤون الملك والسياسة، فأين هي من بلقيس ملكة سبأ؟! ولو كانت مثلها لنجت هي وقومها من ضوائق الدهر وبوائق الحرب والدمار!!

أو كما يقول الشيخ محمد الغزالي(٢) ـ رحمه اللّه رحمة واسعة ـ (لو أن الأمر في فارس شورى، وكانت المرأة الحاكمة تشبه (جولدا مائير) اليهودية، التي حكمت إسرائيل، واستبقت دفة الشؤون العسكرية في أيدي قادتها ـ لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة).

ولك أن تسأل: ماذا تعني؟ وأجيب: بأن النبي ﷺ قرأ على الناس في مكة سورة النمل، وقصّ عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ التي قادت قومها إلى الإيمان والفلاح بحكمتها وذكائها، ويستحيل أن يرسل حُكماً في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي!

فهل خاب قوم ولوا أمرهم امرأة من هذا الصنف النفيس؟! إن هذه المرأة

---

(١) هذا ما ذكره ابن حزم في كتابه: المُحَلَّى، ذكرناه بالمعنى.

(٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص٥٧ وما بعدها.

أشرف من الرجل الذي دعته ثمود لقتل الناقة ومراغمة نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٩ ـ ٣٢].

ومرة أخرى أؤكد أني لست من هواة تولية النساء المناصب الضخمة، فإن الملكة من النساء قلائل، والمقادير هي التي تكشفهن، وكل ما أبغي، هو تفسيرَ حديث ورد في الكتب، ومَنْعَ التناقض بين الكتاب وبعض الآثار الواردة، أو التي تفهم على غير وجهها، ثم مَنْعَ التناقض بين الحديث والواقع التاريخي.

ثم قال ـ رحمه اللّه بعد كلام كثير فيه عظات وعبر ـ إن القصة ليست قصة أنوثة وذكورة! إنها قصة أخلاق ومواهب نفيسة أهـ.

٢ ـ ويعنينا هنا بالدرجة الأولى أن نهمس في أذن كل امرأة تتولى أمراً من أمور المسلمين بوجه خاص، أو تتولى أمراً من أمور الدولة بوجه عام أن تحرص كل الحرص على أن تتحلى بهذه الأخلاق الفاضلة، التي تحلت بها هذه الملكة الحكيمة، التي جعلها اللّه مضرب الأمثال في حسن السياسة مع قومها من جهة، ومع غيرهم من جهة أخرى.

إننا بحق نهيب بكل امرأة لها في قومها، أو في بلدتها، أو في عالمها شأن ـ أن تملك زمام أمرها في كل عمل تمارسه، وفي كل وظيفة تسند إليها، وفي كل واجب يناط بها، وفي كل حق تطالب به.

إن بلقيس قد تحلت بأوصاف غاية في السمو والإقدام، وخَطَتْ بخطوات واسعة نحو الكمال البشري فنالت من شرف الذكر ما لم تنله امرأة أخرى في عصرها فيما حباها اللّه سبحانه وتعالى به.

فقد فضلها اللّه على قومها بالعلم؛ فاستحقت به السيادة والقيادة.

ومع العلم كان الحلم من أخص صفاتها؛ إذ لا خير في علم بلا حلم، كما يقول علي رضي اللّه عنه.

فانظري ـ أيتها الأخت المسلمة العاقلة ـ إليها وهي تخاطب الأشراف من قومها فتبدو من خلال كلامها معهم أنها خادمة لهم، وهي أميرتهم، تدعوهم إلى المَشُورة فيما تريد الإقدام عليه وتنتظر رأي كل رشيد منهم؛ لتأخذ به دون اعتراض أو تكبر.

فلما لم يسعفها أحد بما فيه خيرٌ لها ولقومها ـ عرضت عليهم رأيها الحكيم في هدوء وسكينة وحب تقدير!!!

وهكذا يفعل الحلم مع العلم فعل السحر في قومها؛ فيرضون بما أشارت به كل الرضا من غير أدنى اعتراض.

ومع العلم والحلم تميزت بحسن الحيلة وسلامة المنطق ومواجهة الصعاب بصبر دؤوب وصدر رحب وقلب مطمئن.

فهل لكِ أن تتخذي هذه الملكة قدوة لكِ في شأنك كله ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ـ ووالله لا ولن تندمي أبداً ـ .

وهل لكِ فيما جمعته هذه المرأة العربية من الحكمة السامية التي عرضها لنا ربنا عزّ وجلّ في سورة النمل؛ فتكوني عند حسن الظن بك في تقدير الأمور ومواجهة الصعاب بالصبر والحلم وسعة الصدر وحسن التصرف فيما يعرض عليك وَفق المقاييس العلمية والأحكام الشرعية والقواعد الأخلاقية فتكوني بذلك امرأة مفضالة وأماً مثالية.

أسأل الله لكِ الهداية والتوفيق والسداد في القول والعمل، وأن تكوني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ـ آمين.

الصابرة المجاهدة الذكية

السَّيدَةُ آسِيةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ

رضي اللّٰه عنها

امرأة فرعون التي تحدث عنها القرآن في سورة القصص وسورة التحريم، هي: آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان ملكاً لمصر في عهد يوسف عليه السلام، وهي امرأة رمسيس الثاني، الذي تولى حكم مصر في سنة ألف ومِائتين وتسعين قبل الميلاد.

المرأة الكاملة الصالحة الصابرة:

وهي امرأة صالحة كانت تدين بدين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام.

وكانت تسمى في عصرها (إيست نفرت)، ولكن الرسول ﷺ سَمَّاها (آسية)، وهو اسم قريب من إيست؛ فقد قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري[١] : (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام).

وقال في الحديث الذي رواه مسلم[٢] في صحيحه، وأحمد[٣] في مسنده عن أنس بن مالك رضي اللّٰه عنه: (خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول اللّٰه).

ويرى الطاهر بن عاشور في تفسيره[٤] أن التي قالت لزوجها وملئه: لا تقتلوه - غير التي آمنت بموسى عليه السلام حيث بعث وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ [التحريم: ١١].

والأصح: أنها هي، كما حققه الأستاذ الدكتور: رشدي البدراوي في كتابه[٥] : موسى وهارون عليهما السلام.

---

(١) جـ٤ صـ١٩٣.
(٢) جـ٢ صـ٢٤٣.
(٣) جـ٣ صـ١٣٦.
(٤) انظر جـ٢٨ صـ٣٧٦، عند تفسير سورة التحريم.
(٥) انظر صـ٨٠٤ ـ ٨٠٧، صـ٨٩٨ ـ ٩٠٢.

فقد حقق ذلك بالأدلة التاريخية، التي ذكرها أكثر المؤرخين للآثار المصرية القديمة.

ونحن لو أمعنّا النظر فيما جاء عنها من كتاب اللَّه عزّ وجلّ ـ لوجدنا أن التي كَفَلته واتخذته قرة عين لها، هي التي آمنت به حين بعث إلى قومه، وإلى فرعون وملئه، وجادت بنفسها في سبيل عقيدتها، وجاهدت في اللَّه حق جهاده.

ثناء القرآن الكريم عليها:

اقرأ بتدبر قول اللَّه جلّ جلاله: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: ٩].

واقرأ قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وحاول مرة بعد مرة أن تستجمع الأدلة التي تؤيد القول بأنها هي التي كفلته، وهي التي آمنت به.

ويؤيد هذا أيضاً ما حكاه القرآن الكريم عن فرعون حين دعاه موسى إلى التوحيد الخالص: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، وقولها: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ يدل أيضاً على أنها كانت مؤمنة بدين إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام؛ فقد رأت بنور اللَّه أن لهذا الوليد شأناً، وألقى اللَّه في قلبها حبه؛ فكافحت من أجل البقاء عليه كفاحاً مشرفاً، وجمعت همتها في تخليصه من أيدي السفاكين للدماء.

وقد قال اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

ومن خلال حديث القرآن عنها نستطيع أن نتعرف على شخصيتها السوية، وإيمانها القوي، وهمَّتها العالية، وحكمتها البالغة؛ فهي امرأة ضربها اللَّه مثلاً للذين آمنوا جميعاً: رجالاً ونساءً؛ لكي تكون قدوة لمن أراد أن يحقق لنفسه شُعَب الإيمان كلِّها، ومكارم الأخلاق في أسمى درجاتها.

امرأة عظيمة والعظماء قليل:

إنها امرأة كانت تحت عُتُلٍّ جبار، يدعي أنه هو الرب الأعلى، ومع ذلك قد احتفظت لنفسها بخصال الخير كلها، المتمثلة في الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

إنها قد آثرت ما يبقى على ما يفنى، وسألت ربها عزّ وجلّ أن يبني لها عنده

بيتاً في الجنة، وقد قدمت العندية ـ للدلالة على عظيم حبها لربها سبحانه وتعالى؛ فقد اختارت الجار قبل الدار ـ كما يقولون.

وتلك حكمة سامية وهبها اللّه لها، بها تمكنت من حبه وقربه، وسألت ربها في تضرع وتواضع أن يُنَجِّيَها من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين، الذين يركنون إليه، ويعملون له عملاً لا يرضاه اللّه تعالى.

إنها تريد أن يُبَرِّئَها اللّه من الظلم والظالمين، وأن يعصمها من الزلل، الذي وقع فيه فرعون من رأسه إلى مُشاش قدميه، وأعانه عليه المجرمون من قومه، كما قال جلّ جلاله: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

فرَحَمات اللّه وبركاته عليك يا صاحبة البيت في الجنة، وجعلك في عليين مع أحبابه وأوليائه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

السَّيدةُ أمُّ مُوسَى عَلَيْه السَّلاَمُ

أم موسى عليه السلام هي: يوكابد بنت هاند بن لاوي بن يعقوب عليه السلام، كما هو المشهور في كتب التاريخ والسِيَر.

وزوجها: عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام.

وحي اللَّه عزّ وجلّ لامرأة:

وقد قص اللَّه علينا طرفاً من سيرتها في كتابه العزيز، في سياق قصة ولدها موسى عليه السلام، فقال جلّ جلاله في سورة طه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ * إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ * إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٣٦ ـ ٤٠].

وقال عزّ وجلّ في سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ * وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ * فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٧ ـ ١٣].

ومن خلال النظر في هذه الآيات يتبين أنها كانت سليمة القلب، شفافة الروح، قد عرفت ربها سبحانه وتعالى حق المعرفة؛ فألهمها رشدها، وآتاها تقواها، وأكرمها غاية الإكرام، وحفظ لها وليدها عند عدوها، ثم رده إليها فكان قرة عين لها، وجعله نبياً مرسلاً، وأنزل عليه التوراة هدىً ونوراً.

معنى وحي اللَّه تعالى لها:

فقد أوحى إليها وحي إلهام، أو أرسل إليها ملكاً يكلمها وهي لا تراه، أو أراها في المنام أن ترضع وليدها: موسى عليه السلام ما دامت آمنة عليه، فإذا

خافت عليه ألقته في اليم، وهي مطمئنة عليه من أي خطر يتهدده، غير آسفة على فراقه؛ فإنه سبحانه وتعالى سيعيده إليها سالماً لم يمسسه سوء، وبشرها بأنه سيكْبَر في حجرها، ويبلغ مبلغ الرجال، ثم يجعله نبياً مرسلاً، ويا له من وعد كريم!!

فظلت ترضعه مدة، فلما أدركها الخطر، ورأت زبانية فرعون مقبلين عليها ـ أعدت له من فورها تابوتاً محكماً وألقته فيه، كما أمرها ربها عزّ وجلّ وقذفته في اليم بعد ما ربطته بحبل رفيع حتى تستطيع أن ترده إليها إذا زال الخطر؟!!!

وفي يوم نسيت أن تربط التابوت بالحبل أو ربطته به، لكنه أفلت منها أو انقطع، وقذف النيل التابوت إلى قصر فرعون؛ فأرسلت امرأته في طلبه، وهي آسية بنت مزاحم، وقد مضى الحديث عنها.

وجاء الخدم بالتابوت إليها، فلما فتحته، أبصرت وليداً بَهِيَّ الطلعة، جميل الصورة، مستنير الوجه؛ ففرحت به فرحاً شديداً، وقالت (موشى موشى)، ومعنى موشى أو موسى في لغة أهل عصرهم: الوليد، فاشتهر بهذه التسمية على ما قيل.

سيدنا موسى عليه السلام يُربَّى في بيت الطاغية فرعون!!

فلما جاء فرعون و أبصره، غضب من وجوده في بيته؛ وقد رأى أنه ليس من بني جِلدته، وأمر بذبحه على مرأىً منه، فاستوهبته منه آسية، ونهت عن قتله وقالت لفرعون: دعه حيّاً؛ ليكون قرة عين لي ولك، ونسعد برؤيته، وننعَم بوجوده معنا في بيتنا، وعسى أن ينفعنا في تدبير شؤون الملك، أو نتخذه ولداً ننسبه إلينا، ونفخر به بين أهلينا وذريتنا؛ وقد حرمنا من الإنجاب، فاستجاب لها بعد أخذ ورد، وتركه بين يديها وانصرف!!!

ويُكلم قلب الأم الحزين:

أما أم موسى فإنها أصبحت وقلبها خالٍ من كل شيء إلا من وليدها، ولقد كادت تفقد وعيها وتُظْهِرُ أنه وليدها، وتستغيث بمن يأتيها به، ويستخلصه باللين أو الشدة من أيدي أولئك الفجار، الذين خلت قلوبهم من الرحمة، وتجردوا من كل صفات الإنسانية الخيّرة، غير أن اللّه عزّ وجلّ ثبت قلبها وقوّى عزمها على الصبر والاحتساب، وذكَّرها بما وعد به؛ فالتزمت جانب الحكمة، وأخذت بالأسباب، واستعانت باللّه جلّ جلاله على تحقيق المطلب، كما هو شأن المتوكلين؛ فأرسلت أخته (كُلْثم ـ أو مريم بنت عمران) لتبصر حاله في قصر فرعون من بعيد؛ خوفاً عليها من بطشهم، ولكي لا يشكوا في أمرها؛ فيحملوها بالقوة على الاعتراف بأنه أخوها؛ فيقتلوه ويقتلوها.

فانطلقت تَتَتَبَّعُ أثره؛ لتعلم خبره عن بعد، بحيث اتخذت لها جانباً من

جوانب القصر بعيداً عن الشك والتُهَمَة؛ فبصُرت به، وعرفت أن امرأة فرعون جاءت له بمرضعات كثيرات؛ فحرّمهن اللّه عليه فلم يتناول ثدي واحدة منهن.

ويجمع اللّه الحبيبين بعد طول غياب:

وهنا تدخلت تنصح لهم فقالت: هل أدلكم على أهل بيت يحسنون كفالته ويكرمون مثواه، ويقومون بشأنه كلّه خير قيام؟ فقبلوا منها هذا النصح بعد أن استوثقوا من صدقها، و أيقنوا أنها لاتعرف الوليد وليس لها به صلة، فدلتهم على أمه؛ فأرسلوا إليها، وهم لا يشعرون بأنها أمه، وقدموا لها الوليد لترضعه؛ فتناول ثديها وامتصه بسهولة ويسر؛ ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وقالت امرأة فرعون لها: اسكني معنا في هذا القصر المُنيف؛ لترضعي هذا الوليد الوضيء، فاعتذرت بأنها لا تستطيع أن تعيش معهم في هذا القصر؛ ولها زوج و أولاد، وطلبت منهم أن تصحبه إلى بيتها فأجابوها إلى طلبها وأرسلوه معها، وأغدقوا عليها وأوسعوا لها العطاء، وعاش الوليد مع أمه في أمن ورخاء؛ حتى شب على الطوق وبلغ أشده واستوى عوده، فقرت به عينها صغيراً وكبيراً، ونعمت بصحبته حتى لقيت ربها عزّ وجلّ.

كوني كأمّ موسى:

إن هذه المرأة الصالحة والأم الرؤوم ـ مثل صادق لكل امرأة تريد أن تستلهم رشدها من ربها جلّ جلاله، وتتلقى منه الأوامر والنواهي بالقَبول والطاعة، وتتسلح بالثقة بفضله وحسن التوكل عليه، وتتوقع منه سبحانه وتعالى الرحمة في كل وقت، وتعلم علم اليقين أنه أرحم بها من نفسها على نفسها، وتتجمل بالصبر على المكاره؛ فإن المكاره مِنح في صورة محن، فتشكره عليها ولا تتبرم منها؛ فهي كالدواء للداء، قد يكون مُرّاً في الظاهر، لكنه ناجع للداء على كل حال.

فأم موسى عليه السلام مرت بظروف صعبة؛ فَتَلَقَّتْهَا بالرضا، واستعانت بربها على تَخَطِّيها بسلام؛ فمرت بها تلك الظروف مرور الكرام، وتحقق لها وعد اللّه عزّ وجلّ بنجاة وليدها من خطر لا يتوقع أحدٌ له منه نجاة، ورده إليها في عزة وكرامة، وكفله جلّ شأنه بعنايته ورعايته، وألقى عليه محبة منه في قلب كل من رآه.

وهذا جزاء من تزكى وتطهر، وصبر وشكر، وأسلم أمره كلّه لخالقه ومولاه جلّ جلاله.

فسلام على أم موسى في العالمين، وسلام على كل نبي مرسل، وعلى كل وَلِيّ مُقَرَّب.

أسأل اللّه لنسائنا أن يكنَّ كأم موسى وأن ينتهجن نهجها ويتأسين بها، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

السَّيدَةُ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ
رضي اللَّه عنها

مريم بنت عمران: أم عيسى عليه السلام ـ صِديقة بلغت الغاية في الصدق مع اللَّه ومع النفس ومع الناس!!!

يقول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

المرأة التي كمَّلها اللَّه عزّ وجلّ من النساء!!

كملها اللَّه بدينها، وجَمَّلَهَا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبَرَّأها من كل شبهة لاحت لكل من لاحاها وعاداها وظن بها الظنون، وجعلها وابنها آية للعالمين، وقصّ علينا خبرها في مواضعَ كثيرةٍ من كتابه العزيز، وأنزل فيها سورة سميت باسمها، وضربها مثلاً للمؤمنين والمؤمنات في العفة والنزاهة والعبادة والتبتل إليه عزّ وجلّ.

وكان أبوها رضي اللَّه عنه حِبْراً من أحبار اليهود، وإماماً من أئمتهم، وزاهداً من كبار زهادهم.

ويرجع نسبه إلى سليمان عليه السلام، وكان أكثرَ آبائه أئمة في العلم والزهد والتقى.

وكانت أمها: (حنّة بنت فاقود بن قبيل) ـ امرأةً ورعة عابدة، تحب اللَّه حبّاً شديداً؛ بدليل أنها لما حملت، وهبت ما في بطنها له جلّ جلاله، وكانت تتمنى أن يكون الحَمل ذكراً، فلما وضعت حملها أنثى، وهبتها لخدمة المعبد؛ فعاشت مريم رضي اللَّه عنها وأرضاها في بيت ربها، لم تختلط إلا بالعبّاد والزهاد.

كفالة زكريا عليه السلام لها:

وقد كفلها زكريا عليه السلام، بعد أن تنازع كفالَتها كبارُ أهلها، وأجرى اللَّه على يديها الكرامات، وصان قلبها من الهواجس والشبهات، وأعدها إعداداً خاصاً يليق بأمثالها من الصالحات القانتات.

وقد أعدَّ لها زكريا عليه السلام في تربيتها زوجه، وهي خالتها، وكانت امرأة صالحة بارَّة بزوجها وأهلها وجيرانها وقد أعدَّ لها زكريا عليه السلام مكاناً خاصاً في محراب المعبد؛ ليصونها عن أعين الناظرين، وكان لايدخل عليها أحدٌ إلا هو وامرأته، وكان كلما دخل عليها وجد عندها رزقاً ساقه اللَّه إليها، فسألها عن هذا الرزق الذي يأتيها وهو في دهشة وتعجب؛ فتجيبه بكل ثقة وإخلاص: قد جاءها من عند اللَّه عزّ وجلّ دون أن تعرف متى ولا كيف جاءها!!!

قيل: كان عليه السلام كلما دخل عليها المحراب ـ وجد عندها فاكهة الشتاء في زمن الصيف، وفاكهة الصيف في زمن الشتاء!!!

وفي ذلك المقطع من قصتها يقول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧].

وقد كفلها زكريا عليه السلام بأمر من ربه؛ لأنه إمام قومه أولاً، وزوجُ خالتها ثانياً، فما كان لقومها أن يختلفوا معه في كفالتها، ولكنهم كانوا يرغبون فيها؛ تقرباً إلى اللَّه تعالى، فطلبوا منه آية على أنه أحق بذلك منهم؛ فأوحى اللَّه إليه أن يأمرهم بطرح أقلامهم في النهر، على أن يطرح هو قلمه أيضاً، فأي الأقلام ظل ظاهراً على وجه الماء فصاحبه أحقُّ بكفالتها، فظهر قلم زكريا عليه السلام فسلّموا له راضين بقضاء اللَّه عزّ وجلّ.

وفي ذلك يقول اللَّه جلّ شأنه لنبيه محمد ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمرن: ٤٤].

اعتزال السيدة العذراء لتتفرغ لعبادة ربها:

ولما بلغت مريم رشدها اعتزلت قومها؛ لتتفرغ تماماً لعبادة ربها عزّ وجلّ، فاتخذت لها مكاناً خاصاً بها لا يصل إليه أحد، وتركها زكريا عليه السلام وشأنها في ذلك.

وربما يكون قد لقي ربه سبحانه؛ فخشيت على نفسها من أن يمسسها سوء من قِبَل بعض المتعبدين، فأرسل اللَّه إليها جبريل عليه السلام في صورة رجل سوي؛ فحسبته رجلاً يريدها بسوء فاستعاذت بالرحمن منه، والتمست من ذاك

المتمثل أمامها أن يفارقها إن كان تقياً يخاف اللّه ويخشى عذابه، فأخبرها أنه رسول ربها جاء يبشرها بغلام ذكي؛ فتعجبت من ذلك أيما تعجب! وقالت: كيف يكون لي غلام ولم يمسسني زوج؟! ولم أكن من البغايا، ولن أكون أبداً!

فقال لها الروح الأمين: هذا ما قضى اللّه به، وهو أمر عليه هيِّن، وإنه تعالى سيجعله آية للناس يرون فيه عجائب صنعه ودلائل قدرته، وأمر اللّه نافذ وقضاؤه محتوم؛ فنفخ جبريل عليه السلام في جيب دِرْعها من جهة صدرها؛ فحملت به في الحال.

فلما رأت الحمل احتجبت عن قومها، واتخذت لها بيتاً بعيداً عنهم هو بيت لحم على ما قال أكثر المؤرخين والمفسرين.

المحنة الكبرى التي ألمَّت بالسيدة العذراء!!

فلما آن موعد ولادتها، وجاءها المخاض ـ ألجأها الطَلْق إلى جذع نخلة كانت هناك، فأمسكت بها حتى وضعت حملها فتمنت يومها أن تكون في عداد الأموات، كي ينساها الناس فلا يذكروها أبداً.

وفي ذلك يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢٣].

ومعنى ﴿فَأَجَآءَهَا﴾: ألجأها إلى جِذع النخلة؛ لتمسك به من شدة الطلق.

ولما وضعت حملها لم تدرِ كيف تواجه قومها به، وهي مَن هي في الصلاح والتقى والنزاهة والعفة!! فإذا بالمَلَك عليه السلام يناديها من تحتها ـ أي: من جهة قريبة منها ـ قائلاً لها: لا تحزني ما دام اللّه معك، ولا تَخْشَي على نفسك من القِيل والقال، وأَجمِعي أمرك وارعَي ولدك، واعلمي أن اللّه قد مَنَّ عليك بالماء والطعام؛ فالنَهَر أمامك والنخلة فيها غذاؤك؛ فضميها إليكِ بواسطة جذعها تساقطْ عليك رطباً طازجاً فكلي واشربي هنيئاً مريئاً واهدئي بالاً وطيبي نفساً.

فإن رأيتِ أحداً من الناس ينظر إليك، ويعرف من أنت، وأراد أن يسألك عما تحملينه بين يديك ـ فاعتذري إليه من عدم التكلم معه بأنك قد نذرت للرحمن صوماً في يومك هذا بألا تكلمي إنسياً.

إنه لترتيب إلهي حكيم، يترتب عليه ما تحبه وترضاه من البراءة التامة مما ستُرمى به حتماً على أحسن وجوه البراءة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦].

والذي ناداها هو جبريل عليه السلام على الراجح من أقوال المفسرين.

ومعنى ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ أي: من مكان قريب منها كما أشرنا، أو من مكان أسفلَ منها، ويقال لكل قريب: هو تحتك، أي: هو في مكنتك أن تملكه أو تصلَ إليه بسهولة، ويقال: فلان تحته سيارة، أي: يملكها ويتمكن من الانتفاع بها.

وقيل: إن الذي ناداها هو ولدها؛ لتعلم أنها لو أشارت إليه عند قومها فسألوه لأجاب بلسان فصيح: إنه عبد اللّه آتاه الكتاب وجعله نبياً، فيطمئن قلبها، وتوقن بحماية اللّه جلّ جلاله لها وتبرئته إياها.

فامتثلت مريم رضي اللّه عنها أمر ربها؛ فاستجمعت قواها، وأخذت طريقها من بيت لحم إلى قومها ببيت المقدس، وهي واثقة من تبرئة اللّه عزّ وجلّ لساحتها بما شاء وكيف شاء، فلما رأوها تحمل وليدها بين يديها وقالوا ما وسعهم أن يقولوا، وسخروا منها، وتندروا بها، وأفرغوا جهدهم في قذفها وسبها، وهي صامتة لا تتكلم، فلما اجتمعوا عليها، ولم يبقَ منهم في القرية رجل ولا امرأة إلا خرج؛ ليسهم بنصيبه في توبيخها وإحراجها ـ أشارت إليه إشارة فهموا منها أنها تقول لهم: سلوه من هو، وما حاله، ومن أين أتى؟ فازدادوا تمادياً في السخرية والاستهزاء وقالوا: عجباً لك! لم لا تتكلمين أنتِ؟! أتريدين أن نكلم صبياً في المهد لا يفهم سؤالاً ولا يَحيرُ جواباً، ولا يقدر إلا على البكاء والعويل؟!

معجزة من أعظم معجزات الكون!!

فإذا بالصبي يتكلم بكلام فصيح يعلن فيه عن نفسه، وعما خلقه اللّه من أجله، وعن حاله مع ربه وحاله مع والدته!! فمنهم من عرف الحق، وأدرك حقيقة المعجزة وآمن بالذي خلق فسوى؛ فاعتذر لمريمَ رضي اللّه عنها وتاب وأناب، ومنهم من ظل في نفسه شيء من الشك والشبْهة.

وفي ذلك يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ

مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَـٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٣٣].

لقد كانت مريم وابنها من آيات اللّه الكبرى للعالمين جميعاً من إنس وجن.

آية تدل على أن اللّه هو الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١].

القرآن الكريم يسطِّر ذكرها على مرّ العصور:

وقد ضربها اللّه مثلاً للذين آمنوا في كل زمان ومكان هي وآسية امرأة فرعون فقال جلّ جلاله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾[التحريم: ١١، ١٢].

آسية امرأة فرعون كانت مثلاً صادقاً في العقيدة التي رسخت في أعماق قلبها، وخلت من كل شبهة ترِد عليها، واستهانت في التمسك بها بكل ما لقيته في سبيل نصرتها من ويلات.

ومريم بنت عمران كانت مثلاً في الطهر والحَصانة والنزاهة عن كل ما يعاب به إنسان في خلائقه وشيمه.

وكانت أيضاً مثلاً رائعاً في إيثار حب ربها سبحانه وتعالى وقربها من حضرة قدسه على حب الدنيا وزينتها، وقرب أي أحد سواه، فلم يشغلها عن ذكره شاغل من هنا أو هناك، ولم يثنها عن عبادته شيءٌ من متاع الدنيا مع إقبالها عليها بكل صنوف النعيم.

وكانت مريم رضي اللّه عنها مثلاً رائعاً في العفاف والنبل، والخضوع والتواضع، والتعبد لخالقها ومولاها جلّ شأنه وعزَّ جاهه وقوي سلطانه؛ فقد لاذت به في محنتها، ووَثِقت بفضله في نجاتها من ألسنة قومها، وأحسنت التوكل عليه في أمرها كلِّه، وصَدَّقَته كل الصدق في أقوالها وأحوالها، وتبتلت إليه منذ طفولتها، وكانت من خيار خلقه ومن صفوة المقربين إليه سبحانه وتعالى.

وهي من الأربعة اللاتي كمّلهن اللّه بالدين والخلق القويم.

وقد تقدم ما يفيد ذلك الكمال في الحديث النبوي الصحيح عند الحديث عن السيدة آسية امرأة فرعون رضي الله عنها.

إنها سيدة نساء العالمين في زمانها بلا منازع، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

فقد اصطفاها لحمل عيسى وطهرها من كل دنس، واصطفاها لطاعته ومحبته والأنس به على نساء العالمين؛ لتكون آية من الآيات الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته.

الدروس المستفادة من قصة مريم الصدِّيقة:

والعبرة من قصتها تتمثل واضحة جلية في شُعَب الإيمان كلها، فمن أراد أن يعرف الصدق في أسمى صوره فليتعرف عليه من خلالها؛ فهي صِدِّيقة تجسد الصدق في حركاتها وسكناتها.

ومن أراد أن يتعرف على الطهر في أرقى معانيه فليتوصل إلى معرفته في أوصافها التي خلعها الله عزّ وجلّ عليها.

ومن أراد القدوة في الفِرار إلى الله وجدها عندها؛ فقد صدّقت بكلمات ربها أي: بوعده ووعيده وقضائه وقدره، وصدقت بكتبه السماوية كلها، وكانت من القانتين جميعاً رجالاً ونساءً على السواء، ولم تكن من القانتات فحسب، وهذا معناه أنها سبقت أهل زمانها في ذلك بوجه عام فلم يفقْها أحد من النساء والرجال في هذا المضمار.

فرضي الله عنك وأرضاك يا أمَّ المسيح وحشرك الله يوم القيامة تحت ظلِّ عرشه يوم لا ظل إلا ظله ـ إنه على كل شيء قدير.

القسم الثاني

أمهات
سيد الأنام محمد ﷺ

(يا آمنة! إنكِ قد حملت بسيد هذه الأمة)

أمهاته ﷺ أربعٌ:

١ ـ فواحدة وَلَدته: (آمنة بنت وهب)

٢ ـ وثانية أرضعته وهي: (حَليمة السعدية).

٣ ـ وثالثة احتضنته وهي: (بركة بنت ثعلبة)، أم أيمن.

٤ ـ ورابعة أشرفت على تربيته حين كان في كنف عمه أبي طالب هي: (فاطمة بنت أَسَد الهاشمية).

فأسهمن جميعهُن في تنشئة سيد الأمة ﷺ وتربيته أفضل تربية، فلم يكن أبرَّ منه بهنّ، ولا أوفى لعهودهن. وكيف لا؟!! وقد شهد له ربه عزّ وجلّ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

السَّيدةُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ

نسبها:

وهي بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن لؤي بن غالب بن فِهر[١].

أمّها:

كِبَرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الداربن قُصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر[٢]، ولدت في منتصف القرن السادس الميلادي من أسرة تعتبر من أشرف القبائل العربية وأضمنها وأشرفها سلالة، وكانت تتسم بالنباهة والبيان، وتعرف بالذكاء وطلاقة اللسان.

المباركة، أمّ سيد الكائنات، أخر الأنبياء والرسل، وصاحب الرسالة المنزلة من السماء ﷺ، الأم التي أحيطت بالبشائر بأن ذكرها باقٍ إلى الأبد..

نَذر عبد المطلب ـ شيبة الحمد ـ والفداء:

وكان عبد المطلب سيدُ قريش وجدّ الرسول الحبيب ﷺ قد نذر للّه عزّ وجلّ أنْ إذا رزقه اللّه عشرة من الذكور لينحرن أحدهم شكراً للّه وتقرّباً إليه. وتحقق المَرام، وصار لعبد المطلب عشرة ذكور، وبادر إلى تنفيذ نذره، فأقرع بين أولاده ليعلم أيهم سينحر، وخرج القِدْح على (عبد اللّه)، أحبهم إليه، فما العمل؟ وأشار عليه وجوه القوم أن يفديَه بعشرة من الإبل، وقدّم الإبل ثم أقرع بينها وبين ولده، فخرح سهم (عبد اللّه) وظلّ يزيد في كل مرّة عشراً من الإبل حتى بلغت المِائة، وعندما أقرع بينها وبين ولده، وقعت القرعة على الإبل، فسُر عبد المطلب لذلك سروراً عظيماً ونحر الإبل المِائة فداء ولده الحبيب، وعمّت الفرحة قريشاً بنجاة ابن سيدهم عبد المطلب. كيف لا؟ والبشرية جمعاءُ بانتظار محمد بن عبد اللّه ﷺ.

الخِطبة المباركة والزواج الميمون:

كان سيد مكة ـ عبد المطلب ـ يريد أن يسعد بولده ويزوجه، ولم يجد بين

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٥٦.

(٢) سيرة ابن هشام.

نساء قريش وكرائِمها خيراً من الطاهرة العفيفة (**آمنة بنت وهب**) فخطبها إليه، وتزوجها (**عبد اللّه**).

خلال الأفراح التي دامت ثلاثة أيام، تزوج عبد اللّه من آمنة بنت وهب أم صفوة خلق اللّه ﷺ، وفي الليلة الأولى أفاقت مرتاعة على رؤيا جاءتها في النوم، وحدّثت عبد اللّه بأنها رأت كأن شعاعاً من النور ينبثق من كيانها اللطيف، فيضيء الدنيا من حولها، حتى لكأنها ترى به قصور بُصرى في أرض الشام!!! وسمعت هاتفاً يهتف بها: (إنك قد حملت بسيد هذه الأمة)!!!

سفر الزوج الحبيب للتجارة:

قضى الزوج الحبيب العروس عبدُ اللّه عشرة أيام مع عروسه الحبيبة، ثم التحق بالقافلة المتوجهة شمالاً نحو بلاد الشام، فخافت آمنة وارتعشت، فطمأنها وانتزع نفسه من بين يديها، بينما كان القلق والتوجس يفترس أعصابها!!!

بعد شهر من غياب الزوج الحبيب، أحسّت بالحَمل ودبّ الشوق إليه، وودّت لو طارت إليه بالبشرى، ولكن، هيهات!! لكِ اللّه يا أمَّ الحبيب محمد ﷺ.

الفاجعة العظمى!!

وظلت تعدّ الأيام بطيئة حتى جاء وقت العودة، وهي تترقب عودة الحبيب بفارغ الصبر، دخل عليها والدها بصحبة عبد المطلب، وأعلماها أن (عبد اللّه) زوجها، تخلّف عند أخواله في (يثربَ) لمرض ألمَّ به، وطلب منها الصبر والدعاء له، لكن (عبد اللّه) كان على موعد مع الموت، ولمّا جاءها نعيه، وقع الخبر عليها وقوع الصاعقة وسقطت في لُجّة الأحزان. وصلها خبر وفاة (عبد اللّه) ودفنهِ في يثربَ، وهو لا يزال عروساً لم تكتحل عيناه برؤية زوجه مرة ثانية، ولم يتجاوز عمره ثمانية عشر ربيعاً.

ولادة منقذ الإنسانية وهدية اللّه للبشرية ﷺ:

وجاءها المخاض أوان السَحَر ليلة الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل، وكانت على موعد مع الفرج! وستجد في مولودها عزاءً عن الزوج الذي فقدته وشيكاً.

لم تشعر السيدة الفاضلة ـ آمنة الزُهرية ـ حين وضعته بألم، إلا أن نوراً ساطعاً خرج منها، وملأ ما حولها، ولفّها مع وليدها من كل جانب.

بعد وقت قصير أرسلت آمنة مولودها الحبيب إلى البادية ليتم رضاعه، فغاب

عنها أكثر من عامين، وحين عاد بدأت تحسن تربيته، وتسبغ عليه كل عنايتها وحنانها، وهو ينمو بسرعة، حتى بدت عليه علائم الرجل العظيم وهو في سن السادسة ﷺ!!

وفاتها:

وفي مكان بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، بين بيتها وقبر الحبيب زوجها، وسط الضّياع والصحراء والحرارة الملتهبة، هبّت عاصفة محرقة عاتية، فظلّت تكافح أرتال الرمال، وهوج الرياح، ووعورة المسالك حتى أصابها الإعياء الشديد، فأقامت في مكانها، وأدركت أن أجلها قد أصبح قريباً ومحتوماً!! فتشبثت بطفلها الوحيد، تعانقه ويعانقها بلهفة ولوعة أم تعشق الدنيا في وجه طفلها البريء، ودموعها تنهمر من عينيها مدرارة وسخيّة، والطفل يناديها ويشجعها، وفجأة تراخت ذراعاها وخَفَت بريق عينيها، وقالت بصوت يحتضر: (كلّ حيّ ميّت، وكلّ جديد بال، وكلّ كبير يفنى، وأنا ميّتة وذكري باقٍ، فقد تركت خيراً وولدت طهراً).

وفي هنيهة لامست أم حبيب اللّه، وأمل الإنسانية ﷺ، صفحة الوجود والعدم، ها هي العاصفة الهوجاء قد هدأت، وحل الموت والصمت والسُّكون، لا يعكره سوى الصمت الموحش، وكلّ شيء من حوله تلفه رهبة الموت...

وتتسارع الأيام والسنون..

وبعد أربعة وعشرين عاماً، تصمت الدنيا، ويفتح التاريخ سجلّه الحافل، لتدخل السيدة (**آمنة بنت وهب**) التاريخ من أوسع أبوابه، ولتسجّل في سجل الخالدين كأمٍ للنبي العربي الأمي العظيم محمد بن عبد اللّه ﷺ.

جزاكِ اللّه خيراً يا آمنة بما قدمتيه هدية للبشرية، ورضي عنك وأرضاك وآنسك في قبرك وجعله روضة من رياض الجنة وأنزل عليك سِجال رحمته وعفوه كرمه، وجعل روحك في الخالدين. آمين.

السَّيِّدةُ حَلِيْمَةُ السَّعْديَّة
رضي اللّه عنها

اسمها ونسبها:

وهي بنت عبد اللّه بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن قبيصة بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن(١).

زوجها:

زوجها الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن قبيصة بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن (٢)، بعد أن وضعت السيدة (آمنة بنت وهب) وليدها العظيم الحبيب ﷺ، أرادت أن ترضعه، بيد أنه رفض أن يلتقم ثديها!! فانتابها خوف على حبيبها، ودار بخَلَدها أنه لم يرضع لجفاف لبنها، فقد كانت وفاة زوجها عبد اللّه ذاتَ تأثير كبير جداً فيها، فقد ذهب لبنها من شدّة حزنها عليه، ومضت الليلة الثانية، وآمنة ساهرة إلى جوار ابنها الحبيب، لم تغمض لها عين، إن وليدها قد رفع رأسه للسماء وهو ينظر للقمر كأنه يناجيه، قد كان مفتوح العينين، لم يظهر على وجهه الذهول!! بل تترقرق الحياة في محياه ﷺ، وإن لم يعرف الغذاء طريقه إلى جوفه، لكأنما كان منذ مولده يفضّل غذاء الروح على غذاء الجسد، ويقدم ضرورة النفس على ضرورة الجسد!!! ﷺ.

وتنهمر الدموع من عيني الأم الحنون على وليدها شفقة ورحمة، أيعيش ابنها يومين دون أن يطعَم؟! وفي الصباح جاءت ثُويبة مولاة أبي لهب ـ التي عَتَقت قبل أن ترضع النبي ﷺ ـ وما إن أعطته ثديها حتى أخذه وراح يرضع منه، فتهلّلت أسارير آمنة بالسرور وانشرح صدرها، وطَفَرت إلى مآقيها العَبَرات من الفرح، وكانت ثويبة قد أرضعت من قبله أيضاً عمه حمزة بن عبد المطلب رضي اللّه عنه.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦١.

قدومها لمكةَ للحصول على رضيع :

أشرقت شمس اليوم الثامن لمولد سيد الأنام وفخر الكائنات ﷺ، ووصلت إلى مكة المكرمة نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء، للاستعانة بما يتلقين من أجر على مطالب العيش.

وكانت عادة أهل مكة استرضاعَ أولادهم لدى نساء البادية طلباً للصحة، والتماساً للفصاحة، وقد أُثِر عن حبيب اللّه محمد ﷺ أنه قال: (أنا أعرب العرب، ولدتني قريش ونشأت في بني سعد بن بكر، فأنى يأتيني اللَّحن؟)[١].

ولنستمع الآن إلى السيدة حليمة السعدية وهي تروي لنا كيف تشرّفت بإرضاع الحبيب الأعظم ﷺ، فتقول[٢]: وكان ذلك في سنة شهباء لم تبقِ لنا شيئاً، فخرجت على أتانٍ لي قمراء، ومعنا شارف لنا، واللّه ما تَبَضُّ بقطرة [٣]، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، وما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذّيه..

وقدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما من إمرأة إلا وقد عُرض عليها رسول اللّه ﷺ، فتأباه!!! إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم؟ وما عسى أن تصنع أمه وجده؟! فكنا نرفضه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي (زوجها): واللّه إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، واللّه لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه. قال: لا عليك أن تفعلي، عسى اللّه أن يجعل لنا فيه بركة.

ظهور بركة الحبيب محمد ﷺ تظهر لحليمة..!!

قالت: فلما أخذته، رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن[٤]، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم

---

(١) كما ورد في الطبراني.

(٢) راجع ما ذكر في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٦١ ـ ١٦٤).

(٣) قمراء: هو بيان شيء يميل فيه إلى الخضرة. والشارف: الناقة المسنّة. وما تبضّ بقطرة: أي: ما تعطي من لبنها.

(٤) وقد كان حبيب اللّه ﷺ لا يقبل الرضاعة من حليمة إلا من ثدي واحد، وكانت تعطيه الثدي الآخر فيعرض عنه، وكأنه ﷺ يعلم بأنه معه من يشاركه في الرضاع، فيترك له الثدي الآخر!!! (الروض الأُنف).

ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها الحافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا رِيّاً وشِبعاً، فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صواحبي حين أصبحنا: أتعلمين يا حليمة؟ لقد أخذت نَسَمَة مباركة!!

فقلت: واللَّه لأرجو ذلك.

بركة الحبيب ﷺ تظهر أكثر وأكثر . . !!

أكملي لنا الحديث يا ابنة أبي ذؤيب، فكلنا آذان صاغية، فحديثك ذو شجون، يطرب القلب ويثلج الصدر، كيف لا؟ وفمك يتعطر بذكر المصطفى العظيم ﷺ، وأرواحنا تتوق لتلك الذكريات العطرة.

وتتابع السيّدة حديثها الشائق فتقول:

ثم خرجنا وركبت أنا أتاني وحملته عليها معي، فواللَّه لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمُرِهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي (انتظري) علينا، أليست هذه أتانَكِ؟ التي كنت خرجت عليها؟

فأقول لهن: بلى واللَّه، إنها لهي هي، فيقلن: واللَّه إن لها لشأناً . . !!!

وتتشرّف مدينة الطائف بقدوم خير البشرية محمد ﷺ:

هاتِ ما عندك يا حليمة، جزاك اللَّه خيراً، فنحن ما زلنا نستمع إليكِ.

تقول حليمة: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض اللَّه أجدب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شِباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، فلم نزل نتعرف من اللَّه الزيادة والخير حتي مضت سنتاه وفَصَلْتُه وكان يشبّ شباباً لا يشبُه الغلمان!!! فلم يبلغ سنتين حتى كان غلاماً جَفْراً (شديداً).

حليمة ترغب بمدّ فترة هذه النَسَمة المباركة لديها:

وتزيدنا السيدة قائلة: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مُكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلّمنا أمّه، وقلت لها: لو تركت بنيَّ عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة؟ ولم نزل بها حتى ردّته معنا، وعادت حليمة وزوجها الحارث بصحبة ولدهما الحبيب ـ بالرضاعة ـ وشيعتهم آمنة الحزينة بقلب خافق، وعينين دامعتين، لأن مجيء صغيرها محمد ﷺ هيج عواطفها، وأثار ذكرياتها،

وحرك عواطفها، وفجأة ينقلب من حيث أتى، ويخلّف في الدار التي بدأت تنبض بالحب والحياة وحشةً شديدة الوطأة.

وكان هذا الفراق أولَ حزن أحسه الطفل الصغير، وما أكثر الأحزانَ التي سيتحملها صابراً، صاحبُ القلب الكبير، ووصلت السيدة حليمة وطفلها المبارك إلى أرض هوازن، وقلبها يخفق من شدة الفرح، فقد كانت تتمنى أن تعود به، لأنها أحبته من كل جوارحها، وكذلك زوجها الحارث، كان سعيداً برؤيته لما كان يرى من بركته، وتحقق حلمهما معاً.

وتتوالى المعجزات، وتكون حادثة شق الصدر!!

وبعد بضعة أشهر، رجعت السيدة حليمة إلى السيدة آمنة، ومعها ابنها المبارك!! واستقبلته أمه آمنة بكل جوارحها، وضمّته بين ذراعيها بحنان وعطف، ولكن لم تذهب بعيدة بفرحتها دون أن تعرف سبب عودة حليمة به فقالت والدته آمنة تسأل حليمة:

ما أقدمك به؟! وقد كنت حريصة عليه.. وعلى مكثه عندك!!

فردت حليمة وقالت: [١]

رجعنا به، فواللّه إنه بعد مقدَمنا به بأشهر، كان مع أخيه لفي بَهْم [٢] لنا خلف بيوتنا، إذا أتانا أخوه مسرعاً فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي، قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشقّا بطنه، فهما يسوطانه (يضربانه)، فخرجت أنا وزوجي نحوه، فوجدناه قائماً مُنْتَقَعاً وجهُهُ، فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: مالك يا بني؟.

فقال ﷺ: (جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني، وشقّا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو).

تقول حليمة: فرجعنا به، إلى خبائنا، وقال لي أبوه (بالرضاع): يا حليمةُ، لقد خشِيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب! فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به! فاحتملناه إليك، وهذا هو أمامك.

وترد الأم العظيمة الصابرة بعزم وقوة:

يا حليمة! أفتخوفت عليه من الشيطان؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ ـ ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٢) البَهْمُ: صغار الغنم والماشية.

قالت: نعم.

قالت أمه: كلا، واللّه ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبُنَيَّ لشأناً، أفلا أخبرك خبره؟

قالت: بلى!.

قالت آمنة: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نورٌ أضاء لي قصور بُصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فواللّه ما رأيت من حمل قطّ كان عليّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته، وإنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء. دعيه وانطلقي راشدة!!!

وودعته حليمه والدموع تنهمر من عينيها من ألم الفراق، كفاها فخراً أن نالت شرف أمومته بالرضاع ولكنّ صاحب الوفاء ـ بأبي هو وأمي ـ ﷺ، لم ينسَ فضل أمّه ـ مرضعته ـ ولا قبيلتها، وكانت وِقفة نبيلة ما كان أحرى منه بها!!

صاحب الوفاء محمد ﷺ يردّ الجميل لأمه حليمة:

عندما عاد القائد الأعظم ﷺ مؤيداً بنصر اللّه عزّ وجلّ من غزوة الطائف غانماً، ومعه من سبي هوازن، ستة آلاف من الذراري والنساء، وكذلك من الإبل والشياه الشيء الكثير أتاه وفد هَوازِن ممن أسلموا وقال قائلهم: يا رسول اللّه! إنما في الحظائر عمّاتك وخالاتك وخواصّك!!!

ودخل طلبهم هذا قلب الرؤوف الرحيم ﷺ، واستجاب لهم سريعاً لهذه الشفاعة بالأم الكريمة العظيمة (حليمة السّعدية) التي أرضعته، وقال لوفد هوازن: (أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول اللّه ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول اللّه ﷺ، في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم).

ولما صلّى رسول اللّه ﷺ، بالناس الظهر، قام رجال من هوازِن، وتكلموا بالذي أمرهم به رسول اللّه ﷺ، فقال النبي ﷺ: (أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم) وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول اللّه ﷺ، وقال الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول اللّه ﷺ.

فَرَدُّوا لهوازن أبناءهم ونساءهم، وذلك اعترافاً منه ﷺ بما لأمه من الرضاعة عليه من الفضل، وتقديراً لما فعلته حليمة السّعدية، التي أسعدها اللّه جلّ جلاله برضيعها الحبيب ﷺ من أجله [1].

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام (٢ ـ ٤٨٨ ـ ٤٩٠).

ويبسط سيد الأنام ﷺ رداءه لتجلس عليه امرأة. . !!

روى أبو داودَ في سننه، عن أبي الطفيل بن عامر بن واثلة الكناني قال: (رأيت النبي ﷺ يقسم لحماً بالجِعْرانة، وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجَزُور، إذ أقبلت امرأة دنت إلى النبي ﷺ، فبسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت: من هي؟ فقالوا: هذه أمّه التي أرضعته)[١].

جزاك اللَّه خيراً حليمةُ بإرضاعك حبيب اللَّه ﷺ ورعايته وحضانته، واللَّهَ أسأل أن يثيبك مغفرة من لدنه ورحمة واسعة لا نهاية لها، وأن ينزل على روحك الطاهرة سِجال عفوه ويجعل روحك في الخالدين، وأن يحشرنا وإياكِ ربي جلّ جلاله تحت ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله، إنه نعم المجيب.

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب.

السَّيِّدةُ بَرَكةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ (أمُّ أيمنَ)
رضي اللّه عنها

اسمها ونسبها:

بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك بن سلمة بن عمر بن النعمان الحبشية.

زوجها:

عبيد بن الحارث الخَزرجي، وقد تزوجها بعد أن أعتقها رسول اللّه ﷺ، فولدت له (أيمن) وأصبح له شأن كبير في تاريخ الإسلام، فقد هاجر وقاتل، وشارك رسول اللّه ﷺ في جهاده وضدّ المشركين، حتى رزق الشهادة رضي اللّه عنه يوم حنين.

صاحب الوفاء ﷺ ينادي أمَّ أيمن: يا أمّه

كانت بركة من موالي عبد اللّه بن عبد المطلب والد الحبيب الأكرم ﷺ، ولما توفي عبد اللّه، ووضعت السيدة آمنة مولودها، أخذته أم أيمن، وظلت محتضنة له حتى بلغ أشده، وقد بذلت وُسْعها في تربيته والإخلاص إليه، حتى غدا الحبيب ﷺ يقول: (أمُّ أيمن، أمي بعد أمي)[1] وكان ﷺ حين يناديها يقول: (يا أمّه)[2].

وقد أعتقها ﷺ بعد أن تزوج الطاهرة العفيفة (خديجة بنت خويلد) وفاءً لها وتقديراً لإخلاصها ومعروفها في تربيته ﷺ.

إسلامها وهجرتها إلى الحبشة ثم المدينة رضي اللّه عنها:

أعلنت هذه الصحابية الجليلة المهاجرة إسلامها منذ بداية الدعوة، وحسن إسلامها، وكانت صاحبة الهجرتين برُفقة النسوة اللائي هاجرن إلى الحبشة أولاً، ثم إلى المدينة، وكانت في عداد اللواتي بايعن رسول اللّه ﷺ[3].

---

(١) الإصابة ١٣/ ١٧٧، طبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٣، المستدرك ٤/ ٦٣.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٥/ ٥٦٧.

(٣) رواه ابن عساكر مُعْضَلاً (سقط اثنان من رواة إسناده).

هذا وقد عانت أم أيمن الكثير الكثير من أذى المشركين واضطهادهم لها!! وذلك بسبب إسلامها المبكر، وقد ثبّتها اللّٰه سبحانه وتعالى على إيمانها وإسلامها، فلم تزعزعها الخطوب ولا المحن، وحين اشتدّ الضغط على المسلمين في مكة، وجاوز المشركون حدّهم في تعذيبهم وإلحاق الأذى بهم، أذن النبي المكرّم ﷺ لأتباعه بالهجرة إلى الحبشة وفرّت معه بدينها، ثم أتت إلى مكة، وصبرت على البلاء والتعذيب، حتى جاء الفرج من اللّٰه جلّ جلاله، وهاجرت مع المهاجرين إلى المدينة المنورة بإذن سيد الأنام محمد ﷺ.

إكرام اللّٰه لأُمِّ النبي ﷺ بركة أمّ أيمن:

وقد كانت يوم هجرتها صائمة قائمة، مهاجرة ماشية!! لم يكن معها الشيء الكثير من الزاد أو الشراب، فأجهدها العطش كثيراً لشدّة الحر في الصحراء، ولما غابت الشمس وحانت ساعة الإفطار، منحها أكرم الأكرمين جلّ جلاله كرامة عظيمة لم يحظَ بها سواها ممن هاجرن بصحبتها، إذ دُلِّي عليها من السماء دلو فيه ماء مغطّى بِرَوْشَم أبيض، فأخذته وشربت منه حتى رَويت!!!

تقول أم أيمن رضي اللّٰه عنها بعد ذلك:

ما أصابني بعد ذلك عطش، ولقد تعرضت بالصوم في الهواجر فما عطشت!

وتقول أيضاً: كنت أطوف في الشمس كي أعطش، فما عطشت بعد [١].

بركة تحوز وسام الشرف بالجنة من الصادق المصدوق ﷺ:

لقد حظيت هذه الصحابية الكريمة عند رسول اللّٰه ﷺ بمكانة خاصة، وكان حين ينظر إليها يقول: (هذه بقيّة أهلي) [٢].

وقد بشرها ﷺ بمقعدها في الجنة بقوله: (من سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أمّ أيمن) [٣]

زيد بن حارثة يحظى بشرف الزواج منها:

ولما سمع (زيد بن حارثة) مقالة رسول اللّٰه ﷺ خطبها من رسول اللّٰه ﷺ وعقد عليها، وتزوجها، أنجبت له (أسامة بن زيد) [٤] رضي اللّٰه عنهما.

---

(١) الإصابة لابن حجر ١٣/ ١٧٨، وطبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٣.

(٣) الإصابة لابن حجر ١٣/ ١٧٨ وطبقات ابن سعد ٨/ ٢٣، وحلية الأولياء ٢/ ٦٨.

(٤) الحاكم في المستدرك ٤/ ٦٣.

الحبيب ﷺ يداعب أمّه بركة أمَّ أيمن:

وكان رسول اللّه ﷺ كثيراً، ما يلاطفها ويمازحها وكأنها أمّه، فجاءته ذات مرة وقالت: يا رسول اللّه! احملني، فقال ﷺ: (أحملك على ولد الناقة)، فقالت: يا رسول اللّه، إنه لا يطيقني، ولا أريده، فقال ﷺ: (لا أحملك إلا على ولد الناقة)، وكانت مداعباته لها ﷺ لا تجاوز حدود الحق، لأنه كان لا يقول إلا حقاً، فالإبل كلّها ولد النوق[١].

عُسْرُ لسانها:

وقد كانت أم أيمن رضي اللّه عنها عسراءَ اللسان، كثيراً ما تختصر من أحرف بعض الكلمات، ففي يوم حنين، أخذت تدعو للمسلمين بالنصر والعزّة والتثبيت فقالت: (سبّت اللّه أقدامكم)!!!

فقال لها رسول اللّه ﷺ: (اسكتي يا أمّ أيمن، فإنك عسراء اللسان)[٢].

ودخلت ذات يوم على حبيب اللّه ﷺ مسلِّمةً، فقالت: (سلام لا عليكم).

فرخّص لها ﷺ أن تقول: (السلام)[٣].

المرأة الضعيفة (أم أيمن) بطلة مجاهدة في غزوة أحد ورفيقة كريمة يوم خيبر!!!

وإلى جانب كل هذه الصفات الحميدة، وكرامتها الكبيرة لدى مولاها جلّ جلاله، ورسوله الأعظم ﷺ، ورغم كِبَر سنها الذي بدأ يوهن صحتها، فقد أبت هذه السيّدة الجليلة، إلا أن تشارك أبطال الإسلام في محاربة أعداء اللّه، إعلاءً لكلمته سبحانه وتعالى. فقد شهدت أحداً، مع القائد المكرّم ﷺ وكذلك شهدت خيبرَ مع الحبيب المحبوب ﷺ وشاركت قدر استطاعتها[٤]!!!

السيّدة الفاضلة تحزن على فقد ولدها الحبيب محمد ﷺ:

وقد روى أنس رضي اللّه عنه قال: (قال أبو بكر رضي اللّه عنه، بعد وفاة رسول اللّه ﷺ لعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه:

انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول اللّه ﷺ يزورها، فلما انتهينا

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٥.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٥.

(٤) أخرجه مسلم برقم ٢٤٥٤/ ١٠٣ في فضائل الصحابة.

إليها بكت!! فقالا لها: ما يبكيك؟! ما عند اللَّه خيرٌ لرسوله ﷺ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند اللَّه خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها)[١].

حزنها على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه، ووفاتها رضي اللَّه عنها:

ويوم علمت بمقتل عِملاق الإسلام وفاروقه عمر رضي اللَّه عنه، بكت أم أيمن رضي اللَّه عنها وقالت: (اليوم وَهى الإسلام)[٢]!!!

وتُسلّم أمّ الحبيب ﷺ الثالثة (أم أيمن) الروح إلى باريها جلّ جلاله.

وفي خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه، أسلمت صاحبة البركات والخيرات (أم أيمن) روحها الطاهرة إلى بارئها سبحانه وتعالى، وودّعت الدنيا بعد أن احتضنت زُبدةَ العالم وخلاصةَ الكون محمدَ بن عبد اللَّه ﷺ إلى صدرها الدافىء وقلبها العطوف.

فصلّى عليها عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه، وواراها في البقيع، بعد مقتل سيدنا عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه بعشرين يوماً.

رحمك اللَّه يا أم أيمن، وصبّ عليك شآبيب رحمته وسجال عفوه ومغفرته، وجعل روحك في الخالدين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وجعل الجنة مثواك ودارك بجوار حبيبك محمد ﷺ، إن ربي سميع مجيب.

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٦، والإصابة ٨/ ٢١٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٦، والإصابة ٨/ ٢١٤.

الصَّحَابِيَّةُ الكَرِيمَةُ

فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ الهَاشِمِيَّة

اسمها ونسبها:

فاطمة بن أسد بن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية.

زوجها:

عمّ رسول اللَّه ﷺ، أبوطالب. وهي أم ربيب الحبيب المصطفى ﷺ، علي ابن أبي طالب رضي اللَّه عنه وكرّم وجهه وأم إخوته: طالب وعقيل وجعفر، وأم هانئ، وجمانة، وريطة، أبناء أبي طالب[١].

تربيتها لسيد الأنام محمد بن عبد اللَّه ﷺ:

بعد أن أسلمت السيدة آمنة بنت وهب أمُّ النبي الحبيب ﷺ الروحَ إلى بارئها جلّ جلاله، نالت هذه السيدة ـ فاطمة بنت أسد ـ شرف الإشراف على تربية النبي ﷺ، فاحتضنته دون أولادها بأحسن رعاية، وحافظت عليه طيلة حياة عمه أبي طالب، حتى كانت تفضله على أبنائها في بعض الأحيان!!! كي لا تجعله يشعر بأي أَرَق أو غربة ـ جزاها اللَّه خيراً ـ وعاش ﷺ بين أبناء عمه في ظلّ أكرم رعاية، وأحسن معاملة!!

كانت هذه السيدة، عميقةَ الإيمان، ذاتَ شخصية فذّة، وخلق حميد، وقد ورَّثت هذه الصفات التي تحلّت بها إلى أولادها، ولا سيما علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه، ولم يكن ينقصها لتكتمل إنسانيتها إلا الإيمان.

فبعد وفاة زوجها أبي طالب الذي دافع عن الإسلام والمسلمين حتى مات ـ شرح اللَّه سبحانه وتعالى صدرها للإسلام، وأنار لها سبيل الإيمان، فدخلت في دين اللَّه عزّ وجلّ، وبايعت حبيب اللَّه محمداً ﷺ، وهاجرت مع المهاجرين إلى المدينة المنورة، ومضت تبذل أقصى الجهد في سبيل إعلاء كلمة اللَّه تعالى، وتوطين دعائم الإسلام الحنيف.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٥/ ٥١٧، وطبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٢.

وكان فخر الكائنات ﷺ يعتبرها مثلاً للإخلاص وقدوة للوفاء بالعهد، وكان يكثر من زيارتها، وأقامت هذه السيدة الجليلة في المدينة المنورة بصحبة النبي ﷺ، ومن حولها أولادها أبناء أبي طالب، تلحظهم عناية اللَّه ورعاية مصطفاه ﷺ، وشاركوا رسول اللَّه ﷺ مشاهده وغزواته، ماعدا جعفر بن أبي طالب، لأنه كان مهاجراً إلى الحبشة.

السيدة الفاضلة تفرح بزواج ابنها عليٍّ من سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء رضي اللَّه عنها:

وكانت الفرحة عارمةً عند فاطمة بنت أسد حين أسرَّ إليها ابنها علي كرّم اللَّه وجهه، نبأ خطبة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء رضي اللَّه عنها بنت سيد الثقلين محمد ﷺ، فلما أصبحت في داره زوجة مكرّمة معزّزة.. خشي عليّ رضي اللَّه عنه أن يحصُل خلاف بينها وبين أمه، وهو الرجل البارُّ بأمّه، فقضى بينهما، وكان من أقضى الناس وأعدلهم فقال كرّم اللَّه وجهه لأمّه: لو كفيت فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ سقاية الماء، والذهاب إلى الخارج، وكفتك في الداخل، الطحن والعجن[1]..!!! واستحوذ رضي اللَّه عنه بذلك على رضا الطرفين.

صاحب الوفاء سيدنا محمد ﷺ يكفِّن فاطمة في قميصه وينزل قبرها رضي اللَّه عنها!!!

وقد روي عن علي بن الحسين أنه قال: حدثني أبي قال: سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، يقول:

(لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم، كفنها رسول اللَّه ﷺ في قميصه، وصلّى عليها، وكبّر عليها أربع تكبيرات، ونزل في قبرها، فجعل يومي في نواحي القبر كأنه يوسعه ويسوّي عليها، وخرج من قبرها وعيناه تذرفان، وكان قد جثا في قبرها).

وفي رواية أخرى: (إنه اضطجع في قبرها). ولما ذهب، اقترب منه عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه، وقال له متسائلاً: يا رسول اللَّه! رأيتك تفعل لهذه المرأة شيئاً لم تفعله على أحد من قبل: فقال ﷺ: (يا عمرُ إن هذه المرأة كانت بمنزلة أمي التي ولدتني، إن أبا طالب كان يصنع الصنيع وتكون له المأدبة، وكان يجمعنا

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٥ ـ ٥١٧.

على طعامه، فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيبنا (فأعود به).

وعن عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه أنه قال: إن رسول اللّه ﷺ كفّن أمّه فاطمة بنت أسد في قميصه، واضطجع في قبرها، وجزّاها خيراً فقالوا: يا رسول اللّه ما رأيناك صنعت بأحدٍ ما صنعت بهذه؟

فقال رسول اللّه ﷺ: (إنه لم يكن بعد أبي طالب أبرُّ بي منها!! إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة، واضطجعت في قبرها ليُهوَّن عليها ضغطة القبر)(١).

صلى اللّه وسلم وبارك عليك سيدي رسولَ اللّه، يا صاحب الوفاء، يا صاحب الخلق العظيم! أردت أن تردّ الجميل بالجميل، بل بأحسنَ منه، لتعلّمنا كيف نعامل من أحسن إلينا وربّانا وربّت على أكتافنا. (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له) جزاكَ اللّه خير ما جزى به نبيّاً عن أمته.

وقد هيّأ قربُ فاطمة بنت أسد رضي اللّه عنها من حبيب اللّه محمد ﷺ، لها أن تكون مصدراً صحيحاً، لنقل أحاديثه والرواية عنه، فقد حفظت الكثير من أحاديث النبي المكرّم ﷺ، وروت عنه ستة وأربعين حديثاً، وأُخرج لها في الصحيحين حديث واحد متّفق عليه..

رحم اللّه الصحابية الجليلة، المبايعة المؤمنة، المهاجرة إلى رسول اللّه ﷺ هجرة الإيمان، الداعية الراضية الصابرة، مكرمة اليتيم ﷺ فاطمة بنت أسد الهاشميّة، أستاذة الجود والعطاء والكرم.

جزاك اللّه يا فاطمة عن رعايتك لرسول اللّه ﷺ خير الجزاء، وأنزلك نُزُلاً حسناً وجعل الجنة مأواك بجوار حبيبك اليتيم ﷺ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) من رواية ابن عباس، في أسد الغابة لابن الأثير (٥ ـ ٥١٧) وذكر الخبر في الإصابة لابن حجر (٧٨١٣).

مِنْ خَصَائِص الحَبيبِ الأعظَمِ ﷺ فَي الزَّواجِ

قال ابن عساكر رحمة اللّه تعالى عليه، من خصائصه ﷺ: الزيادة على الأربع إلى التسع، وفيما فوق ذلك قولان:

أحدهما: لا يحلّ له أكثر من التسع، كالأربع في حقنا، لأنه مات عنهن، ولم يصحّ أنه زاد عليهن مع مبالغته في باب النكاح بأمر من ربه جلّ جلاله.

والثاني: أنهنّ في حقه كالسراري في حقنا، فله الزيادة من غير حصر تشريفاً له وتوسيعاً عليه، لما رزقه اللّه عزّ وجلّ من القوة.

والقولان جاريان في انحصار طلاقه في الثلاث.

وجاز له النكاح من غير وليّ ولا شهود على الصحيح، لأن الوليّ يراد لتحصيل الكفاءة، ولا كفء أكفأ منه ﷺ وكذا ينعقد من غير شهود، لأن المقصود من الشهود إقامة الحجة عند الجحود، وهو لا يجحد، وقيل: يشترط لتوقع جحود الزوجة النكاح.

وأبيح له ترك القسْم بين نسائه على أحد الوجهين، وكان يقسم عليهن تبرّعا وتكرّماً مكافأة على اختيارهن اللّه ورسوله ﷺ دون زينة الحياة الدنيا، وقد كان وجب عليه تخييرهُنّ، لقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

ووجب إرسال من اختارت الحياة الدنيا صَوْناً لمنصبه عن أن يتأذى به أحد، وإمساك من اختارته واختارت اللّه والدّار الآخرة، لقوله اللّه جلّ جلاله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقال الشافعي رضي اللّه عنه: نُسخت هذه الآية بالآية السابقة في النظم وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وهذا من عجيب النسخ، ولم ينسخ في القرآن على مثال هذا سوى قوله

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠] نسخت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وقال أبو حنيفة رضي اللّه عنه: لم تُنسخ آية وجوب الإمساك وتحريم غيرهن. وتمسّك الشافعي بالحديث وهو قول عائشة رضي اللّه عنها: ما مات رسول اللّه ﷺ حتى أبيح له أن يتزوج من أراد ويطلّق من أراد[(١)].

إن الزبير بن العوام تزوج أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه وهي أخت عائشة، وتزوج العباس أم الفضل أخت ميمونة، ولم يقل: هما خالتا المؤمنين[(٢)].

ويقال لأزواج النبي الأعظم ﷺ: أمهات المؤمنين، الرجال فقط، ولا يشمل النساء، ودليل ذلك ما أخرجه ابن سعد في طبقاته والبيهقي في السنن الكبرى عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة: يا أمه! فقالت: لست لك بأم: إنما أنا أم رجالكم[(٣)]. فدل ذلك على أن معنى الآية: أن الأمومة في الأمة المراد بها: تحريم نكاحهن على التأبيد كالأمهات[(٤)]، والتحريم صريح في قوله عزّ وجلّ أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ولخّص ابن طولون[(٥)] ذلك فقال: إن إحلالهن لغيره فيه إنقاص لمنصبه، وهن أزواجه في الجنة، والمرأة في الجنة، تأخذ أزواجها في الدنيا، وقال ابن القيم، رحمه اللّه: من فارقها في حياتها ولم يدخل بها لا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتي دخل بهن ومات عنهن[(٦)].

---

(١) رواه النسائي في المجتبى (٣٢٠٢، ٣٢٠٣).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥٩.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ٦٤ ـ ٦٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٧٠.

(٤) قال القاضي ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ٦٤٢: فقيل ذلك عام في الرجال والنساء، وقيل: هو خاص للرجال، لأن المقصود بذلك: إنزالهن منزلة أمهاتهم في الحرمة حيث يتوقع الحِلّ، والحِلُّ غير متوقع بين النساء، فلا يحجب بينهن بحرمة ثم ساق الأثر وقال: هو الصحيح. وأوضحه السيوطي بأبسط من هذا في الخصائص: ٢/ ٢٥: قال البغوي: وهن أمهات المؤمنين من الرجال دون النساء.

(٥) ابن طولون ٣٢٥.

(٦) جِلاء الأفهام لابن القيم ٢٠٠.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۞ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ۞ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۞ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٥].

القسم الثالث

أمّهاتُ المؤمنينَ
السّيداتُ الطّاهراتُ العفيفاتُ

السَّيدةُ خديجةُ بنتُ خويلدٍ رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ سودةُ بنتُ زَمعةَ رضيَ اللَّهُ عنها

الصّديقةُ عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنهما

السَّيدةُ حفصةُ بنتُ عمَر بنِ الخطابِ رضيَ اللَّهُ عنهما

السَّيدةُ زَينَبُ بنتُ خُزيمَة رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ (هندُ بنتُ أبي أميَّة) أمُّ سلمةَ رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ زينبُ بنتُ جحشٍ رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحَارِثِ رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ صفيَّةُ بنتُ حييّ رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ (أمُّ حبيبةَ) القرشيةُ العدويةُ رملةُ بنتُ أبي سفيانَ رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ مَيمُونةُ بنتُ الحارثِ رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ ماريةُ القبْطِيَّة رضيَ اللَّهُ عنها

الطَّاهِرَةُ أمُّ المُؤمِنِينَ

خَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ(١)

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ

النّسب الشريف:

ولدت خديجة رضي اللَّه عنها لأبوين شريفين من قريش، قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً (عام ٦٨ قبل الهجرة) تقريباً، فنشأت على الأخلاق الحسنة، واتصفت بالحزم والعقل والعفّة حتى دعاها قومها في الجاهلية بـ (الطاهرة) وحسبها بذلك شرفاً وفخراً.

والدها:

فأبوها يدعى خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وهذا ما جعلها أقرب نساء الرسول ﷺ إليه نسباً (٢).

أمُّها:

وأمُّها تُدعى فاطمة بنت زائدة بن جندب ـ وهو الأصم ـ بن حجر بن محيص ابن عامر بن لؤي. وكانت خديجة تتميز على لِداتها وسائر النساء بعقل راجح، وذكاء جمّ، وأدب وفير، مما جعلها محطّ أنظار الرجال من أشراف قومها وساداتهم، ومطمع كل من يبتغي له زوجة فاضلة تشاركه أفراحه، وتقاسمه أتراحه، وتوفّر له أسباب السعادة والهناء، وتخفف عنه أحزانه في أوقات الشدّة والبلاء.

ابنُ عمِّها:

ورقة بن نوفل، ذلك الشيخ الكبير الذي كان عنده علم من الكتابين ـ التوراة

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ ١٠٥، ١٠٦ والمعجم الكبير للطبراني: ٢٣/ ٧ ـ ٢٣، وجامع الأصول لابن الأثير: ٩/ ١٢٠، والمستدرك للحاكم: ٣/ ١٨٤ والإصابة لابن حجر: ٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٣، وأسد الغابة لابن الأثير: ٥/ ٤٣٤ ـ ٤٣٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٢/ ١٠٩ ـ ١١٦، والسّمط الثمين للمحب الطبري: ص ٣٠ ـ ٥٥، والبداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢) أورده الحافظ في فتح الباري ٧/ ١٦٧.

والإنجيل ـ والذي كان له أكبر الأثر في حياة السيدة خديجة رضي اللّه عنها وأرضاها.

عندما فتحت أبواب الحرم في مكة، تدفقت النسوة إلى البيت العتيق، دخلت خديجة ومن حولها إماؤها إلى الكعبة ترفل في ثياب من حرير يتألق وجهها بالنور، دخلت من باب إبراهيم تحسّ إحساساً غامضاً أن القدر يخبئ لها شيئاً رائعاً! لا تدري ما هو؟!! ولكنها تستشعر أن فيه تحقيقَ الآمال العريضة التي باتت تتخايل لها في يقظتها ومنامها!!

وطافت ـ الشريفة الطاهرة ـ بالبيت سبعاً، ثم وقفت عند الملتزم بين الحجر الأسود والكعبة المشرفة، وراحت تدعو اللّه جلّ جلاله وتبتهل إليه، إنها لم تسأله لأول مرّة أن يبارك لها في تجارتها، بل كانت تسأله في حرارة وصدق أن يحقق لها أحلامها[١].

وتمتعت رضي اللّه عنها بكرم النسب وشرف الحسب، وطهارة النفس، وجمال الذات، وكمال الصفات، سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجليان، والجمال والكمال يتألقان:

ومزايا كالزهر نفحاً وطيباً وكزهر السَّما بهاءً ونوراً

من تزوجت قبل النبي الأكرم ﷺ؟

تزوجت خديجة رضي اللّه عنها مرتين قبل رسول اللّه ﷺ، أولاهما: من أبي هالة بن زرارة التيمي، فأنجبت منه هالة وهنداً[٢].

وثانيهما: عتيق بن عابد بن عبداللّه المخزومي[٣]، فلبث معه فترة من الزمن ثم افترقا.

أعظم زواج عرفته البشرية:

وقد أجمع علماء المسلمين على أن خديجة أول امرأة تزوجها حبيب اللّه

---

(١) راجع كتاب: محمد رسول اللّه والذين معه (عبد الحميد السحار) ج ٨/ ٢٢٨.

(٢) هالة بن زرارة التميمي، مات في الجاهلية وقد ولدت له خديجة هنداً، الصحابي رواي حديث صفة النبي ﷺ، شهد بدراً وأحداً، وكان هند فصيحاً بليغا وصّافاً، وكان يقول: أنا أكرم الناس أبا وأماً وأخاً وأختاً، أبي رسول اللّه ﷺ وأخي القاسم وأختي فاطمة وأمي خديجة، وقتل مع علي كرّم اللّه وجهه يوم الجمل، وقيل: مات بالبصرة في الطاعون.

(٣) عتيق بن عابد المخزومي، فولدت له بنتاً اسمها/ هند، وقد أسلمت وصحبت. راجع: السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ١٨٧، وتاريخ الطبري ٣/ ١٧٥.

محمد ﷺ، وأول من لبّى نداءه إلى الإسلام، ولم يسبقها إلى ذلك أحد من الرجال والنساء.

ثم تقدم لها بعد ذلك كثير من أشراف قريش، لكنها آثرت الانصراف لتربية أولادها، وإدارة شؤون تجارتها حيث كانت غنية ذات مال!!! وكانت تستأجر الرجال ليتاجروا لها، فلما بلغها عن حبيب اللّه ﷺ قبل بَعثته ما اتصف به من الصدق والأمانة والخلق، حتى كان مندوب خاص من خديجة يطلب سيد الكائنات ﷺ إلى لقاء مع السيدة الطاهرة خديجة ليعمل في مالها.

ذهب إليها ذهاب المطلوب منها عزيزاً وكريماً موفور الكرامة، عزيز الجانب، مشرئب العنق، شامخ الرأس، يطاول السماء ويمدّ يده إلى باذخ العلياء!!

قالت له خديجة رضي اللّه عنها: (يا ابن العم! لقد بلغني ما أنت عليه من صدق وأمانة، وأريد أن تعمل في مالي). وكانت السيدة لا تُرابي ولا تعرف الربا!! إنما كانت تعمل في مالها بالتجارة، والذي يبيع لها ويشتري، إما أن يكون أجيراً يأخذ الأجر، وإما أن يعمل مضاربة، بمعنى أن المال منها والعمل منه، فإذا كان العقد هكذا، مالٌ من أحد المتعاقدين، يقابله عمل من الآخر، ولم يوزع الربح إلا بعد أن يأتي اللّه عزّ وجلّ بالربح، وتكون الخسارة على صاحب المال إذا خسر المال لا على العامل، فهذه معاملة شرعية، لو أخذت بها بنوكنا في أرض الإسلام لبارك اللّه عزّ وجلّ في المال وصاحب المال، والمستثمر والوسيط.

أما أن يحدد البنك قبل مجيئه وتظل نسبة الربح ثابتة، سواء أكسب المال أم خسر، فهذه معاملة ربوية، ونعلي صوتنا إلى عنان السماء (بأنها: حرام حرام حرام) لأنها عين الربا.

وخرج الصادق المصدوق الأمين المأمون ﷺ بتجارة خديجة مُضارباً، وأرسلت معه غلاماً لها اسمه (مَيْسَرة) مساعداً لا رقيباً، فهي ما ارتابت ذات يوم في ذمة الأمين الأكرم محمد ﷺ ولا شكّت ذات يوم في ضمير محمد ﷺ!!

واتجه ﷺ إلى بلاد الشام وكان عنده من العمر خمس وعشرون سنة، ونزل مضمار التجارة في بلاد الشام وربح المال وبارك اللّه عزّ وجلّ في الكسب، فإن تسعة أعشار الرزق في التجارة. وهنا تتجلى حصافة عقله، ودماثة خلقه، ونفاذ بصيرته، وعمق فهمه، وعبقريته النافذة ﷺ!!!

هل رجع الصادق الأمين ﷺ بالمال بعد ما باع التجارة؟ لا!! لقد أراد أن يربح مرتين!! اشترى بالمال بضاعة من الشام، وجاء بها إلى مكة، فباعها في أسواق مكة لأهل اليمن، فربح من الشام مرة ومن مكة مرة، ودخل على خديجة

بالربح الوفير، أعطته حصته فما تكلم وما عارض، وإنما سمعت منه كلمة واحدة تكتب بماء العيون على الخدود!! (الحمد للّه على ما أعطى).

لكنّ إعجابها بشخصه كان أعظم وأعمق حين دخل عليها، كان ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه وسيماً قسيما في عينيه دعج، وفي شفتيه وطف وفي صوته صحل يخبرها بما ربحوا... إنه ضعف ما كانت تربح، فبدا عليها السرور وتحدثت فأصغى ملتفتاً إليها بكل حواسه وجسمه ﷺ فقد كان يحسن الإصغاء ويحسن الصمت ويحسن الكلام. فإن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، تتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم [١].

كانت خديجة رضي اللّه عنها من أشرف النساء قدراً، وأرجحهن عقلاً، وأكرمهن خُلقاً وأعفهن عِرضاً، وأجملهن خُلُقاً وخَلْقاً، ما كان أحد يتوقع أن هذا اليتيم سيقف منه الشرف والعفاف والطهر والنقاء والصفاء والتقى والورع هذا الموقف..!! إن خديجة سألت ميسرة ماذا رأى؟؟ وأخبرها ميسرة بالأمانة المطلقة والصدق النادر، وأخبرها بما قاله الراهب عنه، وأخبرها بغمامة ما فارقت الرأس الشريف أبداً!!! وإذا بخديجة تستدعي صديقة لها تسمّى: نفيسة بنت مُنية [٢]، وتسرّ لها وتقول: يا نَفيسة إذهبي إلى محمد بن عبد اللّه واخطبيه لنفسي!! يا سبحان اللّه! خديجة القرشية! الحسيبة النسيبة الوفيّة التقيّة!! تخطب محمداً ﷺ لنفسها؟؟!!

نعم! لقد ذهبت نفيسة وعرضت عليه ما قالته خديجة، وقال الحبيب الأعظم ﷺ: حتى أستأذن أعمامي، أدبٌ وخلق، أوَ لمّا شبع نسي؟ لا: إن الشّبع لا يؤثر في أصحاب المعادن الكريمة، فالمعدِن هو المعدن، أما إذا كان الأصل غيرَ كريم فلامبدأ ولا قيم ولا مثل..!!

المرء في زمن الإقبال كالشجرة والناس من حولها مادامت الثمرة
حتى إذا راح عنها حِملها انصرفوا وخلّفوها تقاسي الحرّ والغبرة

ورحم اللّه من قال:

إذا قلّ مالي فما خلٌ يصاحبني وفي الزيادة كلُّ الناس خلاني
كم من عدوٍ لأجل المال صادقني وكم صديق لفقد المال عاداني!!

وأخبر صاحب الوفاء محمد ﷺ أعمامه برغبته في الزواج من السيدة خديجة

(١) محمد رسول اللّه والذين معه/ عبد الحميد السحار ج ٨ ص ٦٠.
(٢) نفيسة بنت منية: هي بنت أمية بن أبي عبيدة التميميّة الحنظلية، تنسب إلى أمها منية بنت جابر - راجع ترجمتها في الإصابة (٨/ ٢٠٠) والاستيعاب (٤/ ١٩١٩).

رضي اللَّه عنها، فذهب أبو طالب وحمزة، وغيرهما إلى عمِّ خديجة عمر بن أسد ابن عبد العزى بن قصي لخِطبتها، وكانت خديجة من قبل قد أوصدت الأبواب وغلقتها في وجوه كثير من الرجال الذين خطبوها، لأنها لم تر فيهم من يطلب خديجة، إنما رأت فيهم من يطلب مال خديجة. !!

أثنى عمّ خديجة على محمدﷺ، وأنكحها منه، على صداق قدره عشرونَ بكْرة[١].

ليلة الزِفاف والهناء:

ولما تمّ العَقد نحرت الذبائحُ ووزعت على الفقراء، وفتحت دار خديجة للأهل والأقارب، فإذا بينهم أمّ الحبيب الأعظم محمدﷺ من الرّضاع ـ حليمة السعدية جاءت الكريمة لتشهد عرس ولدها الحبيب، وعادت بعد ذلك إلى قومها ومعها أربعون رأساًمن الغنم هدية من العروس الكريمة لمن أرضعت محمداًﷺ الزوج الكريم الحبيب.

إننا نرى الآن، الوجوه المضيئة قد ارتسمت عليها سمات البِشر استبشاراً بأعظم زوج عرفه العالم وعرفته الدنيا، أعظم رجل دخل التاريخ من أشرف أبوابه وأوسعها وأقواها وأعلاها وأرفعها، إنه حبيب اللَّه وحبيب القلوب محمدﷺ، لم يُؤتَ بالفرق الموسيقية، ولا بالعازفين والعازفات ولا بالراقصين والراقصات، لم توزع زجاجات الصهباء! لم تلعب بنات الكرم بالعقول!! لم تصعد على خشبة المسرح راقصة تعرض مفاتنها على العيون الجوعى!!! لتلتهم سمومها وصديدها وقيحها ودماءها!! إن الزوج الكريم كان نظيفاً منذ مولده إلى أن لقي ربه جلّ جلاله، كان نظيف العينين، نظيف اليدين، نظيف القدمين، نظيف الأذنين، نظيف الأنف،نظيف الفم، نظيف البطن، نظيف اللسان، كان أمامه نور ووراءه نور، وعن يمينه نور وعن شماله نور ومن فوقه نور ومن تحته نور وفي لحمه نور وفي قلبه نور وكان نوراً على نورﷺ.

وفي هذه الأثناء وفي تلك الليلة العصماء، قام أبوطالب عَمّ رسول اللَّهﷺ ـ خطيباً فقال: الحمد للّه رب العالمين، الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وبلداً حراماً وجعلنا الحكّام على الناس.. أما بعد: فإن محمد بن عبد اللَّه ابن أخي، لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به برّاً

---

(١) راجع رواية السمط (١٥)، والمحبر (٧٩)، أنه أصدقهااثنتي عشرة أو ستة: وكذلك في عيون الأثر (١/ ٥٠) برواية لابن إسحاق والزهري أن أباها هو الذي زوجها كما يقال أيضاً: إن الذي أنكحها هو أخوها عمرو بن خويلد.

وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً وإن كان في المال قُلّ، فإن المال ظلٌّ زائل وعارية مسترجعة، وإن لمحمد رغبةً في خديجة، ولها فيه مثل ذلك، وما طلبتم من الصَّداق فعليّ.

وتمّ الزواج بدون صخب ولا ضوضاء، وكان النبي ﷺ يوم ذاك في الخامسة والعشرين من عمره، وخديجة في الأربعين، وأصبحت الطاهرة سيدة قريش زوجاً لسيد الأنام محمد ﷺ، وضربت أعظم الأمثال وأروعها على حبها لزوجها، وإيثارها لمن يحبه. فعندما رأت أنه يعطف على مولاها زيد بن حارثة وهبته له!!! ولما آنست منه الرغبة في ضم أحد أبناء عمه أبي طالب إليه، رضيت بذلك وأفسحت لعلي كرم الله الله وجهه المجال الأوفر ليكسب من أخلاق زوجها العظيم محمد ﷺ

موازين الاختيار الصحيح:

إن خديجة رضي الله عنها تمثل المرأة العاقلة الرشيدة التي تزن الأمور بميزانها الصحيح، فتحسن الاختيار لنفسها، وفيمن يشاركها في حياتها، إنها لا تريده صاحب مال يطغى بماله، أو صاحب سلطان يستبدّ بسلطانه.

ومَنْ غيرُ الإنسان العظيم محمد ﷺ يمثّل الزوج المثالي لها؟ والذي تنشده كل امرأة ـ وقد عرفته ﷺ عن قرب، عرفته أميناً في معاملته، صادقاً في حديثه، عَزوفاً عن الخطايا، طموحاً لمعالي الأمور، متسامياً عن كل لغو ولهو، بل إن خديجة عرفته أكثر مما عرفه قومه.

إن خديجة رضي الله عنها بذلك تعطي القدوة للنساء المسلمات، كيف يحسنّ الاختيار ويقسْنَ من يتقدم لهن على الخلق والدين، نعم إن المرأة التي يلقبونها بالطاهرة، أولى بالرجل الذي يلقبونه بالصادق الأمين.

﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ ﴾ [النور: ٢٦].

الزوجة والأم المثالية:

خديجة الزوجة المثالية:

لقد كانت خديجة رضي الله عنها خيرَ الزوجات، حيث هيأت للنبي ﷺ بيتاً هانئاً سعيداً قبل بَعثته، وأعانته على حياته، وشدت من أَزْره، وهدّأت خاطره، وأزالت عوامل القلق والحرج التي كان يجدها ﷺ في بعض فَترَاته الأولى، فكانت كما قدر الله عزّ وجلّ لنبيه: الزوجة في حبها، والأم في حنانها وبرها.

ولقد كان النبي ﷺ يأنس إلى زوجه أنساً لم يأنسه بأحد سواها، فيحدثها بما يكون قد رأى وسمع في خلوته بمتعبّده أو في مرجعه إليها، فيجد عندها من

مشاعر الود والحنان ما يخفف من آثار ما عسى أن يكون قد شق عليه، ويجد عندها الراحة والسعادة، وما حدث أن تجهمت في وجهه عند عودته أوضاقت من كثرة فراقه لها وتركه بيتها، بل كانت تشجعه وتثبته وتعينه وتواسيه. .

هي الزوجة الحانية، تحنو عليه ساعة قلقه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتقول له: أبشر فإن اللّه يصنع بك خيراً.

وهكذا تكون الزوجة المسلمة تعين زوجها ولا تكون عائقاً له، وتلقاه بوجه طليق كلما عاد إليها، وتطوي همومها ساعة تلقاه، وتسمعه ما يثبته على دربه ويقوي عزمه.

وكانت رضي اللّه عنها تحب من يحب زوجها، وتكرم من يحبه إكراماً يرضى عنه ويُسر به.

حدث مرة أن زارته السيدة حليمة ـ مرضعة النبي ﷺ ـ ففرح بقدومها، وما إن سمع صوتها حتى أسرع إليها في لهفة وحنان قائلاً: أمي ـ أمي. . رحب بها كثيراً وفرش رداءه لها، ثم سألها عن حالها، فشكت إليه جَدْباً، فأفاض عليها من كرمه، وأعطتها خديجة أربعين رأساً من الغنم، وبعيراً يحمل الماء، وزودتها بما تحتاجه في رجوعها إلى باديتها.

إن المسلمة الواعية بهدي دينها، المتحلية بخلقه الكريم، كريمة مضيافة، لا تبخل ولا تمتنع عن إكرام الضيف، بل ترى ما فيه سعادة لزوجها فتفعله راغبة ساعية حتى تنال رضاه.

خديجة الأم الرؤوم:

ومضت مدة على الزواج الميمون، ولاحت للسيدة خديجة بوادرُ الحمل ففرحت فرحاً شديداً، وزفت البشرى إلى النبيِّ ﷺ، ومضت أشهر الحمل حتى إذا كان وقت الولادة علت الصيحة معلنة قدوم المولود السعيد.

وجاءت القابلة للنبي ﷺ تحمل له طفلَتهُ الأولى، فتلقاها بين ذراعيه فرحاً مسروراً، وسماها أبوها: زينبَ، ونحرت الذبائح احتفالاً بمولدها، ولم يطل الوقت حتى رزقا بأختها رقية، ثم جاءت من بعدهما أم كلثوم، ثم أقبل العام العاشر من زواجهما يستعدان لاستقبال المولود الرابع. . فكانت فاطمة الزهراء، وارتبط مولدها بهذا الحدث الكبير الذي ارتضت فيه قريش محمداً ﷺ حكماً فيما دار بينهم من خلاف على وضع الحجر الأسود بعد تجديد بناء الكعبة.

واستبشر أبواها بمولدها، ووهب اللّه لهما القاسم ثم عبد اللّه، ففرحا بهما

فرحاً كبيراً، لكن لم يشأ اللّه عزّ وجلّ أن يعيشا طويلاً، ولم تطل فرحة البيت النبوي بمولدهما.

وشاءت إرادة اللّه أن تبقى البنات، فقد كنَّ ثمرةً طيبة لزواج سعيد قام على المحبة والمودة، وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة لم تُرهق بشظَف العيش، وقامت على تربيتهن أمهن، ومع أن ثروة الأسرة تسمح لهم بأن يأتوا بالخدم للبيت والبنات، ولكن حَرَصت السيدة خديجة على أن تتولى بنفسها هذه المَهَمة الجليلة، كي تعد بناتِها للمستقبل المرجو لهن.

ومن هنا تتضح مسؤولية الأم في تنشئة أولادها التنشئة الصالحة، (فكم من أسرة يعود الفضل في نجاح تربية أولادها إلى الأم التي أدركت مسؤوليتها تجاه أولادها فقامت بها خير قيام، فأنشأت أولاداً عادوا بالخير على والديهم وعلى المجتمع والناس).

وكم من أسرة أخفقت في تربية أبنائها؛ لأن الأم لم تدرك مسؤوليتها تجاه أولادها فأهملتهم، فكانوا شراً مستطيراً على والديهم والمجتمع والناس.

وما كان الأولاد ليكونوا شراً محضاً لو أن الوالدين ـ ولا سيما الأم ـ عرفا مسئوليتهما إزاء أولادهما، وقاما بتبعات تلك المسؤولية خير قيام)[(١)].

الوحي:

لما كَمَل للنبي ﷺ أربعون أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه اللّه تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده، وفي غار حراء، وبينما النبي ﷺ مستغرق في مناجاته مع ربه جلّ جلاله إذ جاءه الوحي قائلاً له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، فقال النبي ﷺ: (ما أنا بقارىء)، فأخذه جبريل عليه السلام وضمه ضماً شديداً، حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، فقال النبي ﷺ: (ما أنا بقارىء)، فأخذه وضمه ثانية وثالثة، ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢].

فرجع النبي ﷺ إلى خديجة راجفاً قلبه، وأخبرها بما رأى وهو يقول: (زملوني، زملوني) فزملوه حتى ذهب عنه الرَوْع، فقال لخديجة: (لقد خشيت على نفسي)، وهنا يتجلى منها سداد الرأي، ورجاحة العقل، وعظم القلب، لقد أقبلت عليه تمسح وجهه، وتبسط أمامه الأمل الواسع، وتبعد عن قلبه كل بواعث الخوف والاضطراب.

---

(١) شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام، د. محمد علي الهاشمي، ص٢٢٦.

قالت له: كلا واللَّه ما يخزيك اللَّه أبداً، وإنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ[١]، وتكسب المعدوم[٢]، وتقري الضيف[٣]، وتعين على نوائب الحق.

إنها شهادة حق شهدت بها الزوجة الوفية لزوجها، تكشف بها عن معدِنه الطيب وخلقه الحسن، إنها شهادة الزوجة ـ وهي أعرف الناس به ـ التي تقدر زوجها، وتعينه على إبلاغ رسالته في أحرج الأوقات وأشد الأزمات.

إن اللَّه الذي أعدَّ محمداً ﷺ لتحمل الأمانة وتبليغ الرسالة، يهيىء في نفس الوقت الزوجة التي ترتفع معه إلى مستوى مسؤوليته، قال النووي: وفيه أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة رضي اللَّه عنها، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها[٤].

وفي رواية قالت له: أبشر يا ابن العم واثبت فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[٥]، وفي جوابها هذا ما يدل على سَعة إطلاعها وثقافتها، ولهذا وجب على المسلمة أن تكون على علم وثقافة وإطلاع.

ونمضي مع القصة، حيث انطلقت خديجة بالنبي ﷺ إلى ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره ﷺ ما رأى، وما إن فرغ من كلامه حتى هتف قائلاً: هذا الناموس[٦] الذي أنزل اللَّه على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[٧]، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ: (أو مخرجي هم)؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزراً[٨].

إن لم تكونوا مثلهم فتشبّهوا!!

وهكذا تكون الزوجة الصالحة تذلل الصعاب لزوجها، وتشاركه في همومه وآلامه وآماله، وتعينه على الثبات والاستمرار، وموقف السيدة خديجة من أشرف المواقف التي تحمد لامرأةٍ في الأولين والآخرين، طمأنته حين قلق، وأراحته حين جهد، وذكرته بما فيه من فضائل، مؤكدة له أن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبداً.

قال ابن حجر: في هذه القصة من الفوائد: استحباب تأنيس من نزل به أمر

---

(١) الكلّ: مَنْ لا يستقل بأمره.
(٢) المعدوم: الفقير.
(٣) تقري الضيف: تحسن إليه.
(٤) مسلم بشرح النووي ٢/ ٢٠٣.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦٩.
(٦) الناموس: السر.
(٧) جذعاً شاباً قوياً.
(٨) البخاري في بدء الوحي ١/ ٣٠، ٣١ (٣)، ومسلم في الإيمان ٢/ ١٩٧ ـ ٢٠٤ (١٦٠).

بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه، وأن من نزل به أمرٌ استحب له أن يُطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه[١].

المقاطعة الظالمة:

بعد الجهر بالدعوة اشتد أذى المشركين لمحمد ﷺ ومن آمن معه، ولكن النبي ﷺ لم يضعف ولم يتردد، وكان ممن اشتد في إيذائه أبو لهب، فأمر ولديه عتبة وعتيبة أن يطلقا ابنتي الرسول ﷺ قبل الدخول بهما: رقية وأم كلثوم، ورجعتا إلى بيت أبيهما، واستطاعت خديجة الأم أن تسرّيَ عن ابنتيها، وأن تعيد إليهما الهدوء والرضا بما يريده اللّه لهما، واللّه لا يريد بهما إلا الخير، فأكرمهما اللّه بأن صانهما عن بيت أبي لهب وزوجه الحاقدة أم جميل (حمَّالة الحطب)، وتزوج عثمان بن عفان رقية، فكان ذلك هو العزاءَ الكبير لقلب الأبوين الكريمين، ولرقية رضي اللّه عنها، إذ كان عثمان من أكثر شباب قريش مالاً، وأكرمهم نسباً.

ومع كل هذا الإيذاء لم تفلح محاولات قريش في ردّ المسلمين عن دينهم، أو تحويل النبي ﷺ عن دعوته، فلجأت إلى سلاح المقاطعة، إذ أجمعوا على مقاطعتهم وإخراجهم من مكة إلى شعب بني هاشم، وتآمروا على أن يكتبوا صحيفة ويعلقوها في الكعبة، تعاقدوا فيها على ألا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، واستمرت هذه المقاطعة الظالمة ثلاث سنين حتى أصيبوا بالجهد الشديد، وكان دخول النبي ﷺ والذين معه الشعب في هلال المحرم سنة سبع من النبوة، وفرج اللّه عنهم في السنة العاشرة من البَعثة.

وكانت السيدة خديجة رضي اللّه عنها قد دخلت الشعب مع زوجها تشاركه وتتحمل معه الآلام راضية صابرة، ومواسية بنفسها ومالها، قد تخلّت عن كل ما ألفته من راحة ورخاء ونعمة؛ لتقف إلى جانبه في أحلك أوقات المحنة، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد في سبيل اللّه، وهي على استعداد لأن تجود بكل شيء في سبيل ما تؤمن بأنه الحق، إنه الإيمان الذي يُضحّى من أجله بكل شيء، ويهون في سبيله كل صعب ويبذل له كل نفيس وغال.

ومن هنا وجب على المرأة المسلمة أن تكون لزوجها كما كانت خديجة للرسول ﷺ.

(١) فتح الباري ١/ ٣٤.

ولقد كافأها اللّه عز وجل عما قدمت، واستحقت بذلك أن يحييها رب العالمين، حين هبط جبريل عليه السلام حاملاً البشرى قائلاً: يا رسول اللّه هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه طعام، فإذا هي أتتك، فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب[١].

حسبها رضى اللّه عنها شرفاً ورفعة وخلوداً تكريم اللّه لها، وذلك كما سيأتي في فضلها إن شاء اللّه تعالى.

الوفاة والوفاء!!

● وفاة خديجة رضي اللّه عنها:

بعد أن أذن اللّه بانتهاء الحصار عادت خديجة إلى بيتها، لكنها رضيَ اللّه عنها لم تعد بنفس النشاط الذي دخلت به هذه المحنة، فخرجت وقد ضعف جسمها بعد أن اشتد عليها المرض، وأوهنت سنوات المقاطعة جسدَها الطاهر، وفي السنة العاشرة من البعثة، وقبل الهجرة بثلاث سنين، نفذ قدر اللّه في خديجة، وأسلمت روحها الطاهرة لبارئها عزّ وجلّ، وهي بين يدي زوجها الذي أحبته وصدقته، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير من حياتها، وكان يحيط بفراشها بناتها الطاهرات تنهمر منهن الدموع.

واقترب منها رسول اللّه ﷺ وهي تودع الحياة الدنيا قائلاً: (يا لكره ما أرى منك يا خديجة، وقد يجعل اللّه لي في الكره خيراً كثيراً)[٢].

يالها من لحظة يفارق فيها الزوج الحاني زوجَه الحانية وزيرةَ الصدق، لقد ماتت خديجة سند النبي ﷺ الداخلي، ومن قبلها مات أبو طالب سنده الخارجي، وكان مصابه ﷺ في عمه ثم زوجه له أكبر الأثر في نفسه، جعله يسمي هذا العام: عامَ الحزن.

● الوفاء العظيم من النبي العظيم ﷺ:

ماتت السيدة خديجة رضي اللّه عنها قبل الهجرة بثلاث سنين، وبعد موتها ظل النبي ﷺ وفياً لها طول حياته، يحن لذكراها، ويكثر الثناء عليها، ويكرم أهلها وصديقاتها، ويتودد إلى كل من كان له صلة بها.

---

(١) البخاري في مناقب الأنصار ٧/ ١٦٦ (٣٨٢٠)، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٩٩ (٢٤٣٢) كلاهما عن أبي هريرة.

(٢) كنز العمال للمتقي الهندي ١٢/ ١٣٢ (٣٤٣٤٥).

● **من أمثلة الوفاء:**

أقبلت هالة أخت خديجة لزيارة المدينة، وسمع صوتها ﷺ في فِناء البيت، وكان يشبه صوت خديجة رضي اللّه عنها، فهش لها قائلاً: (اللّهم هالةَ أخت خديجة)، تقول عائشة رضي اللّه عنها: فغرتُ، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش هلكت في الدهر، أبدلك اللّه خيراً منها[١]، قالت: فغضب ﷺ حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: (لا واللّه ما أبدلني اللّه خيراً منها:

آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني اللّه منها الولد دون غيرها من النساء)[٢].

هذا هو الدرس الذي يجب على المسلمين تعلُمه من نبيهم المعلِّم ﷺ، أن تظل ذكراهم للمعروف ماثلة، وللخير المبذول قائمة.

تقول بنت الشاطىء: لقد كانت خديجة ملءَ حياته ﷺ حية وميتة، وما جاوزت عائشة رضي اللّه عنها الحق حين قالت: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، وستدخل في الإسلام من بعد خديجة رضي اللّه عنها ملايين النساء، لكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التي آثرها اللّه عزّ وجلّ بالدور الأجلّ في حياة المصطفى ﷺ[٣].

فضل الطاهرة الكريمة:

يقول الإمام الذهبي: خديجة أم المؤمنين، وسيدة نساء العالمين في زمانها، ومناقبها جمة، وهي ممن كملت من النساء، كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة من أهل الجنة[٤].

● **الزوجة الأولى:**

ولم يتزوج الرسول ﷺ امرأة قبلها ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وفيه دليل على عظم قدرها عنده وعلى مزيد فضلها؛ لأنها رضي اللّه عنها أغنته عن غيرها، فقد كانت له ﷺ نعم الزوجة.

● **المؤمنة الأولى:**

وقد اجتمع لها مع سبقها للإسلام، أنها كانت أولَ الناس إيماناً باللّه ورسوله

---

(١) البخاري في مناقب الأنصار ٧/١٦٦ (٣٨٢١)، ومسلم في فضائل الصحابة ١٥/٢٠٢ (٢٤٣٧).
(٢) روى هذه الزيادة أحمد في مسنده ٦/١١٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٢٢ وإسناده حسن.
(٣) تراجم سيدات بيت النبوة، د. عائشة عبد الرحمن، ص٢٣١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢/١٠٩، ١١٠.

ﷺ، يقول ابن الأثير: خديجة أول خلق اللَّه أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة[1]، وحسبها بذلك شرفاً وفضلاً أنها أحرزت قصب السبق إلى الإيمان دون غيرها من الرجال والنساء.

روى أحمد والترمذي والحاكم عن أنس رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون)[2].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فأقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب [3]، وفي رواية قال جبريل للنبي ﷺ: إن اللَّه يقرىء خديجة السلام، فقالت: إن اللَّه هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول اللَّه السلام ورحمة اللَّه وبركاته[4].

قال السهيلي: لذكر البيت معنى لطيف؛ لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث، ثم صارت ربة بيت في الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها غيرها، ثم إنها رضي اللَّه عنها وصف منزلها الذي بُشرت به بالصفة المقابلة لفعالها وصورته، فلم تصخب عليه ولم تتعبه يوماً من الأيام، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل مكروه، ثم إنه في ذكر البيت معنى آخر؛ لأن مرجع أهل بيت النبي ﷺ إليها[5].

• كوني خديجةَ يا حفيدةَ خديجة!!

فما أعظم النساء المؤمنات حين يتأسين بأم المؤمنين خديجة، ويتمثلن مواقفها العظيمة، ويفقهن سيرتها، ويعرفن أن المسلمة تبلغ أعظم الدرجات، حين تقف بجوار زوجها، تشد من أزره، وترعى شأنه، وتكون بلسم جراحه، وزوال ألمه ونصبه.

---

(١) أسد الغابة ٧/ ١٧٠، ١٧١.

(٢) أحمد ٣/ ١٣٥، والترمذي في المناقب ٥/ ٦٦٠ (٣٨٧٨)، وقال: هذا حديث صحيح، والحاكم في المستدرك ٣/ ١٥٧، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ، وأقره الذهبي.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

(٤) النسائي في السنن الكبرى في المناقب ٥/ ٩٤ (٨٣٥٩).

(٥) الروض الأنف للسهيلي ١/ ٢٧٨، ٢٧٩، بتصرف.

ولَرُبَّ قائلةٍ: عقمت النساء أن يلدن مثل خديجة، ولكن ذلك لا يمنع من التشبه والاقتداء بها والنسج على منوالها:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

فِرْيَةٌ سيئة!! والردُّ عليها:

يقول أعداء الإسلام من المستشرقين والملحدين والمبشرين ـ بالنار ـ المرتزِقة المنحطين: إن نبي الإسلام محمداً ﷺ رجل شهواني!! لأنه تزوج أكثر من واحدة!!

نقول لهؤلاء الحاقدين الحاسدين على الإسلام ونبي الإسلام ﷺ ولمن لفّ لِفَّهم:

لو كان حبيب اللّه محمد ﷺ طالبَ شهوة في الزواج ما تزوج أكبر منه بخمسة عشر عاماً، بل تزوج بِكراً، لما تزوج خديجة التي كانت متزوجة قبله باثنين ماتا..!!!

لو كان سيد الأنام وفخر العالمين ﷺ طالبَ زواج لقضاء الشهوة، لكان أمامه من حرائر الأبكار في مكة من يتمنين الزواج به، فهو الهاشمي القرشي.

فيا أُجَرَاْءَ الاستعمار والماسونية!

إن سيدنا رسول اللّه ﷺ لم يكن طالب شهوة في زواجه، إنما كان طالب شرف وكرامة وعفاف، لو أنه تزوج على خديجة لقلنا: إنه رجل يحب الزواج، لكنه ظلّ معها خمساً وعشرين سنة ما تزوّج عليها وما تزوج بعدها حتى بلغت سنه خمسين سنة!!!

أتحاسبون رجلاً بلغ من العمر خمسين سنة؟! وتقولون: إن زوجاتِه تعددن!! إن هذا الكلام إنما يقال لشاب في سن العشرين، سبحانك، هذا بهتان عظيم!!.

يا هؤلاء! إذا كانت بيوتكم من زجاج، فلا ترموا الناس بالحجارة.

إن النبي المكرم ﷺ لم يتزوج رغبةً إلا واحدة فقط هي خديجة، أما ما عدا خديجة فلقد كان ذلك لأهداف شرعية، سنبينها بإذن اللّه ﷺ عند ذكر كلِّ واحدة من أمهات المؤمنين رضي اللّه عنهن.

أمُّ المُؤْمِنِينَ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمعةَ
رضيَ اللَّهُ عَنْهَا المُهَاجِرَةُ زَوْجَةُ المُهَاجِرِ

أحسَّت وكأن كابوساً يطبق على صدرها فهمست في ضراعة: (أمسكني يا رسول اللّه! وواللّه ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أرجو أن يبعثني اللّه يوم القيامة زوجاً لك!!!)[1].

نعم، كان السرور يغمر قلبها، عندما استشعرت بدموع الفرح تبلّل روحها، قد رأت في منامها أن قمراً انقضّ عليها من السماء وهي مضطجعة، فما كانت تدري تأويله!! وما كانت تطمع في أن تكون زوج سيد الكائنات محمد ﷺ بعد أن نالت منها السنون!.

إنه لشرف لا يدانيه شرف أن تصبح أمّ المؤمنين، وأن تتوج صبرها على اضطهاد الكافرين وهجرتها إلى الحبشة للّه ورسوله الحبيب ﷺ بذلك التكريم.

الطيّبة الطاهرة المهاجرة التي آثرت على نفسها مرضاة للزوج العظيم ﷺ، فوهبت ليلتها لعائشة رضي اللّه عنها رعاية لقلب الحبيب ﷺ.

اسمها وكُنيتها:

اسمها: سودة وكانت تكنى بأم الأسود[2].

هي أمّ المؤمنين، وثانية زوجات النبي الأعظم ﷺ بعد سيدة نساء العالمين خديجة بنت خويلد رضي اللّه عنهما.

والدها: زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد وَدّ بن عامر بن لؤي بن غالب، وبذلك تجتمع مع النبي الحبيب ﷺ في لؤي.

أمها: فهي الشموس بنت قيس بن زيد من بني عامر بن غَنْم بن عدي بن النجار الأنصاري، بنت أخي سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب[3].

---

(١) الإصابة ٤/ ٣٣٨، والاستيعاب ٤/ ٣٢٣، وأسد الغابة ٥/ ٤٨٤، ٤٨٥، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٢٦، ٤٢٧، وابن سعد ٨/ ٤٢ ـ ٤٦، وشذرات الذهب ١/ ٣٤، ودلائل النبوة ٣/ ٢٨٤، ٢٨٥، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٩، ومجمع الزوائد ٩/ ٢٤٩، وزاد المعاد ١/ ١٠٥.

(٢) ذكره النووي في تهذيبه ٢/ ٣٤٨، والسخاوي في التحفة اللطيفة ١/ ٤٠.

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ١٢/ ١٧، ١٠٣.

وبذلك تكون رضي اللّه عنها قد جمعت بين شرف قريش وشرف الأنصار، عُرفت رضي اللّه عنها بأنها من ذوي الحسب والنبل والشرف من بين نساء قريش، فهي من فُضليات نساء عصرها، وصفها الإمام الذهبي بقوله: كانت سيدةً جليلة نبيلة[١].

إسلامها، رضي اللّه عنها:

قال ابن سعد: أسلمت سودة بمكة قديماً وبايعت، وأسلم زوجها السّكران ابن عمرو، وخرجا جميعاً مهاجرين إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية[٢]، وزوجها: أخو الصحابي الجليل، سهيل بن عمرو العامري.

الهجرة المباركة إلى الحبشة:

لما كانت هذه السيدة الجليلة ـ سودة ـ رضي اللّه عنها من السابقين إلى الإسلام، نالها من الأذى والعذاب ما ناله صحابة الحبيب الأعظم ﷺ، ولما اشتد بهم العذاب ليفتنوهم عن دينهم، وجههم منقذ الإنسانية ﷺ إلى الهجرة إلى أرض الحبشة قائلاً لهم: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل اللّه لكم فرجاً مما أنتم فيه).

فهاجر إليها بعضٌ ممن آمن، فمنهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه، وقد كانت سودة رضي اللّه عنها مع زوجها السّكران بن عمرو مع النفر الثمانية[٣] من بني عامر.

خرجت رضي اللّه عنها مهاجرة مع زوجها صابرة محتسبة، مفتدية دينها بكل ما تملك، وهذه سنّة اللّه في عباده المؤمنين أن يبتليهم بالسرّاء والضرّاء.

وترامت إلى المسلمين في الحبشة الأخبار بأن المشركين هادنوا الإسلام وتركوا أهله أحراراً، وأن الإيذاء قد انقطع، فقرر البعض العودة إلى وطنهم، وآثر آخرون البقاء، وكانت سودة رضي اللّه عنها مع زوجها ممن أسرعوا بالعودة، وما أن اقتربوا من مكة حتى تبينَت لهم الحقيقة، وعرفوا أن إيذاء المشركين وعدوانهم لم ينقطع، ولم تمض أيام على وصولهما إلى مكة، حتى اشتدّ المرض بزوج سودة، ولم يلبث أن فارق الحياة تاركاً وراءه أرملته وصبية له، فاستقبلت موته بصبر المؤمنين وإيمان الصابرين ـ رحمه اللّه رحمةً واسعة وأدخله فسيح جناته ـ آمين.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٦٥. (٢) الإصابة لابن حجر ٢/ ٩٥.

(٣) يذكر بأن النفر الثمانية المهاجرين كانوا: (مالك بن زمعة ـ أخو سودة ـ والسّكران بن عمرو ـ زوجها وابن عمها ـ وأخواه سليط وحاطب ولدا عمرو ـ وابن أخيه، عبدالله بن سهيل بن عمرو، وثلاث من زوجاتهم العامريات، سودة بنت زمعة، وأم كلثوم بنت سهيل وغمرة بنت الوقدان).

وتصبح سودة عروساً لسيد الأنام محمد ﷺ:

كان جميع الصحابة الكرام رضي اللّه عنهم يعلمون مدى حاجة الحبيب الأعظم ﷺ إلى زوجة، ولكن أحداً منهم لم تكن عنده الشجاعة ليفاتح الرسول المكرّم ﷺ الواله الحزين من فراق السيدة العظيمة خديجة رضي اللّه عنها في أمر من يحلّ مكان الزوجة الأولى الطاهرة؟!! فقد مرّ عليه السلام بأقسى مرحلة بعد موت خديجة وأبي طالب وحزنه عليهما، حيث نالت منه قريش مالم تنله في حياتهما، فتجرؤوا عليه، وتتابعت المحن والشدائد على النبي الحبيب ﷺ.

نعم، لقد تركت خديجة رضي اللّه عنها فراغاً كبيراً في حياة السيد الأكرم رسول اللّه ﷺ، إذ كانت تتحمل معه آلام الحصار ومتاعب الحياة.

وذات ليلة بينما النبي ﷺ في الدار يتذكر أيامه الخالية مع أم المؤمنين، السيدة خديجة، إذ خولة بنت حكيم[١] امرأة عثمان بن مظعون، تدخل عليه، فرحّب بها، فهي من المؤمنات الصادقات قد هاجرت الهجرة الأولى إلى الحبشة مع زوجها عثمان، ثم ما لبثت أن عادت معه إلى مكة ليكونا إلى جوار إخوانهما المسلمين يتحملان معهم في صبر ما ينزل بهم من عذاب حتى يأتي نصر اللّه.

وتقدّمت إليه تجمع أطراف شجاعتها قبل أن يتحرك لسانها، متلطفة مترفقة تقول: ألا تتزوج يا رسول اللّه؟

فانتبه عليها حبيب اللّه ﷺ من بين أهدابه الطويلة، وأجابها بنَبَرات مليئة بالحزن والأسى: (ومن بعد خديجة يا خولة؟)

فقالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً.

قال: (فمن البكر؟) فقالت: ابنة أحب خلق اللّه إليك، عائشة بنت أبي بكر[٢]. وبعد فترة صمتٍ قال ﷺ: (ومن الثيب؟) قالت: إنها سودة بنت زمعة التي آمنت بك، واتبعتك على ما أنت عليه.

وتمثّل الرسول ﷺ سودة، وهي تودّع أرضاً عزيزة حلّت بها تمائمها وازدهر فيها صباها واطمأنت على أرضها كهولتها، ثم تمضي إلى بلد مجهول، وناس لا هي منهم ولا هم منها، لسانهم غير عربي، ودينهم غير الإسلام!! وقبل أن تؤوب من غربتها، وتهبط (أمّ القرى) فاضت روح زوجها، وتأثر ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترمّلة أيما تأثر، فما كادت خولة بنت الحكيم تذكرها له، حتى مدّ يده الرحيمة

---

(١) خولة بنت حكيم بن أمية زوجة عثمان بن مظعون، الصحابي الجليل، وأخو النبي ﷺ في الرّضاع، وخولة من المهاجرات إلى الحبشة.

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ١٧٥).

إليها يسند شيخوختها، ويهون عليها الذي ذاقته من قسوة الحياة!!

فقال ﷺ: (اذهبي فاذكريها عليّ) فذهبت خولة، فمرت أولاً ببيت (أبي بكر الصديق) رضي اللّه عنه ثم جاءت بيت (زمعة).

وعقد النبي المكرّم ﷺ على عائشة رضي اللّه عنها، وتزوج من سودة التي انفردت به نحواً من ثلاث سنين أو أكثر، حتى دخل بعائشة رضي اللّه عنها، واستغرب الناس في مكة زواج النبي ﷺ من سودة بنت زمعة، وتساءلوا في ارتياب: أرملة مسنّة غير ذات جمال تخلف سيّدةَ نساء قريش ومطمع أنظار السادة منهم؟؟!!!

وعرفت من اللحظة الأولى التي جمعتها بزوجها، أن الرسول الأعظم ﷺ هو الذي تزوجها، لا الرجل الذي لم تجرّده النبوة من بشريته، وإنها أو سواها لن تخلف خديجة رضي اللّه عنها، ولكنه البر والرحمة وجبران الخاطر من نبي الرحمة ﷺ.

ولكنّ ذلك لم يرعها، بل كان حسبها أن رفعها رسول اللّه ﷺ إلى تلك المكانة السامقة العالية، وأن جعل منها أمّاً للمؤمنين، يسطّر ذكرها في القرآن العظيم إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

وكان يسعدها أن تراه ﷺ يضحك من مِشيتها ـ إذ كانت ثقيلة الجسم ـ وأن يأنس أحياناً إلى خفّة روحها، أو يستملح عبارة من عباراتها ـ !!

قالت له مرّة: (صلّيت خلفك الليلة يا رسول اللّه، فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم[1]) فتبسم ضاحكاً من قولها.

هذا واستطاعت هذه السيدة الفاضلة رضي اللّه عنها، أن تقوم على بيت النبوة، وتخدُم بنات الحبيب الأعظم، وأن تدخل السرور والسعادة إلى قلب الزوج الرؤوم ﷺ بخفة روحها ومرحها بالرغم من ثقل جسمها!!

هجرتها إلى المدينة:

وبعد زواجها الميمون بقيت رضي اللّه عنها في مكة إلى أن أذن اللّه جلّ جلاله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، ولما هاجر النبي ﷺ واستقر بالمدينة، بعث زيد بن حارثة ومعه مولاه أبو رافع، وأعطاهما بعيرين وخمسمِائة درهم، وأتيا بفاطمة وأم كلثوم وسودة، وأخذ زيد امرأته وولديها أسامة وأيمن حتى قدموا إلى المدينة، والنبي ﷺ يومئذ يبني المسجد وبيوته، فأدخل سودة أحد تلك البيوت، وكان يكون عندها[2].

---

(١) أعطاها النبي ﷺ مهراً أربعمِائة درهم، أحمد في مسنده ٦/ ٢١٠، وابن سعد ٨/ ٤٥، ٤٦، وتم زواج النبي ﷺ بها في رمضان سنة عشر من النبوة.

(٢) الطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ٢٤ ـ ٢٥ (٦٠) من حديث عائشة رضي اللّه عنها.

هبتها يومها لعائشة رضي اللّه عنها!!

أدركت السيدة سودة رضي اللّه عنها أن النبي ﷺ لم يتزوجها إلا إشفاقاً لحالها بعد وفاة زوجها. واتضح لها ذلك عندما أراد النبي ﷺ أن يسرّحها سراحاً جميلاً ليعفيها من وضع شَعَر أنه يجرح قلبها، فلما أنبأها بعزمه على الطلاق، أحسّت وكأن كابوساً يطبّق على صدرها فهمست في ضراعة:

(أمسكني يا رسول اللّه، واللّه ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أرجو أن يبعثني اللّه يوم القيامة زوجاً لك[1]).

فنظر إليها صاحب الوفاء ﷺ في إشفاق وتأثّر وهي التي بلغت الخامسة والخمسين.. وأخذ الصمت منه وقتاً، إلى أن عادت قائلة بكلمات تعثرت في حلقها: أبقني يا رسول اللّه، وأهب ليلتي لعائشة، وإني لا أريد ما تريد النساء[2].

واستجاب حبيب اللّه ﷺ لصاحبة الشعور النبيل، وأنزل اللّه تعالى في ذلك قرآناً يتلى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: ١٢٨].

وكان ذلك الإيثار من السيدة سودة جميلاً، ويا له من خلق كريم يظلّ درساً عظيماً تتعلم منه النساء المسلمات على مرّ الزمان!!

إن هذا الإيثار الجميل جعل الصدِّيقة عائشة رضي اللّه عنها تتمنى لو تكون في مثل هَديها وطريقتها، بل تظلّ تذكر حسن صنيعها، وتؤثرها بجميل الوفاء فتقول: (ما رأيت امرأة أحبَّ إليّ أن أكون في مِسلاخها[3] من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حِدّة[4]، قالت: فلما كَبِرت جعلت يومها من رسول اللّه ﷺ لعائشة قالت: يا رسول اللّه، قد جعلت يومي منك لعائشة)[5].

وكم كان هذا جميلاً من سودة رضي اللّه عنها أن تحافظ على حياتها مع النبي ﷺ ولم ترضَ بها بديلاً، فقد كانت أسمى غاياتها ومنتهى آمالها أن تبقى في عصمة النبي ﷺ، وأن تبعث يوم القيامة في جملة نسائه، لقد غلّبت الهدف الكبير على العَرَض القليل، وسلكت في تصرفها سلوكاً أخروياً عملياً، فرقّ لها النبي الحبيب الرحيم ﷺ، وأكبر منها هذا المعنى العظيم.

---

(١) الإصابة ٨/ ١١٧، والاستيعاب ٤/ ١٨٦٧، والحديث أخرجه مسلم في الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها برقم/ ١٤٦٣/.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٦/ ١٥٤.

(٣) هو الجلد، ومعناه: أن أكون أنا وهي هديها وطريقتها.

(٤) لم ترد عائشة عيب سودة بذلك، بل وصفتها بقوة النفس وجودة القريحة، وهي الحدة هنا.

(٥) مسلم في الرضاع ١٠/ ٤٨ (١٤٦٣) طبقات ابن سعد ٥٦١٨.

كرمها وزهدها رضي اللّه عنها:

وعن محمد بن سيرين قال: (إن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بعث إلى سودة بنت زمعة بغرارة من دراهم) فقالت: ما هذا؟ قالوا: دراهم. قالت: في الغِرارة مثل التمر، يا جارية بلِّغيني القَنَع. قال: (ففرقتها)[١]!!!

ما نزل بها من قرآن:

وعن عائشة رضي اللّه عنها أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن إذا تبرزن.. فكان عمر رضي اللّه عنه يقول للنبي ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول اللّه ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاءً، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة، حرصاً على أن يُنزَل الحجاب، فأنزل اللّه آية الحجاب[٢].

في ساحات الجهاد والبطولة!!

ومن مناقبها رضي اللّه عنها أنها كانت تشارك مع النبي ﷺ في الجهاد!! فقد شهدت معه ﷺ غزوة خيبر، وقسم لها رسول اللّه ﷺ من الفيء، كما قسم لكل أزواجه، فنالها ثمانون وسقاً تمراً، وعشرون وسقاً شعيراً، فما لبثت أن تصدّقت به على من يحتاجه من المسلمين، قبل أن تصل إلى حجرتها رضي اللّه عنها.

وفاتها وعمرها المبارك:

ومكثت السيدة سودة في بيت النبوة راضية مطمئنة شاكرة اللّه عزّ وجلّ سائلة إياه سبحانه وتعالى أن تكون مع خير الخلق في الدنيا، أمّاً للمؤمنين وزوجاً له في الجنة، فقامت في مخدعها تصلي وتشكر اللّه جلّ جلاله، وقلبها عامر بنشوة الرضا والإيمان، حتى أدركت خلافة أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه، وكان يعرف لها حقها مع أمهات المؤمنين رضي اللّه عنهن، ويرعى شأنها معهن وتبعه في ذلك عمر الفاروق رضي اللّه عنه حتى توفيت في آخر خلافته على الأرجح[٣].

وقال البلاذري في أنساب الأشراف: يقال: إنها توفيت في خلافة عثمان، ولها نحو من ثمانين سنة[٤].

تلكم هي سيرةُ أم المؤمنين سودة بنت زمعة، رضي اللّه عنها، ثانية زوجات

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٥٦.

(٢) البخاري في الوضوء ١/ ٢٩٩ (١٤٦) وفي النكاح ٩/ ٢٤٩ (٥٢٣٧).

(٣) السمط الثمين ص ١٧٧، وعند ابن سعد توفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية، الطبقات ٨/ ٤٦.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري ١/ ٤٠٧.

الحبيب المحبوب ﷺ، رحمها اللّه رحمة واسعة وأسكنها فسيح جناته، وجزاها اللّه خيراً عن الإسلام والمسلمين.

حكمة زواج الحبيب ﷺ منها:

إن للعاقل أن يتأمل ما سينتهي إليه أمر سودة رضي اللّه عنها لو لم يتزوجها نبي الرحمة ﷺ، أكانت تعيش آمنة سالمة من الأذى من أهلها وهم على الشرك؟!!

إنها كانت في أسرة مشركة، وأبوها شيخ كبير مقيم على شركه ـ والعياذ باللّه ـ وأخوها كذلك، ومات عنها زوجها ولا ناصر لها ولا عائل ولامعين، تاركاً لها صبية، فمن يكفلها ويرعاها ويدفع عنها أذى قومها وهي الوحيدة بينهم مسلمة؟!!

فجاء زواجها من حبيب اللّه ﷺ رحمة بها وإنقاذاً لها من تعذيب أهلها، وهذا هو منتهى الإحسان والتكريم لها على صدق إيمانها، وإخلاصها للّه ولرسوله ﷺ، وأراد النبي عليه السلام كذلك أن يتألف قومها بني عبد شمس، وقد كان، فأسلم من قومها كثير من الناس ودخلوا في دين اللّه إعجاباً بهذا الدين العظيم الجذّاب، وحبّاً لصاحب الدعوة، وإقراراً بعظيم خلقه ونبله ﷺ.

لقد رأى النبي ﷺ في سودة المؤمنة الصابرة المجاهدة التي آثرت دينها على أهلها ووطنها، فخرجت مع زوجها مهاجرة في سبيل اللّه عز وجل، متحمّلة كل ما تلاقيه في جنب اللّه، فكانت أهلاً لأن تكون أماً للمؤمنين وزوجاً للنبي ﷺ.

وقد كانت هناك كلمة أخرى عن هذا الزواج، حيث كان جلّ انشغال النبي ﷺ بالزوجة التي ترعى شؤون البيت وتخدم البنات، وما كان بإمكان عائشة رضي اللّه عنها أن تقوم بدور سودة في هذا الشأن لحداثة سنها وقلّة تجربتها في الحياة، وأدت سودة رضي اللّه عنها دورها، واستطاعت أن تقوم على البيت النبوي الشريف، وتخدم بنات النبي ﷺ وترعاهن، وتُدخل السعادة إلى قلبه ﷺ.

فقد كان كلّ مناها أن تحظى بالقرب منه، وتهيء له سبل الراحة والهدوء، وتخفف عنه ما كان يلقى من قومه... وقد كانت رضي اللّه عنها عند حسن ظنه بها ﷺ(١).

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد ص ١٤٢، ومفتريات الإسلام، أحمد محمد جمال ص ٨٨، وزوجات النبي ﷺ الطاهرات وحكمة تعددهن، محمد محمود الصوّاف ص٢٦، ٢٧، وقصة الهداية د. عبداللّه ناصح علوان ٢/ ٤٧٧.

أمُّ المُؤْمِنِيْنَ
الصِّدِّيْقَةُ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصدِّيْق
رضيَ اللّهُ عنْهما

ولكِ المكانة العظمى ـ أمّاه ـ عندما قلت لعبد اللّه بن صفوان: خلالٌ فيَّ تسع لم تكن في أحد من النساء إلا ما آتى اللّه مريم بنت عمران، واللّه ما أقول هذا فخراً على أحد من صواحبي، وهي: نزل المَلَكُ بصورتي، وتزوجني رسول اللّه ﷺ لسبع سنين، وأهديت إليه لتسع سنين، وتزّوجني بِكراً لم يشرَكه فيّ أحدٌ من الناس، وكان يأتيه الوحي وأنا وهو في لِحاف واحد، وكنتُ من أحبّ الناس إليه، ونزل فيّ آية من القرآن كادت الأمةُ أن تهلك، ورأيت جبريل عليه السلام ولم يره أحدٌ من نسائه غيري، وقُبض في بيتي ولم يلهِ أحدٌ غير الملك وأنا.

الصدّيقة الوفيّة المخلصة الغيور العتيقة:

نسبها ومولدها:

هي عائشة بنت أبي بكر الصدّيق القرشيّة التيميّة[١].

أبوها:

الصديق خليفة رسول اللّه ﷺ أبوبكر عبد اللّه بن أبي قحافة، عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي، يلتقي نسبه مع النبي الأعظم ﷺ في مُرّة بن كعب.

---

(١) قال الذهبي: وعائشة ممن ولد في الإسلام، وهي أصغر من فاطمة بثماني سنين، وكانت تقول: لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان الدين، وذكرت أنها لحقت بمكة سائس الفيل شيخاً أعمى يستعطي.
وكانت امرأةً بيضاء جميلة، ومن ثَمّ يقال لها: الحُميراء، ولم يتزوج النبي الأعظم ﷺ بكراً غيرها، ولا أحبَّ امرأةً حبّها ولا أعلم في أمة محمد ﷺ، بل ولا في النساء مطلقاً، امرأةً أعلم منها. وقد جعل اللّه لكل شيء قدراً، بل نشهد أنها زوجة حبيبنا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك فخر؟! وإن كان للصدّيقة خديجة رضي اللّه عنها شأنٌ لا يُلحق، وأنا واقف في أيّتهما أفضل. نعم جزمتُ بأفضلية خديجة عليها لأمور ليس هذا موضعها. سير أعلام النبلاء ٢/ ١٤٠.

أمُّها:

أمُّ رومان[١] بنت عامر بن عويمر، وفي نسبها خلاف، وسمّاها ابن هشام في السيرة: زينب بنت عبد دهمان، وذكر لها صاحب الإصابة اسماً آخرَ هو دَعْد.

وولدت السيدة عائشة رضي اللّه عنها بعد البَعثة بأربع سنين أو خمس[٢].

نشأتها رضي اللّه عنها:

نشأت عائشة رضي اللّه عنها بين أحضان أبوين كريمين، ورثت عنهما الخير والفضل، ورّثاها يقيناً باللّه سبحانه، وثقة في جنابه لا حدّ لهما، وغرسا فيها حبّ الدعوة والداعية، وهمة عالية، وأخلاقاً سامية، فضلاً عما حباها اللّه جلّ جلاله من صفات جليلة أهّلتها للقيام بالدور الأجلّ في البيت النبوي الكريم.

أثبتت للدنيا ـ رضي اللّه عنها ـ منذ خمسةَ عشرَ قرناً أن المرأة يمكن أن تكون أعلمَ من الرجال وأن تكون سياسية، وأن تكون محاربةً!!!

هذه العظيمة التي تتلمذت وتخرّجت من مدرسة النبوة، مدرسة الإيمان، مدرسة الفرسان، تولاها في طفولتها شيخُ المسلمين وأفضلهم أبوها الصدّيق، ورعاها في شبابها نبي البشرية ومعلمها الأكرم، وسيّد البشر وأفضلهم زوجها سيدنا حبيب اللّه محمد ﷺ، فجمعت من العلم والفضل والبيان ما جعلها تخلف في التاريخ دوياً تتناقل أصداءه العصورُ، فهذه آثارها تُدرّس في كليّات الآداب كما تُدرس أبلغ النصوص الأدبية، وهذه فتاواها تقرأ في المصادر الفقهية، وهذه أعمالها الكاملة مجال بحث لكلّ مدرسٍ لتاريخ العرب والمسلمين.

كيف لا؟! وهي معلمة الرجال!! وأحبّ نساء الرسول ﷺ إليه[٣].

---

(١) أم رومان الكنانية رضي اللّه عنها، كانت من الصحابيات الجليلات، وقد تزوجت في الجاهلية من عبد اللّه بن الحارث الأسدي، فولدت له الطفيل، ثم توفي عنها أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه فولدت له عائشة وعبد الرحمن، وهاجرت معه إلى المدينة بعد أن استقر مقام النبي ﷺ وصاحبه بها، فلما توفيت بعد حادثة الإفك نزل حبيب اللّه ﷺ قبرها واستغفر لها وقال: (اللّهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك) أخرجه ابن سعد في طبقاته، وكذلك ابن حجر في الإصابة، وابن عبد البرّ في الاستيعاب.

(٢) كما ورد في الإصابة.

(٣) روي في الصحاح عن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه سأل النبي ﷺ: أي النساء أحب إليك يا رسول اللّه؟ قال: (عائشة) قال: فمن الرجال؟ قال: (أبوها) انظر في البخاري ٧/ ١٩ في فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٤.

زواجها من سيد الأنام ﷺ:

مرّ معنا حديث خولة بنت حكيم في الكلام عن سودة أم المؤمنين رضي اللّه عنها، وهناك توقفنا في الحديث عن السيدة عائشة، ذهبت خولة إلى بيت أبي بكر رضي اللّه عنه، فوجدت أمَّ رومان أمَّ عائشة، فقالت لها: يا أمّ رومان ماذا أدخل اللّه عليكم من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول اللّه ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: ودِدْتُ، انتظري أبابكر فإنه آتٍ، وجاء أبوبكر فقالت له مثلما قالت لأم رومان، فقال لها: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه، فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ فذكرت له، قال: (ارجعي فقولي له: أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي) فأتت أبابكر فذكرت له فقال لخولة: ادعي لي رسول اللّه ﷺ، فدعته، فزوّجها إياه، وعائشة رضي اللّه عنها يومئذ بنت ست سنين[١]. أي: عقد عليها فقط، أما ليلة الدُّخلة فكانت بعد ثلاث سنين.

أمين السماء جبريل يأتي الأمين محمداً عليهما السلام بصورة عائشة!!

لقد كان الحبيب الأعظم ﷺ يعلم أن عائشة ستكون زوجَه، كما أخبره بذلك أمين وحي السماء جبريل عليه السلام، فقد قال لها ﷺ بعد زواجه بها: (أُريتك في المنام ثلاث ليالٍ، جاءني بك الملك في سَرَقَةٍ[٢] من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك، فإذا أنت هي، فأقول: إن يكُ من عند اللّه يُمْضِهِ)[٣].

وفي رواية: إن جبريل عليه السلام جاء بصورتها في خِرْقة حرير إلى النبي ﷺ، فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.[٤].

لقد وثّقت هذه الخِطبة المباركة أواصر المحبة بين حبيب اللّه ﷺ وحبيبهِ أبي بكر رضي اللّه عنه، وزادت هذه الصّلة صلابة وقوة، ولم يجد صاحب الوفاء ﷺ مكافأة لأبي بكر في الدنيا، أعظم من أن يُقِرَّ عينه بالزواج بابنته، ويصبح بينهما مصاهرة وقرابة تزيد في ترابطهما الوثيق.

---

(١) أحمد ٦/ ٢١٠، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٩ رواه أحمد، بعضه صرّح فيه بالاتصال عن عائشة، وأكثره مرسل، فيه محمد بن عمرو ابن علقمه وثقةٌ غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح، ورواه ابن سعد ٨/ ٤٥،٤٦ والذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٤٩، ١٥٠، وذكره ابن حجر في الفتح وقال: إسناده حسن ٧/ ٢٦٦.

(٢) سَرَقة: قطعة أو شقة بيضاء.

(٣) البخاري في مناقب الأنصار ٧/ ٢٦٤ (٣٨٩٥)، ومسلم في فضائل الصحابة ١٥/ ٢٠٢ (٢٤٣٨).

(٤) الترمذي في المناقب ٥/ ٦٦١ (٣٨٨٠) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد اللّه بن عمرو بن علقمة.

العروس العظيمة عائشة تصف عُرسها:

وتصف السيدة العظيمة يوم عرسها فتقول: (تزوجني النبي ﷺ ـ أي: عقد علي فقط ـ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعِكت فتمزّق شعري فوق جميمة، فأتتني أمي أمُّ رومان، وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي، فصرخت بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي

فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأَنْهَج حتى سكن بعض نَفَسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، وأنا يومئذ بنت تسع سنين)[١]. ولكن هيئة جسمها تضارع بنت العشرين في عصرنا، لا كما يتخيل البعض عندما يرى بناتِنا صغيرات البنية في مثل هذه السن، فمن المعروف أن المرأة لا تسلم لزوجها إذا كانت لا تطيق الوطء أو كان عَبْلاً.

وعن عائشة رضي اللّه عنها: (أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت ست سنين، وأدخلتْ عليه وهي بنت تسع، ومكثت عنده تسعاً)[٢].

بيت العروس:

كانت السيدة عائشة رضي اللّه عنها عروساً حلوة، خفيفة الجسم، ذاتَ عينين واسعتين وشَعَر جعد، ووجه مشرق، مُشْرَب بجمرة، قد انتقلت إلى بيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التي شيّدت حول المسجد النبوي الشريف، من الَّلبِن وسعف النخل، وضع فيه فراش من أَدَم ـ جِلْد ـ حشوه ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير، وعلى فُتْحة الباب أسدل ستار من الشعر[٣].

قال المستشرق بودلي: (منذ وطئت قدماها بيت محمد ﷺ، كان الجميع يحسّون وجودها، ولو أن هناك شابةً عرفت ما هي مقبلة عليه، لكانت عائشةَ بنت أبي بكر، فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه دور النبي ﷺ الملحقة بالمسجد..)[٤]

وفي تلك الحجرة المباركة المتواضعة من خلال بيت الزوجية، غدت السيدة عائشة رضي اللّه عنها معلمةً لكل امرأة في العالم على مرّ العصور وكرّ الدهور،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨١). (٢) أخرجه البخاري (٤٨١٠).

(٣) راجع صحيح مسلم برقمين (٢٠٨٢ ـ ٢٤٣٨)، وفاء الوفا (٢/ ٤٥٩).

(٤) راجع الترجمة العربية لبودلي في كتاب الرسول ﷺ (٩٣ ـ ١٣٠) الدراسات العربية (فرج وسحّار).

فكانت خيرَ زوج تُؤنس الزوج، وتدخل السرور إلى قلبه وتزيل عنه ما يكابده خارج المنزل من مصارعة الحياة والدعوة إلى الله تعالى.. كانت خير زوج، كريمة اليد والنفس، صبرت مع الحبيب الأعظم ﷺ على الفقر والجوع حتى كانت تمرّ عليها الأيام الطويلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار لخبز أو طبيخ، وإنما كانا يعيشان على التمر والماء!! وفي ذلك ستظل هذه السيدة العظيمة رضي الله عنها مثالاً حياً للمؤمنين والمؤمنات، يتعلّمون منها كيف يبدؤون حياتهم بهذه البساطة والسهولة بلا تكلّف ولا تعقيد ولا إرهاق.

فعن أبي سلمة قال: سألتُ عائشة: كم كان صَداق النبي ﷺ؟ قالت: كان صداقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونَشاً، قالت: أتدري ما النَّشُّ؟ قلت: لا، قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمِائة درهَم، فهذا صداق رسول الله ﷺ(١).

إن المسلمة الصادقة العاقلة تأخذ قدوتها من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فترضى بالقليل، ولا تتكلّف ما فوق طاقتها، ولا ترهق زوجها لما تطلب حتى تجني من زواجها به البركة واليسر، وها هي أم المؤمنين عائشة تروي عن النبي ﷺ: (أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة)(٢).

زوجان ضرب التاريخ بهما المثل الأعلى!!

بدأت السيدة المكرّمة عائشة رضي الله عنها حياتها مع حبيب الله ﷺ وهي ما تزال صغيرةَ السن، وقد كان النبي ﷺ يقدِّر في عائشة حَداثة سنّها كيما تستكمل نموها وتنضَج شخصيتها، وكان ﷺ يلاطفها ويقدّم لها كل ما يدخل السعادة على قلبها.

وكَبِرت عائشة رضي الله عنها ونضِجت واستوت عقلاً وفَهماً وإدراكاً، فكانت سيّدةَ بيت النبوة، ترعى شؤونه، وتدبر أموره، وتواسي النبي ﷺ، وتحفظ عنه الكثير من أقواله، وتقتدي بأفعاله، وتقوم بواجب الحياة الزوجية خير قيام، فعمّت السعادة أركان البيت.

إن من الحق أن توصف حياة هذه المرأة العظيمةِ مع الرسول ﷺ بأنها حياة زوجية سعيدة، نزلت منها عائشة منزلة الزوجة الصالحة في طوال أيامها، ولا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظَفِرت بأسعدَ منها أو كانت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها، ففي طوال سنوات حياتهما معاً لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر أو مَساءة تعود فيها التَبِعة على أحد من الزوجين.

---

(١) مسلم في النكاح ٩/ ٢١٥ (١٤٢٦).
(٢) النّسائي في الكبرى عن عِشرة النساء ٥/ ٤٠٢ (٩٢٧٤).

هذه هي الزوجة المثالية تحكي لنا عن زوجها العظيم ﷺ في البيت فتقول: كان رسول اللّه ﷺ يخصف نعله، وكنت أغزل، قالت: فنظرت إلى رسول اللّه ﷺ فجعل جبينه يعرق، وجعل عرقه يتولّد نوراً، قالت: فَبُهِتُّ، قال: (مالكِ بُهِتِّ)؟ فقلت: يا رسول اللّه، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولّد نوراً، فلو رآك أبوكبير الهندلي لعلم أنك أحق بشعره، قال: (وما يقول يا عائشة أبوكبير الهندلي)؟ فقالت: يقول:

وإذا نـظـرت إلـى أَسـرّة وجـهـه ... بـرِقـت كـبـرق الـعـارض الـمـتـهـلّـل

قالت رضي اللّه عنها: فوضع رسول اللّه ﷺ ما كان في يده وقام إليّ فقبل ما بين عيني، وقال: (جزاك اللّه يا عائشة خيراً ما سررت مني كسروري منك)[١].

فها هي الصدّيقة بنت الصديق لا تجد في صدرها حرجاً من أن تنقل صورة زوجها بأمانة، شاعرة أنها تقدم للأجيال نفْساً كبيرة، وقدوة حيّة علمية في مشاركته لهن في الحياة الزوجية، على مستوى العمل المنزلي أو على مستوى أعظم الأمور التي تهمّ الأمة بأجمعها.

النبي ﷺ ينظر إلى لهوها ولعبها ويفرح لذلك!!

وعن عائشة رضي اللّه عنها: (أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت سبع سنين، وزُفّت إليه وهي بنت تسع سنين، ولعبها معها، ومات عنها وهي بنت ثماني عشرة سنة)[٢].

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: تزوجني رسول اللّه ﷺ وأنا ابنة سبع، وبنى بي وأنا ابنة تسع، وكنت ألعب بالبنات، وكن جوارٍ يأتينني، فإذا رأين رسول اللّه ﷺ ينقمعن منه، وكان النبي ﷺ يُسرّ بهن إليّ[٣].

وعنها رضي اللّه عنها، قالت: دخل رسول اللّه ﷺ وأنا ألعب بالبنات، فقال: (ما هذا يا عائشة؟ فقلت: خيْل سليمان، فضحك)[٤].

وروى الإمام أحمد في مسند أسماء بنت أبي يزيد بن السكن، وهو بمسند ابنة عُميس أشبه، عن أسماء بنت عميس رضي اللّه عنهما، قالت: كنت صاحبة عائشة رضي اللّه عنها التي هيأتُها وأدخلتها على رسول اللّه ﷺ ومعي نسوة، فواللّه ما وجدنا عنده قِرىً إلا قدحاً من لبن. قالت:

---

(١) حلية الأولياء لأبي نُعيم ٢/ ٤٨، ٤٩.
(٢) رواه مسلم برقم ١٤٢٢/ ٧١.
(٣) أخرجه الشافعي في المسند ٢/ ٢٩، والنسائي ٦/ ٨٢، وابن سعد ٨/ ٦١.
(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات من طرق الواقدي ٨/ ٦٢، والنسائي ٦٤، والبيهقي في الآداب ٩١٥.

فشرب منه، ثم ناوله عائشة، فاستحيت الجارية، فقلت: لا تردّي يدَ رسول اللّه ﷺ، خذي منه، فأخذته على استحياء فشربت، ثم قال: ناولي صواحبك. فقلن: لا نشتهيه. فقال: (لا تجمعن جوعاً وكذباً) فقلت: يا رسول اللّه إذا قلنا لشيء نشتهيه لا نشتهيه، يعدّ كذباً؟ قال: (إن الكذب يكتب كذباً، حتى تكتب الكُذيبة كذيبة)(١).

فضل شهر شوال وإبطال التشاؤم والطِّيرَة من التزوج بين العيدين:

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: تزوجني رسول اللّه ﷺ في شوال، فأي نساء رسول اللّه ﷺ كانت أحظى عنده مني؟.

قيل: وكانت عائشة رضي اللّه عنها تستحب أن تدخل نساءها في شوال(٢).

السيدة عائشة وحديث النفقة:

واستمرت حياة السيدة الفاضلة مع زوجها العظيم ﷺ هادئة مستقرة، ولكن حدث ما يُعكّر صفوها، حيث طلب نساء النبي ﷺ زيادة النفقة والتوسعة عليهن، فغضب النبي ﷺ لذلك، وأقسم ألا يدخل بيوتهن شهراً، حتى أنزل اللّه جلّ جلاله آية التخيير:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

وبدأ المصطفى ﷺ بعائشةَ، فقال: (يا عائشةُ إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحبُّ ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك) قالت: وما هو يا رسول اللّه؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول اللّه أستشير أبويَّ؟! بل أختار اللّه ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال. (لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن اللّه لم يبعثني معنّتاً ولا متعنّتاً، ولكن بعثني معلّماً ميسّراً)(٣).

عائشة قدوة عملية وأمّة كاملة:

إن سيد الوجود ﷺ اختار لنفسه أن يعيش كصاحب دعوة، لا كملك من الملوك أو رئيس من الرؤساء، ينفق ما يشاء ويفعل ما يريد ويُثري مَنْ حوله، وإنما يعيش ﷺ وأهلُ بيته كما يعيش الناس وأقل، فهو مثلهم وأكثرهم حِملاً.

---

(١) رواه مسلم ١٤٢٣/ ٧٣.

(٢) القول لأبي عبيدة معمر بن المثنى.

(٣) مسلم في الطلاق ١٠/ ٨٠ (١٤٧٨).

ولقد أراد ﷺ أن يرفع أهل بيته إلى أخلاق النبوة، إلى مستوى المسؤولية، فزوجة المجاهد مجاهدة، وزوجة الداعي داعية لها مثل الصفات ولها مثل الأفعال والأحوال التي يجب أن يكون عليها الداعي، فما بالنا إذا تصدّرت هي إلى الأمر، وكانت دالّة على تعاليمه داعية إليها؟!!

ولهذا فقُه أزواج النبي ﷺ الدرس جيداً، واخترن كلُّهن اللّهَ ورسولَه ﷺ ولم تختر واحدة منهن الدنيا، وكنّ على مستوى المسؤولية الإيمانية والقيادية.

فما أنفع التربية التي تقوم على الخلق العملي والأسوة الطيّبة!!!

يقول صاحب الظلال ـ رحمه اللّه ـ : ومن خلال هذا الحديث يبدو النبي ﷺ إنساناً يحب زوجه عائشة، فيحب لها أن ترتفع إلى أُفقه الذي يعيش فيه، وتبقى معه على هذا الأفق، وتشاركه الشعور بالقيم الأصيلة في حسّه، والتي يريدها له ربه سبحانه وتعالى ولأهل بيته.

كذلك تبدو عائشة رضي اللّه عنها إنساناً يسرها أن تكون مكينة في قلب زوجها، فتسجل بفرح حرصه عليها وحبه لها، ورغبته في أن تستعين بأبويها على اختيار الأفق الأعلى، فتبقى معه على هذا الأفق الوضيء، ثم نلمح مشاعرها الأنثوية كذلك، وهي تطلب إليه ألا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حين يخيرهن!! وما في هذا الطلب من رغبة في أن يظهر تفردها في هذا الاختيار، ومِيزتها على بقية نسائه، أو على بعضهن في هذا المقام.

وهنا نلمح عظمة النبوة من جانب آخر في ردّ رسول اللّه ﷺ وهو يقول لها: (إن اللّه تعالى لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلّماً ميسّراً، لا تسألني واحدة عما اخترت إلا أخبرتها) فهو لا يودّ أن يحجب عن إحدى نسائه ما قد يعينها على الخير، ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير، بل يقدم العون لكل من تريد العون، كي ترتفع على نفسها، وتتخلّص من جواذب الأرض ومغريات المتاع[١].

أمر الحبيب ﷺ لها بالاسترقاء:

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: (أمرني رسول اللّه ﷺ أن أسترقي من العين)[٢].

وروى الدارقطني في غرائب مالك عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قلت

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب رحمه اللّه ٥/ ٢٨٥٦.

(٢) رواه مسلم ٢١٩٥/ ٥٥.

لرسول اللّه ﷺ: كيف حبُّك لي؟ قال: كعقدة الحبل. قالت: كيف العقدة؟ قال: (على حالها)[١].

الحبيب ﷺ يبشرها بأنها زوجه في الجنة:

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: يا رسول اللّه من أزواجك في الجنة؟ قال: (أما إنك منهن)[٢].

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن مسلم البطين قال: قال رسول اللّه ﷺ: (عائشة زوجتي في الجنة)[٣].

وعن عائشة رضي اللّه عنها: أن رسول اللّه ﷺ ذكر فاطمة رضي اللّه عنها، قالت: فتكلمت أنا، فقال رسول اللّه ﷺ: (أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة)[٤].

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: (قال رسول اللّه ﷺ: يا عائشة إنه ليهون عليّ الموت أني قد رأيتك زوجتي في الجنة)[٥].

علامة رضاها عن حبيب اللّه ﷺ:

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قال لي رسول اللّه ﷺ: (إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبى) قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: (أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا وربِّ محمد! وإذا كنت غضبي، قلت: لا. وربِّ إبراهيم!) قالت: قلت: أجلْ. واللّه يا رسول اللّه! ما أهجر إلا اسمك)[٦].

تحري الناس يوم عائشة لإهداء النبي ﷺ:

وعن عائشة رضي اللّه عنها: (أن الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يوم عائشة، يبتغون بذلك مرضاة رسول ﷺ)[٧].

وعن عائشة رضي اللّه عنها: (أن نساء رسول اللّه ﷺ كنّ حزبين، فحزبٌ فيه عائشة وحفصة وصفيّة وسودة، والحزب الآخر: أم سلمة وسائر نساء رسول اللّه ﷺ، وكان المسلمون قد علموا حبّ رسول اللّه ﷺ عائشة، فإذا كان عند

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٤٤ عن طريق الإمام مالك.
(٢) أخرجه ابن عساكر في الأربعين، والحاكم في المستدرك ٤/ ١٣، وابن سعد في الطبقات ٨/ ٦٥.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ١٢٨ (١٢٣٢٥)، وابن سعد ٨/ ٦٦.
(٤) الإحسان (٧٠٥٣) وتتمته: قلت: بلى واللّه قال: (فأنت زوجتي في الدنيا والآخرة).
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/ ٣٩ من طريق الإمام أبي حنيفة رضي اللّه عنه.
(٦) مسلم (٢٤٣٩). (٧) مسلم (٢٤٤١).

أحدهم هدية، يريد أن يهديها إلى رسول اللّه ﷺ أخّرها، حتى إذا كان رسول اللّه ﷺ في بيت عائشة، بعث صاحب الهدية إلى رسول اللّه ﷺ في بيت عائشة، فكلّم حزب أمّ سلمة، فقلن لها: كلّمي رسول اللّه ﷺ يكلّم الناس، فيقول: من أراد أن يُهديَ إلى رسول اللّه ﷺ هدية، فليهدها إليه حيث كان من بيوت نسائه، فكلمته أم سلمة بما قلن لها فلم يقل لها شيئاً، فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئاً، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: كلّميه حتى يكلّمك، فدار إليها فكلمته، فقال لها: (لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة). قالت: فقلت: أتوب إلى اللّه من أذاك يا رسول اللّه، ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول اللّه ﷺ، فأرسلت إلى رسول اللّه ﷺ تقول: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت أبي بكر، فكلمته فقال: (يا بنية، ألا تحبين ما أحبّ؟) قالت: بلى، فرجعت إليهن فأخبرتهن، فقلن: إرجعي إليه فأبت أن ترجع، فأرسلن زينب بنت جحش، فأتته وأغلظت، وقالت: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت ابن أبي قُحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبتها، حتى إن رسول اللّه ﷺ لينظر إلى عائشة هل تكلم، قال: فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها، قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة، وقال: (إنها بنت أبي بكر)(١).

قال هشام عن أبيه: كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، واللّه إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة فمُرِي على رسول اللّه ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان، أو حيثما دار، قالت: ذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إليّ ذكرت له ذلك فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: (يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه واللّه ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها)(٢).

وعن النعمان بن بَشير رضي اللّه عنه قال: جاء أبو بكر يستأذن على النبي ﷺ، فسمع عائشة وهي رافعة صوتَها على رسول اللّه ﷺ، فأذن له فدخل، فقال، يا ابنة أم رومان ـ وتناولها ـ أترفعين صوتك على رسول اللّه ﷺ؟ قال: فحال النبي ﷺ بينه وبينها، قال: فلما خرج أبو بكر، جعل النبي ﷺ يقول لها يترضاها: (ألا ترين أني قد حلتُ بين الرجل وبينك؟) قال: ثم جاء أبو بكر، فاستأذن عليه،

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٥٦٤).

فوجده يضاحكها، قال: فأذن له فدخل، فقال له أبو بكر: يا رسول اللّه، أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما)(١).

الصدّيقة عائشة وحقوق المرأة:

كان للسيدة عائشة رضي اللّه عنها دور كبير في نصرة حقوق المرأة، ودفاعها عن إنسانيتها، حتى غدت زعيمة الآخذين بنصرة المرأة والمدافعين عنها، وإليها وحدها تطلعت أبصار المستضعَفات والمضطهَدات لما لها من مكانة كبرى عند رسول اللّه ﷺ.

وكم نزل الوحي على النبي ﷺ في حجرتها بسبب شكاياتهن وقضاياهن!!

قالت رضي اللّه عنها: كان الناس والرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العِدة، وإن طلقها مِائة مرة حتى قال رجل لامرأته: واللّه لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذاك؟ قال: أطلقك فكلما همَّتْ عدّتُك أن تنقضيَ راجعتك؛ فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها، فسكتت عائشة حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته، فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

قالت عائشة: فاستقبل الناس الطلاق مستقبلاً، من كان طلق ومن لم يكن طلق(٢) ومن هذا القَبيل أيضاً قولها رضي اللّه عنها: تبارك الذي وسع سمعُه كل شيء، إني لأسمع كلام (خولة بنت ثعلبة)، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها لرسول اللّه ﷺ وهي تقول: يا رسول اللّه... أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبِرَت سني وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللّهم إني أشكو إليك.

فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات:

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وهذه زوجة ثابت بن قيس كرهت زوجها، فأتت رسول اللّه ﷺ وهو في حجرة السيدة عائشة، فاشتكته إليه، فدعا النبي ﷺ ثابتاً فقال: (خذ بعض مالها وفارقها)(٣). فكان أولَ خُلع في الإسلام.

---

(١) رواه أحمد والنسّائي وأبو داود وابن أبي الدنيا.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) البخاري وابن ماجه.

وهذه فتاة تدخل أيضاً على السيدة عائشة قائلة: إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة، فقالت لها عائشة: اجلسي حتى يأتي النبي ﷺ، فجاء رسول اللّٰه ﷺ فأخبرته، فأرسل إلى أبيها فدعاه، فجعل الأمر إليها، فقالت: يا رسول اللّٰه، قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن يعلم النساء أن ليس لآبائهن من الأمر شيء![١].

وظلت السيدة عائشة رضي اللّٰه عنها بعد وفاة النبي ﷺ زعيمةَ المدافعين عن المرأة، تنكر على كل من يتكلم بشيء ينال من كرامة المرأة، عن تعصب منه.

دخل عليها رجلان فقالا: إن أبا هريرة يحدث أن النبي ﷺ كان يقول:

(إنما الطِيرَة في المرأة، والدابة، والدار).

فطارت شقة منها في السماء، وشقة منها في الأرض[٢] وقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ﷺ ما هكذا كان يقول، ولكن كان نبي اللّٰه ﷺ يقول: (كان أهل الجاهلية يقولون: الطيرة في المرأة والدابة والدار)!!!

ثم قرأت: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وكما كانت رضي اللّٰه عنها شديدة الدفاع عن المرأة، كانت في نفس الوقت شديدة الإنكار على اللواتي يخالفن بعض أحكام الشريعة، فقد واجهت نساء حِمْصَ عندما دخلن عليها قائلة: لعلكن من اللواتي يدخلن الحمّامات؟ سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: (أيما امرأة وضعت ثيابها في غير بيت زوجها، فقد هتكت ستر ما بينها وبين اللّٰه)[٣].

وحينما رأت تغيراً في ملابس بعض النساء، بعد عهد النبي ﷺ أنكرت ذلك وقالت: لو أن رسول اللّٰه ﷺ رأى ما أحدث النساءُ لمنعهن المسجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل[٤].

ولقد كانت رضي اللّٰه عنها شديدة الحرص على أن تكون ثياب المرأة ساترة لها من الرجال الأجانب، فإذا ما رأت على إحداهن ثوباً رقيقاً زجرتها، وبادرت إلى تمزيقه!!! كما فعلت مع ابنة أخيها حفصة بنت عبد الرحمن، أخرج ابن سعد

---

(١) الفتاة هي: (خنساء بنت خذام) رواه البخاري والنسائي.
(٢) كناية عن شدة الغضب.
(٣) أحمد وأبو داود وابن ماجه.
(٤) متفق عليه.

في طبقاته: أن حفصة بنت عبد الرحمن دخلت على أم المؤمنين، وعلى حفصة خمار رقيق، فشقته عائشة عليها، وكستها خماراً كثيفاً.

وروي عنها: (يرحم اللّه النساء المهاجرات الأول، لما أنزل اللّه:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

شققن أكثف مروطهن فاختمرن بها)[١].

وكانت تقول: إنما الخمار ما وارى الشَعَر والبَشَرة[٢].

الصدِّيقةُ وعليّ رضي اللّه عنهما:

إن من يفترض رواسب العداوة والكراهية في قلبي الإنسانين الكبيرين علي وعائشة، إنما يتنكب طريق الحق والصدق؛ خاصة أولئك الذين يتخذون من موقف علي رضي اللّه عنه يوم حادث الإفك مرتكزاً، ومنطلقاً؟!!!

وهي التي روت كثيراً من الأحاديث في فضل علي كرم اللّه وجهه لأنها كانت تعرف مكانته في الإسلام، وعند رسول اللّه ﷺ تعرف قرابته ومصاهرته وجهاده وشجاعته وسابقته!!!

سئلت رضي اللّه عنها: أيُّ الناس كان أحب إلى رسول اللّه ﷺ؟ فقالت: فاطمة، فقيل: من الرجال؟ قالت: زوجها... إن كان ما علمت صواماً قواماً.

وروت أيضاً، فقالت: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مِرْط مرحَّل من شعر أسود، فجاء الحسن ابن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وهي التي كانت تحيل بعض سائليها المستفتين على علي، ثقة منها بعلمه وأمانته وفقهه.

وإن من يتتبع الرواياتِ والنقولَ التي تتحدث عن عداوة وخصومة بين عائشة وعلي رضي اللّه عنهما نجد في أسانيدها ضعفاً ظاهراً، من حيثُ رجالُها؛ فما يجعلنا نزداد اعتقاداً راسخاً بأن كليهما رضي اللّه عنهما كانا فوق هذا المستوى بكثير.

ولعل موقف الوداع الذي تم لعائشة بعد موقعة الجمل، تريد العودة من

---

(١) البخاري وأبو داود.

(٢) المصنف (٣ ـ ١٣٣).

البصرة إلى المدينة، خيرُ دليل على ما تُرد به تلك الافتراءات، التي ما تزال تلعب دورها في العصبيات المذهبية إلى يومنا هذا.

لقد جهزها علي رضي اللَّه عنه بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها، إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وقال لأخيها محمد بن أبي بكر: تجهز يا محمدُ فبلغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس، فخرجت على الناس فودعوها، وودعتهم، وقالت: يا بني تعتَّب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة، فلا يعتدَّنَّ أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك، إنه واللَّه ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي على معتبتي من الأخيار..!!

وقال علي: صدقتْ واللَّه وبرَّت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

الطاهرة وبَضْعة المختار ﷺ رضي اللَّه عنهما:

وكانت السيدة عائشة رضي اللَّه عنها على علاقة حسنة ومودة عالية مع السيدة فاطمة رضي اللَّه عنها، يدل على ذلك ثناءُ عائشة على فاطمة في الحديث التالي:

قالت عائشة: اجتمع نساء النبي ﷺ فلم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي، وكانت مِشيتها مِشيةَ رسول اللَّه ﷺ، فقال: مرحباً بابنتي، فأجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم إنه أسرَّ إليها حديثاً، فبكت فاطمة ثم إنه سارَّها فضحكت أيضاً، فقلت لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما كنت لأفشيَ سرَّ رسول اللَّه ﷺ، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصك رسول اللَّه ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين؟ وسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول اللَّه ﷺ؛ حتى إذا قبض سألتها فقالت: إنه كان حدثني: أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كلّ عام مرة، وأنه عارضه به في العام مرتين، ولا أُراني إلا قد حضر أجلي، وإنك أول أهلي لحوقاً بي، ونِعم السلف أنا لك. فبكيت لذلك، ثم إنه أَسرّني فقال: (ألا ترضين أن تكوني سيدةَ نساء المؤمنين ـ أو سيدة نساء هذه الأمة، فضحكت لذلك)[١].

فلولا أن عائشة رضي اللَّه عنها حدثت هذا الحديث لما تمكن جمهور

---

(١) رواه مسلم.

العلماء من القول بفضل فاطمة رضي اللّه عنها على جميع النساء؛ نظراً لقول النبي ﷺ في حديث آخر: (حسبك من نساء المؤمنين: مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد و آسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)(١).

والمتأمل لا يستطيع أن يجزم بفضل واحدة منهن على الأخريات، وقد جعلتنا السيدة عائشة من خلال حديثها نجزم بفضل السيدة فاطمة عليهن جميعاً!!!

كلمة عصماء في يوم (الجمل):

كلمة هادئة عاقلة، لا متشنجة ولا منفولة، تجمع ولا تفرق، توحد ولا تبدد، تتعالى فوق الجراح والعصبيات والمذهبيات، وتتجاوز الأشخاص والرموز، والأحداث والأزمان، لتصل العقل بالعقل، والقلب بالقلب، ثم تصهر كل ذلك في بوتقة الرسالة المحمدية؟!!

كلمة واعية تضيء الطريق لنعرف العدو من الصديق، وخصوصاً نحن المسلمين في معركة قائمة، هي معركة الحق مع الباطل.

تُجْمع روايات المصادر التاريخية على أن المفاوضات بين علي وبين طلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى كادت تعطي ثمارها في الصلح والسلام.

ومن البديهي أن لا ترضى عن ذلك فئة الضِرار، فمن هي؟ إنها نفس الفئة، بأشخاصها وأعيانها الّذين وفدوا من مصر ثائرين على عثمان بن عفان رضي اللّه عنه وقد شحنهم ابن السوداء بالحقد والكراهية، فكان يومُ الدار واستشهاد ذي النُورين في ملحمة تاريخية، معولاً هداماً في بناء الإسلام السياسي!!!

ومع فجر الليلة الموعودة التي كان سيتم إعلان الصلح والسلام على أثرها، انفجر الموقف وأنشبت (السبئية) القتال وكان ما كان.

إذاً... فالفئة الكبرى أخذت دورها وموقعها وسبيلها، وكانت دماء المسلمين وَقودَها!!

في عهد كاتب الوحي (معاوية بن أبي سفيان رضي اللّه عنه):

بعد (الجمل) ومأساته، وبعد استشهاد علي كرم اللّه وجهه ورضي اللّه

---

(١) متفق عليه من حديث أنس.

عنه، لزمت عائشة بيتها، تتألق في ميدان العلم والفقه والروايات، ويُحج إليها من كل حَدَب وصوب، ولقد أضحت مرجع الناس في هذا الصدد.

وحين تولى معاوية الخلافة، حاول أن يصل ما بينه وبين أم المؤمنين، يسترضيها ويسترشدها، ولقد أرسل لها مرة: اكتبي إلي كتاباً ولا تكثري.

فكتبت تقول: سلام عليك، أما بعد: فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (من التمس رضاء اللّه بسخط الناس، كفاه اللّه مؤونة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط اللّه، وَكَلَه اللّه للناس). والسلام عليك[1].

السيدة العظيمة تودّع الدنيا رضي اللّه عنها:

وفي شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة والخمسين للهجرة، مرضت السيدة عائشة رضي اللّه عنها مرض الوفاة، فأوصت:

ألا تتبعوا سريري بنار، ولا تجعلوا تحتي قطيفة حمراء.

ولما اشتد المرض عليها، استأذنها عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه لعيادتها، فأكب عليها ابن أخيها عبد اللّه بن عبد الرحمن فقال: هذا عبد اللّه بن عباس يستأذن عليك، فعرفت أنه يريد أن يثنيَ عليها ويزكيَها، فقالت: دعني من ابن عباس فإنه لا حاجة لي به ولا بتزكيته!!!... فقال: يا أمتاه...

إن ابن عباس من صالحي بيتك يسلم عليك ويودعك.

فقالت: فأْذن له إن شئت، فلما أن سلم وجلس قال: أبشري، قالت: بم؟ قال: ما بينكِ وبين أن تلقي محمداً ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، كنتِ أحب نساء رسول اللّه إلى رسول اللّه ﷺ، ولم يكن رسول اللّه يحب إلا طيباً، وسقطت قلادتك ليلة (الأبواء)، فأصبح رسول اللّه ﷺ ليطلبها حين يصبح في المنزل، فأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل اللّه أن تيمموا صعيداً طيباً، فكان ذلك بسببك، وما أذن اللّه لهذه الأمة من الرخصة، وأنزل اللّه براءتك من فوق سبع سماوات جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد اللّه يذكر فيه إلا هي تتلى فيه آناء الليل والنهار.

فقالت: دعني منك يا ابن عباس، فو الذي نفسي بيده لودِدْت أني كنت نسياً منسياً!!!

(١) مسند عائشة.

ويتشرف البقيع بالجثمان الطاهر:

وكانت وفاتها رضي اللّه عنها ليلة الثلاثاء لسبعَ عشرةَ من شهر رمضان، ودفنت من ليلتها بعد صلاة الوتر، وهي يومئذ بنت ست وستين سنة، وصلى عليها أبو هريرة رضي اللّه عنه فاجتمع الناس ونزل أهل العوالي وحضروا، فلم تُرَ ليلة أكثر ناساً منها، ونزل في قبرها عروة بن الزبير و القاسم بن محمد بن أبي بكر و عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد اللّه بن عبد الرحمن.

ودفنت بالبقيع، رضي اللّه عنها وأرضاها، وأكرم في الجنة نزلها ومثواها، وجعلها في أعلى عليين مع زوجها العظيم محمد بن عبد اللّه ﷺ وجزاها ربي جلّ جلاله عن الإسلام والمسلمين خيرًا كثيرًا.

الأستاذة الكبيرة معلّمة الرجال والأجيال!!!

علمها:

قال الحاكم في المستدرك: إن رُبُعَ أحكام الشريعة نقلت عنها.

وليس في هذا القول، أو هذه الشهادة، أيةُ مبالغة، على الرغم من اتساع الحكم وشموله.

فقد كان العلم من أبرز صفات السيدة عائشة رضي اللّه عنها إذ بلغ علمها ذروة الإحاطة والنضج في مختلِف ما اتصل بالدين من قرآن و تفسير وحديث وفقه!!!

وكان أكابر الصحابة رضوان اللّه عليهم إذا أشكل عليهم الأمر في قضية من القضايا يستفتونها فيجدون علمه عندها، قال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا أصحابَ رسول اللّه ﷺ حديثٌ قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا.

وقال مسروق بن الأجدع: رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض.

وحين يُشكل على أهل الأمصار أمر من الأمور، يكتبون إلى أصحاب رسول اللّه ﷺ في الحجاز، ويسألونهم عن حكم اللّه فيه، فكان هؤلاء إذا فاتهم علم شيء، رجعوا إلى علماء بينهم اشتَهَروا بحمل العلم وفقهه مثل عبد اللّه بن عمر وأبي هريرة وابن عباس، وكان مقام السيدة عائشة بين هؤلاء مقامَ الأستاذ من تلاميذه، فكان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يحيل عليها كل ما يتعلق بأحكام النساء، أو بأحوال النبي ﷺ البيتية، لا يضارعها في هذا الاختصاص أحد على الإطلاق.

قال الزُهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل.

وقد يصل أحياناً إلى سمع عائشة عن بعض علماء الصحابة روايات وأحكام على غير وجهها، فتصحح لهم ما أخطؤوا فيه أو تبين لهم ما خفي عليهم، حتى اشتَهَر ذلك عنها، فصار مَن شك في روايةٍ أتى عائشة سائلاً، وإذا كان بعيداً كتب إليها يسألها.

أخرج البخاري ومسلم: إن زياد بن أبي سفيان كتب إلى عائشة أن عبد اللّه ابن عباس قال: من أهدى هديه حرم عليه ما يحرم على الحاج حتى ينحر الهدي، وقد بعثت بهديي فاكتبي لي بأمرك.

قالت عائشة: ليس كما قال ابن عباس، أنا فتلت قلائد هَدْي رسول اللّه ﷺ بيدي، ثم قلدها رسول اللّه ﷺ بيده، ثم بعث بها مع أبي، فلم يَحْرم على رسول اللّه ﷺ شيءٌ أحله اللّه حتى نحر الهدي.

وأخرج البيهقي عن الزهري أنه قال: أول من كشف الغَمَّاءَ عن الناس وبيّن لهم السنة في ذلك عائشةُ رضي اللّه عنها.

ومن ذلك أيضاً، رجوع أبي هريرة عما كان يرويه عن الفضل بن العباس: أن من أدركه الفجر وهو جنب فلا يصم؛ فلما سُئِلتْ عائشةُ وسُئِلَتْ أمُّ سلمة قالتا: كان النبي ﷺ يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم. ولما أُخبر أبو هريرة قال: هما أعلم، ثم ردّ ما كان يقول في ذلك.

ولقد ألَّف الإمام بدر الدين الزركشي كتاباً ذكر فيه كل المسائل التي قيل إن عائشة رضي اللّه عنها استدركتها على الصحابة، وسماه: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة.

كما كتب العلامة جلال الدين السيوطي كتاباً آخر في نفس الموضوع وسماه: عين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة، وهو مختصر للإجابة وتصحيح لبعض ما ورد فيه.

معلمة العلماء!!!

انتشر علم السيدة عائشة رضي اللّه عنها في الأمصار والأقطار، وتناقله الناس في كل مكان، فيممها طلاب العلم والمعرفة واتجهوا قِبَل الحجرة المباركة التي أصبحت أول مدارس الإسلام بعد مسجده عليه السلام في عهده وأعظمها أثراً في تاريخ الفكر الإسلامي، ولقد تخرج من هذه المدرسة الجامعة كبارُ علماء التابعين

وساداتهم، فكانت عائشة رضي اللَّه عنها بحق: معلمةَ العلماء ومؤدبة الأدباء.

وكانت السيدة رضي اللَّه عنها تحتجب عن تلاميذها غير المحارم، وربما نبهتهم بتصفيقها من وراء الحجاب.

قال مسروق: سمعت تصفيقها بيديها من وراء الحجاب.

ولقد اتبعت في التعليم والتلقين الأساليب والطرق التربوية الرفيعة، مقتديةً برسول اللَّه ﷺ.

أول تلك المبادئ هي التأني في الكلام، ليتمكن المستمع من الاستيعاب، ولقد كانت تنكر على من تسمعه يسرع في كلامه.

قال عروة: قالت عائشة: ألا يعجبك أبو فلان تعني: (أبا هريرة) جاء فجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول اللَّه ﷺ، يسمعني ذلك، وكنت أسبح (أُصلّي) فقام قبل أن أقضيَ سُبْحتي، ولو أدركته لرددت عليه، إن رسول اللَّه ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم(١).

وكانت رضي اللَّه عنها تلجأ إلى الأسلوب العلمي التطبيقي، فكثيراً ما كانت تعلم تلاميذها وتلميذاتِها الأحكام الشرعية العملية فتؤدِيها بنفسها أمامهم.

ولم تكن رضي اللَّه عنها لتتحرج في إجابة السائلين المستفتين عن أي مسألة من مسائل الدين، حتى ولو كانت تتصل بشؤون الإنسان الخاصة، تقديراً منها لمسئوليتها عن بيان مثل هذه الأحكام التي لم يطلع عليها أحد سوى نساء النبي ﷺ.

وكانت أحياناً تشجع المستفتين الذين يستحيون من السؤال عن مثل هذه الأمور والقضايا. . .

قال عبد اللَّه بن شهاب الخولاني: كنت نازلاً على عائشة فاحتلمت في ثوبيّ، فغمستهما في الماء، فرأتني جارية لعائشة فأخبرتها، فبعثت إليّ عائشة فقالت: ما حملك على ما صنعت بثوبيك؟ قلت: رأيت ما يرى النائم في منامه، قالت: هل رأيت فيهما شيئاً؟ قلت: لا، قالت: فلو رأيت شيئاً غسلته، لقد رأيتُني وإني لأحكه من ثوب رسول اللَّه ﷺ يابساً بِظُفُري.

الأسلوب الاستدلالي:

وكانت رضي اللَّه عنها لا تكتفي بتقرير الأحكام إلا مشفوعة بأدلتها من الكتاب والسنة؛ وهذا الأسلوب يسمى عند العلماء (الفقهَ الاستدلالي).

---

(١) البخاري.

حدثنا مسروق أحد كبار تلامذتها، فقال: كنت متكئاً عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على اللّه الفِرية، فقلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على اللّه الفِرية.

قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين، أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

فقالت: أَمَا إني أولُ هذه الأمة سأل عن ذلك رسول اللّه ﷺ فقال: إنما هو جبريل، لم أَرَهْ على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عُظْمُ خَلْقه ما بين السماء والأرض، فقالت: أوَ لم تسمع أن اللّه يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أو لم تسمع أن اللّه يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على اللّه الفرية، واللّه يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل: ٦٥].

والثالثة: من زعم أن رسول اللّه ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد أعظم الفرية.

أكابر الصحابة يسألونها!

وقالوا: وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض، وقال عطاء بن أبي رباح: وكانت عائشة من أفقه الناس، وأحسن الناس رأيا في العامة.

نقول: وهذا أيضاً يفسر لك لماذا كان ﷺ يحبها أكثر!

لما يعلم أن هناك من الخير المكنون في شخصيتها الشيء الكثير، وسوف يظهر مع الأيام!!!

ما رأيت أحداً أعلم من عائشة!

وقال عروة: وما رأيت أحداً أعلم بفقه، ولا بطب، ولا بشعر، من عائشة!!!

نقول: هذا ما تلألأ أمام عيني ابن أختها أسماء رضي اللّه عنها، فكيف بالمكنون وما سوف يكون؟!!

كان علمها بحراً ممدوداً!!

وقالوا: وروت عن النبي ﷺ، كثيراً، روى عنها عمر بن الخطاب، وكثير من الصحابة، ومن التابعين مَن لا يحصى.

نقول: كانت علومها رضي اللّه عنها، بحراً ممدوداً، وكيف لاتكون كذلك؟ وعندها الاستعداد، والامداد على قدر الاستعداد؟!

لقد كانت تأخذ رأساً من رسول اللّه ﷺ بدون واسطة أحد من الرواة.

نقلت إلى الأمة أعزّ ما يعني الناس من أمور دينهم، نقلت إلى الأمة حياة النبي ﷺ الخاصة، وما لم يَطّلع عليه أحد إلا هي، وهي معه ﷺ، في تهجده، في نومه، في فراشه، في بيته!!!

وهي التي نقلت إلى الأمة تفاصيل اللحظات المقدسة من حياته الشريفة ﷺ لحظات المرض الأخير، ولحظات سكرات الموت، وآخر كلامه ﷺ!!!

أيّ ثروة هي أعظم؟!!

وأيّ تراث هو أغلى مما نقلت إلينا أم المؤمنين عليها رضوان اللّه تعالى؟!!

من مأثور حِكَمها:

أ ـ للّه درُّ التقوى، ما تركت لذي غيظٍ شفاء.

ب ـ لا سهر إلا لثلاثة: مُصلٍّ، أو عروسٍ، أو مسافرٍ.

ت ـ وقالت في هذا أيضاً: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فَسَبُّوهم؟!!

وكانت رضي اللّه عنها حسنة المظهر، نظيفة الملبس، لا تهمل أمر نفسها، قال ابن حجر: قيل: إنها كانت تبالغ في تنظيف ثيابها التي تنام فيها مع النبي ﷺ، ومن اهتمامها بالنظافة: أنها كانت شديدة العناية بنظافة أسنانها بالسواك، يقول عروة: وسمعنا استنان عائشة أم المؤمنين في الحجرة.

وكانت رضي اللّه عنها ترافقه في حجه وتحيطه بعنايتها، فتطيبه قبل إحرامه وبعد إحلاله قبل أن يطوف طواف الإفاضة، تطيبه بيدها، وتتخير له أطيب الطيب، تقول رضي اللّه عنها: طيبت رسول اللّه ﷺ بيدي لحرمه حين أحرم، ولحله حين أحلّ قبل أن يطوف بالبيت، وسألها عروة بأي شيء طيبت رسول اللّه ﷺ عند حرمه؟ قالت: بأطيب الطيب.

يا معاشر النساء!!

ومن أجل ذلك اهتمت رضي اللّه عنها في وصيتها للنساء بالأزواج، وتعريفهن بواجباتهن نحوهم، حتى إنها رضي اللّه عنها، لترى أن هذه الواجبات من الأهمية بمكان، تقول رضي اللّه عنها: يا معشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكن

عليكن، لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بِحُرِّ وجهها؟! ودخلت عليها بكرة بنت عقبة فسألتها عن الحنّاء، فقالت: شجرة طيبة وماء طهور، وسألتها عن الحِفاف؟[١] فقالت لها: إن كان لك زوج فاستطعت أن تنتزعي مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي.

حادث الإفك!!!

لقد كان حادث الإفك من أشد ما واجهت عائشة رضي اللَّه عنها في حياتها، ومن أقسى ما تعرض له بيت النبوة من شدائدَ ومحنٍ، تجلى في هذا الحادث عنايةُ اللَّه برسوله ﷺ وأهل بيته رضي اللَّه عنهم، حيث أنزل اللَّه عز وجل في براءة عائشة ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول اللَّه ﷺ وتسلية له، وتنزيه لعائشة أم المؤمنين وتطهير لأهل البيت.

وإليك أخي القارئ الحادث كما ترويه عائشة رضي اللَّه عنها قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها هي غزوة بني المصطلِق فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول اللَّه ﷺ بعدما أنزل الحجاب، فكنت أُحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول اللَّه ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حتى أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عِقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعتُ فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه.

قالت: وأقبل الرهْط الذين كانوا يُرحّلونني، فاحتملوا هودجي، فرحّلوه على بعيري الذي كنت عليه، وهم يحسَبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن ـ العُلقة ـ (القليل من الطعام) فلم يستنكر القوم خفة هودجي حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت العِقد بعد أن استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ، فيما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطّل من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي، واللَّه ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول.

---

(١) الحِفاف: إزالة ما على الوجه من شَعَر زائد كشعر الشارب واللحية للمرأة.

قالت عائشة رضي اللّه عنها: فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كِبْر الإفك عبدَ اللّه ابنَ أبي بنَ سَلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، ومما يَريبني في وجعي أني لا أعرّف من رسول اللّه ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعد ما نقهت فخرجت معي أم مِسْطح قِبَل المناصع وهو متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، فانطلقت أنا وأم مسطح ثم رجعت أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاًشهد بدراً؟ قالت: أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال؟، قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول اللّه ﷺ، فقلت أتأذن لي أن آتيَ أبويَّ قالت: فأذن لي رسول اللّه ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنيه هوني عليك، فو اللّه لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان اللّه أو لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي.

فدعا رسول اللّه ﷺ علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد رضي اللّه عنهما حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله، فأما أسامة فقال: يا رسول اللّه، أهلك وما نعلم إلا خيراً، وأما علي فقال: يا رسول اللّه، لم يضيق اللّه عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسألِ الجارية تصدقْك.

فدعا رسول اللّه ﷺ بَريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يَريبك؟ قالت: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدواجن فتأكله.

فقام رسول اللّه ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد اللّه ابن أبي بن سلول، فقال رسول اللّه ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فو اللّه ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي.

قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً يظنان أن البكاء فالقّ كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول اللّه ﷺ فسلّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس

عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يُوحَى إليه في شأني.

قالت: فتشهد رسول اللَّه ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة: فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك اللَّه، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري اللَّه وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه، فلما قضى رسول اللَّه ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب رسول اللَّه ﷺ فيما قال، قال: واللَّه ما أدري ما أقول لرسول اللَّه، فقلت لأمي: أجيبي رسول اللَّه، قالت: ما أدري ما أقول لرسول اللَّه ﷺ.

فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني واللَّه لقد علمت أنكم قد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة ـ واللَّه يعلم أني بريئة ـ لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر واللَّه يعلم أني منه بريئة لتصدقني، واللَّه ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن اللَّه مبرئي ببراءتي، ولكن و اللَّه ما كنت أظنّ أن اللَّه منزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم اللَّه فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول اللَّه ﷺ في النوم رؤيا يبرئني اللَّه بها، قالت: فو اللَّه ما رام رسول اللَّه ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه، فلما سُرِّي عن رسول اللَّه ﷺ سري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: يا عائشة، أما اللَّه فقد برأك، فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: واللَّه لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا اللَّه عزّ وجلّ، وأنزل اللَّه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١ ـ ٢٠].

المستفاد من حادث الإفك:

هذا هو حادث الإفك الذي كان ابتلاء صعباً لعائشة رضي اللّه عنها، كما أنه كان ابتلاء للنبي ﷺ في عائشة أحب أزواجه إليه، كشف هذا الحادث عن مبلغ تصبرها وتجلدها الذي تحلت به وعمق الإيمان الذي اعتصمت به، وما بعد الصبر والإيمان إلا النصر والفرج.

لقد رفع اللّه جلّ جلاله قدر عائشة رضي اللّه عنها وأعظم شأنها، وصار لها ذكرٌ ببراءتها، قال عروة بن الزبير: لو لم يكن لعائشة رضي اللّه عنها من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلاً وعلو مجد، فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة.

موقف أمهات المؤمنين:

ولقد كان موقف أمهات المؤمنين عظيماً هو الآخر حين عصمهن اللّه تعالى من التقول في حق من يعرفن أنها أحب الناس إلى قلب النبي ﷺ.

ونذكر هنا موقف أم المؤمنين زينب بنت جحش، وهي التي كانت تساميها في منزلتها، سألها النبي ﷺ عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها. قال لها: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول اللّه، أحمي سمعي و بصري، واللّه ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة رضي اللّه عنها ممتدحة موقفها: وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها اللّه بالورع.

طمأنينة وثبات:

وفي قول عائشة رضي اللّه عنها: وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ.. ما يدل على طمأنينة قلبها وثبات يقينها، وهذه الطمأنينة هي التي جعلتها لا تغادر مكانها، و في ذلك غاية الحكمة؛ لأنهم حين يفتقدونها لا شك أنهم سوف يأتون لإحضارها، وفي هذا درس بليغ لكل مسلمة كيف تحسن التصرف، وكيف تواجه الأزمات، وكيف تتعامل مع مثل هذه الأمور.

فوائد جامعة:

قال ابن حجر: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز تحلي المرأة في السفر بالقلادة ونحوها، وصيانة المال ولو قلّ؛ للنهي عن إضاعة المال، فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر.

وفيه: شؤم الحرص على المال؛ لأنها لو لم تطل في التفتيش لرجعت بسرعة، فلما زاد على قدر الحاجة أثر ما جرى.

وفيه: الاسترجاع عند المصيبة، وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي، وإغاثة الملهوف، وعون المنقطع، وإنقاذ الضائع، وإكرام ذوي القدر وإيثارهم بالركوب، وتجشم المشقة لأجل ذلك، وحسن الأدب مع الأجانب خصوصاً النساء لاسيما في الخلوة، والمشي أمام المرأة ليستقر خاطرها، وتأمن مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي.

وفي الحديث كذلك: ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضي النقص وإن لم يتحقق، وفائدة ذلك أن تتفطن لتغيير الحال فتعتذر أو تعترف، وأنه لا ينبغي لأهل المريض أن يعلموه مما يؤذي باطنه لئلا يزيد ذلك في مرضه.

وفيه: السؤال عن المريض، وإشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة، وفيه: أن المرأة إذا خرجت لحاجة تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن منه عليها.

وفيه: ذب المسلم عن المسلم خصوصاً من كان من أهل الفضل، وردع من يؤذيهم ولو كان منهم بسبيل.

وفي الحديث: توقف خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها ولو كان الخروج إلى بيت أبويها.

وفيه: التثبت في الشهادة، وفيه: مساعدة من نزلت فيه كارثة بالتوجع والبكاء والحزن، وأن الصبر تحمد عاقبته ويغبط صاحبه.

وفيه: تبشير من تجددت له نعمة أو اندفعت عنه نقمة.

وفيه: الضحك والاستبشار عند ذلك، وإدلال المرأة على زوجها وأبويها.

وفيه: أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج، وفضل من يفوض الأمر لربه جلّ جلاله، وأن من قوى على ذلك خف عنه الهم والغم.

ما نقل في سَعة علمها وفقهها:

ونقل هنا بعضاً من أقوال العلماء والتابعين في سعة علمها وفقهها. قال عروة بن الزبير: قلت لعائشة: إني أفكر في أمرك فأعجب!!! أجدك من أفقه الناس، فقلت: ما يمنعها؟؟ زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر، وأجدك عالمةً بأيام العرب وأنسابها وأشعارها، فقلت: وما يمنعها؟ وأبوها علامة قريش؟

ولكن أعجب أني أجدك عالمة بالطب فمن أين؟ فأخذت بيدي، وقالت: يا عروة، إن رسول الله ﷺ كثرت أسقامه، فكان أطباء العرب والعجم يبعثون له، فتعلمت ذلك.

وقال الزُّهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء؛ لكان علم عائشة

أفضل، وقال الإمام الذهبي: ولا أعلم في أمة محمد ﷺ، بل ولا في النساء مطلقاً امرأة أعلم منها.

ولقد أمر الله عز وجل النساء من أزواج النبي ﷺ بوجوب تبليغ ما يجري في بيوتهن للنساء، بل أمر الأمة بقبول خبرهن، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] يقول ابن العربي في هذه الآية: أمر الله أزواج رسوله ﷺ بأن يخبرن بما أنزل الله من القرآن في بيوتهن، وما يرين من أفعال النبي ﷺ وأقواله فيهن، حتى يبلغ ذلك إلى الناس، فيعملوا بما فيه ويقتدوا به، وهذا يدل على جواز قَبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدين.

وقد تهتم المسلمة بالعلم والاطّلاع حتى إذا ما تزوجت، انقطعت وصرفتها شواغل البيت وأعباء الأمومة عن هذا الواجب، أمّا المسلمة الواعية هَدْيَ دينها فلا يمكن أن تنقطع عن المطالعة النافعة والتحصيل المثمر مهما تراكمت عليها الشواغل والأعباء.

وفي ساحات الجهاد!!

ومن فضائلها رضي اللّه عنها: مشاركتها في غَزَوات الرسول ﷺ، وكانت أول غزوة شاركت فيها غزوة أحد، قال أنس بن مالك رضي اللّه عنه: لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سُليم، وإنهما لمشمرتان، ـ أرى خدم ـ خلخال سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواههم، ثم ترجعان فتملآنهما، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ثم كانت مشاركتها في غزوة الأحزاب، وفي السنة السادسة للهجرة خرجت رضي اللّه عنها لتكون في عداد الجيش المنطلق إلى المريسيع لغزو بني المصطلق، وفي هذه الغزوة وقعت حادثة الإفك حيث حملت أبلغ درس في التربية الإيمانية للمسلمين جميعاً.

سخاء وجود:

ومن فضائلها رضي اللّه عنها: أنها كانت من أكرم أهل زمانها، ولا عجب فقد أنفق أبوها رضي اللّه عنه ماله كله في سبيل اللّه سبحانه وتعالى ثم تزوجت إلى من هو أجود من الريح المرسلة ﷺ، فكيف لا تكون سخية منفقة، وقد تربت على هذه الأخلاق الطيبة.

ذكر عروة بن الزبير قال: لقد رأيت عائشة رضي اللّه عنها تقسم سبعين ألفاً، وإنها لترقع جيب درعها!! وعن عروة عن أبيه قال: بعث معاوية رضي اللّه عنه إلى عائشة رضي اللّه عنها بمِائة ألف، فواللّه ما غابت الشمس عن ذلك اليوم حتى فرقتها؟! قالت مولاة لها: لو اشتريت لنا من هذه الدراهم بدرهم لحماً، فقالت: لو قلت قبل أن أفرقها لفعلتُ!!!

وعن أم ذرة ـ وكانت تغشى عائشة ـ قالت: بعث إليها بمال في غرارتين قالت: أراه ثمانين أو مِائة ألف، فدعت بطبق، وهي يومئذ صائمة، فجلست تقسم بين الناس، قامت وما عندها من ذلك درهم، فلما أمست قالت: يا جارية هلمي افطري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم ذرة: أما استطعتِ مما قسمت اليوم أن تشتري لنا لحماً بدرهم نفطر عليه؟! قالت: تعنفينني لو كنت ذكرْتِني لفعلت!!!

إنها رضي اللّه عنها جمعت إلى كرمها زهداً جميلاً، وصفها أبو نُعيم في الحلية: كانت للدنيا قالية، (مُبْغضة) ولسرورها لاهية، وعلى فقد أليفها باكية، هذا هو الزهد الجميل الذي اتصفت به عائشة رضي اللّه عنها، زهدُ الواجدين لا زهدُ الفاقدين.

عبادتها:

ولقد كانت رضي اللّه عنها آيةً في العبادة والطاعة، فقد تأثرت كثيراً بعبادة سيد الأولين والآخرين ﷺ، تصوم بصيامه وتقوم بقيامه، فقد ورد عنها أنها كانت تصوم حتى يذلقها ـ يجهدها ويضعفها ـ الصوم!! وقال عروة بن الزبير رضي اللّه عنه: كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة فأسلم عليها، فغدوت يوماً، فاذا هي نائمة تسبح وتقرأ وتدعو وتبكي؟ فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فاذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي وكانت تقول: لو رأيت ليلة القدر ما سألت اللّه إلا العفو والعافية.

إيثار جميل!!

ومن فضائلها رضي اللّه عنها: إيثارها الغيرَ على نفسها، فقد آثرت عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه لأن يدفنَ مع النبي ﷺ وأبي بكر الصديق رضي اللّه عنه، قال عمر رضي اللّه عنه لابنه عبد اللّه: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست للمؤمنين اليوم أميراً!!! وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عمر بن الخطاب عليك السلام ويستأذن أن يدفن بجانب صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي!!!!

عاشت بعد الحبيب ﷺ قريباً من خمسين سنة! فما معنى هذا؟

معناه: أن اللّه اختارها لتبلغ كثيراً من أحكام هذا الدين، أطول مدة ممكنة، بعد وفاة النبي ﷺ. باعتبار أنها رضي اللّه عنها كانت معه نحو تسع سنين منذ بنى بها بالمدينة المنورة حتى لحق بالرفيق الأعلى وكانت ذات استعداد عظيم ودراية ورواية فوعت عنه ﷺ كثيراً.

وروت عنه ﷺ ما وعت، وأضافت إليه شروحاً مما فهمته، وما اجتهدت فيه فكانت بذلك إماماً عظيماً من أئمة هذا الدين العظيم، شاركت في تبليغ الكثير من أبواب هذا الدين.

وانفردت من دون الأئمة الاعلام كأمثال ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة، رضي اللّه عنهم بأبواب من الدين، لا سبيل لهم إليها، وإنما هو اختصاصها، وهي الأستاذ الأول فيه، وذلك ما يختص بأحكام النساء، حيث كانت هي الزوجةَ، وكانت بحكم موقعها ذاك وحداثة سنها ورجاحة عقلها وسرعة فهمها، مؤهلةً لتقوم بهذا الدور الكريم في حياة الأمة الإسلامية العظيمة!!!

كان علمها بحراً ممدوداً:

وقالوا: وروت عن النبي ﷺ كثيراً.

روى عنها عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وكثير من الصحابة ومن التابعين رضي اللّه عنهم ما لا يحصى.

أقول: كانت علومها رضي اللّه عنها بحراً ممدوداً وكيف لاتكون كذلك؟ وعندها الاستعداد والإمداد على قدر الاستعداد؟!

لقد كانت تأخذ رأساً من رسول اللّه ﷺ بدون واسطة أحد من الرواة.

نقلت إلى الأمة أعز ما يعني الناس من أمور دينهم، نقلت إلى الأمة حياة النبي ﷺ الخاصة.

وما لم يطلع عليه أحد إلا هي وهي معه ﷺ في تهجده، في نومه، في فراشه، في بيته!!!

وهي التي نقلت إلى الأمة، تفاصيل اللحظات المقدسة من حياته الشريفة ﷺ لحظات المرض الأخير، ولحظات سكَرات الموت، وآخر كلامه ﷺ!!! أي ثروة هي أعظم؟!! وأي تراث هو أغلى مما نقلت إلينا أم المؤمنين رضي اللّه عنها.

فرضي اللّه عنك وأرضاك يا ابنة صديق نبي هذه الأمة، ويا زوجَ سيد الكائنات محمد ﷺ، يا معلمةَ الأجيال، ويا أستاذة العلماء، سلام عليك في الأولين، وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك في عليين، وحشرنا ربي معك تحت ظل عرشه مع حبيبه ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ، يوم لا ظلَّ إلا ظله.. آمين.

أمُّ المُؤمنينَ
السَّيِّدةُ حَفْصَةُ بنتُ عُمَرَ بنِ الخطابِ
رضيَ اللَّهُ عنْهما

مولدها ونسبها:

ولدت حفصة رضي اللَّه عنها قبل بعثة الرسول ﷺ بخمس سنين، في وقت كانت قريش تبني فيه الكعبة المشرفة حرسها اللَّه.

والدها:

أما أبوها فهو: عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه بن نُفيل بن عبد العزى بن رِياح بن عبد اللَّه بن قُرط بن عدي بن كعب بن لؤي.

أمها:

وأما أمها فهي: زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن جذافة بن جمح.

أخوها:

وأما أخوها فهو: عبد اللَّه بن عمر لأبيه وأمه رضي اللَّه عنهم جميعاً.

زواجها قبل النبيِّ ﷺ:

تزوجت قبل رسول اللَّه ﷺ من خُنَيْس بن حُذافة السهمي، وقد شهد بدراً، وأصابته جراح، فهاجر بحفصة إلى المدينة، ومات متأثراً بجراحه، وقيل إن إصابته كانت بأُحد، لكن الأول أشهر.

زواجها من النبيِّ ﷺ:

ثم تزوجها رسول اللَّه ﷺ على رأس ثلاثين شهراً من مهاجَره على القول الأول، وبعد أُحُد على القول الثاني.

عرضُ عمرَ حفصةَ على عثمانَ وأبي بكرٍ رضي اللَّه عنهم بعد وفاة زوجها خنيس!

روى البخاري في باب عرض الإنسان ابنتَه أو أخته على أهل الخير، عن ابن شهاب قال: (أخبرني سالم بن عبد اللَّه: أنه سمع عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه

عنهما يحدث: أن عمر بن الخطاب، حين تأيمت حفصة بنت عمر من خُنيس بن حُذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول اللّه ﷺ، فتوفي بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي ثم لقيني فقال: قد بَدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر الصدّيق، فقلت: إن شئتَ زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليّ شيئاً، وكنت أوجَدَ عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول اللّه ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبوبكر فقال: لعلك وجَدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: قلت: نعم، قال أبوبكر: فإنه لم يمنعني أن أرجعَ إليك فيما عرضت علي، إلا أني كنت علمت أن رسول اللّه ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشيَ سرَّ رسول اللّه ﷺ، ولو تركها رسول اللّه ﷺ قبلتها)(١).

وجاء في طبقات ابن سعد: عن عمر رضي اللّه تعالى عنه قال: (لما توفي خنيس بن حذافة، عرضتُ حفصة على عثمان، فأعرض عني، فذكرت للنبي ﷺ فقلت: يا رسول اللّه، ألا تعجب من عثمان، إني عرضت عليه حفصة، فأعرض عني فقال رسول اللّه ﷺ: (قد زوج اللّه عثمانَ خيراً من ابنتك، وزوج ابنتك خيراً من عثمان). قال: وكان عمر عرض حفصة على عثمان متوفًى رقية بنت رسول اللّه ﷺ، وكان عثمان يريد يومئذ أم كلثوم بنت رسول اللّه ﷺ، فأعرض عثمان عن عمر لذلك، فتزوج رسول اللّه ﷺ حفصة وزوَّج أم كلثوم من عثمان)(٢).

وقت زواجها من النبي ﷺ:

وجاء في تاريخ ابن أبي خيثمة عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، وقال: (تزوجها رسول اللّه ﷺ سنة اثنتين من الهجرة بالمدينة)(٣).

وقال الزهري: (أخبرني رجل من بني سهم من أهل المدينة، أن رسول اللّه ﷺ تزوجها سنة ثلاث)(٤).

طلاق النبيّ ﷺ لها ومراجعتُها:

روى أبو داود وابن ماجهْ عن عمر بن الخطاب، والنسائي عن ابن عمر رضي اللّه عنهما: (أن رسول اللّه ﷺ طلق حفصة ثم راجعها)(٥).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم ٤٨٣٠.
(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٨٣ من طريق الواقدي.
(٣) ذكر في الاستيعاب ٤/ ١٨١١، وأسد الغابة ٧/ ٦٥، والإصابة ٧/ ٥٨٢.
(٤) ذكره البلاذري ٤٢٢ و٤٢٨، والذهبي جزم به في السير ٢/ ٢٢٧.
(٥) جامع الأصول ١١/ ٤٠٩، تحفة الأشراف ٨/ ٤٢ والطبراني في الكبير ٢٣/ ١٨٧.

وروى ابن أبي خيثمة والطبراني عن قيس بن الزبير: أن رسول اللّه ﷺ طلّق حفصة بنت عمر، فدخل عليها خالاها قدامة وعثمان ابنا مظعون، فبكت وقالت: واللّه ما طلقني عن شِبَع[١]، فجاء رسول اللّه ﷺ فتجلببت[٢] فقال: (قال لي جبريل: راجع حفصة، فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة)[٣].

وعن أنس رضي اللّه عنه: أن رسول اللّه ﷺ طلق حفصة تطليقة، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد طلقت حفصة وهي صوامة قوّامة، وهي زوجتك في الجنة)[٤].

وأورد أبو نُعيم في حِلية الأولياء وأخرج الطبراني في الكبير، عن عقبة بن عامر رضي اللّه عنه قال: (طلّق رسول اللّه ﷺ حفصة، فبلغ ذلك عمرَ، فحثا على رأسه التراب، وقال: ما يعبأ اللّه بعمر وابنته بعدها، فنزل جبريل على النبي ﷺ من الغد وقال: إن اللّه تعالى يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر)[٥].

توعد عمر رضي اللّه عنه بمقاطعتها:

وأورد ابن حجر في الإصابة: أن عمر بن الخطاب دخل على ابنته حفصة فوجدها تبكي فقال لها: (لعلّ رسول اللّه ﷺ قد طلقك؟ إن كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، فإن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً)[٦].

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال:

تحريم النبي ﷺ ماريّة على نفسه استرضاء لها:

(كانت حفصة وعائشة متحابتين، وكانتا زوجتي النبي ﷺ، فذهبت حفصة إلى أبيها فتحدثت عنده، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته ـ مارية ـ فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم الذي يأتي فيه حفصة، فرجعت حفصة فوجدتهما في بيتها، فجعلت تنتظر خروجهما، وغارت غيرة شديدة، فأخرج رسول اللّه ﷺ جاريته، ودخلت حفصة، فقالت: قد رأيت من كان عندك، واللّه لقد سؤتني. فقال النبي

---

(١) شبع: ذكر ابن الأثير في النهاية، من معانيها النقص والعيب، وفي السمط الثمين: عن (سبع) بالسين المهملة.
(٢) في السمط ٨٧ (فتجليت) تصحيف، ومعنى تجلببت: تحجبت، لأنها مطلقة.
(٣) أخرجه ابن سعد ٨/ ٨٤، والحاكم ٤/ ١٥، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٥٠.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٥، والطبراني في الأوسط بأطول منه.
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/ ١٨٨، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٥٠ ـ ٥١.
(٦) ذكره ابن حجر في الإصابة ٨/ ٥٢، والاستيعاب ٤/ ١٨١٢.

ﷺ: (واللّه لأرضينك، فإني مسِرّ إليك سراً فاحفظيه) قالت: ما هو؟ قال: (إني أشهدك أن سُرِّيَّتي هذه حرام عليَّ رضاً لك).

وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبي ﷺ، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فأسرَّت إليها: أن أبشري، إن رسول اللّه ﷺ قد حرَّم عليه فتاته.

فلما أخبرت بسرّ النبيّ ﷺ أظهر اللّه النبيّ ﷺ عليه، فأنزل اللّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾[1] [التحريم: ١].

وقد أورد البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، تفسير هذه الآية عن سعيد ابن جبير: أن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال في الحرام: يُكفِّر. وقال ابن عباس: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2].

وعن عبيد بن حنين: أنه سمع ابن عباس رضي اللّه عنهما يحدث أنه قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة لها، قال فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت: يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصة وعائشة، قال: فقلت: واللّه إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبة لك، قال: فلا تفعل، ماظننتَ أن عندي من علم فاسألني، فاسألني، فإن كان لي علم خبرتك به، قال ثم عمر: واللّه إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً، حتى أنزل اللّه فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم، قال: فبينا أنا في أمرٍ أتأمره إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال: فقلت لها: ما لك ولما ها هنا، فيما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت لي: عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تراجَع أنت، وإن ابنتك لتراجِع رسول اللّه ﷺ حتى يظل يومه غضبانَ، فقام عمر، فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول اللّه ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: واللّه إنا لنراجعه، فقلت: تعلمين أني أحذِّرك عقوبة اللّه، وغضبَ رسول اللّه ﷺ، يا بنية لا تغرنَّك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول اللّه ﷺ إياها، يريد عائشة، قال: ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها، فقالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب، دخلت في كل شيء، حتى تبتغي أن تدخل بين رسول اللّه ﷺ وأزواجه، فأخذتني واللّه أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد، فخرجت من عندها، وكان لي صاحب من

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ١٥٧. والسيوطي في الدر المنثور ٨/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٤٦٢٧.

الأنصار، إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان، ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول اللّه ﷺ أزواجه، فقلت: رغم أنف حفصة وعائشة، فأخذت ثوبي فأخرج حتى جئت، فإذا رسول اللّه ﷺ في مَشْرَبة له، يرقى عليها بعجلة وغلام لرسول اللّه ﷺ أسود على رأس الدرجة، فقلت له: قل هذا عمر بن الخطاب، فأذن لي، قال عمر: فقصصت على رسول اللّه ﷺ هذا الحديث، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسَّم رسول اللّه ﷺ، وإنه لَعلى الحصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أَدَم حشوها ليف، وإن عند رجليه قَرَظاً مصبوباً، وعند رأسه أُهُب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: ما يبكيك، فقلت: يا رسول اللّه، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول اللّه، فقال: (أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة)[١].

اعتدادها بنفسها:

وكانت حفصة رضي اللّه عنها معتدة بنفسها، ولا ترى بين ضرائرها من ترقى لمنزلتها أو حتى تستطيع منافستها، مما جعلها لا تتحرج من أن تعارض زوجها النبي ﷺ، في بعض الأحيان، وفي أحد مجالسه عندها ذكر أصحابه الذين بايعوه تحت الشجرة بالحديبية فقال: (لا يدخل النار إن شاء اللّه أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها). قالت حفصة: بلى يا رسول اللّه!!. فانتهرها، فتلت الآية الكريمة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

فقال النبي ﷺ: قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

تسامح النبي ﷺ معها لمكانة أبيها:

وكان مما يشفع لها عند النبي ﷺ أنوثتها الضعيفة، وبنوَّتها لأعز أصحابه، وكفى بهذين الأمرين أن يستثيرا رحمته ويستدرا عطفه عليها.

وروى الهيثم بن كليب[٢] عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: قال النبي ﷺ لحفصة: لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم عليَّ حرام، فقالت: أتحرم ما

(١) رواه البخاري برقم ٤٦٢٩.

(٢) هو أبو سعيد بن سريج الشاشي التركي صاحب المسند الكبير.

أحلّ اللّه لك، قال: (فواللّه لا أقربها) قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأنزل اللّه تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ٢].

وروى سعيد بن منصور عن مسروق قال: (حلف رسول اللّه ﷺ لحفصة: لا يقرب أمَتَه، فقال: (هي عليَّ حرام) فنزلت الكفارة ليمينه، وأمر أن لا يحرِّم ما أحلَّ اللّه)[١].

وكان إفشاؤها لسرّ رسول اللّه ﷺ سبباً لأن يطلقها، ولكن اللّه من فوق سبع سماوات علم بما سيكون لطلاق ابنة عمر من تأثير في نفس أبيها، فأمر نبيَّه أن يرتجعها رحمة بعمر.

وقد أحست حفصة رضي اللّه عنها بوطأة ما فعلته، وفداحة الكرب الذي سبّبته لزوجها ﷺ وما خلّف في نفسه من الألم، لكن عفو رسول اللّه ﷺ عنها أعادها إلى الأمن والسكينة وتابعت رحلة الحياة مع أكرم الخلق ﷺ كأحسن ما تكون المرأة مع زوجها.

من شهد بدراً من أهلها:

وكان عدد من شهد بدراً من أهلها سبعةً وهم: عمر والدها، وزيد عمها، وخنيس زوجها قبل رسول اللّه ﷺ، وأخوالها الثلاثة: عثمان وعبد اللّه وقدامة بنو مظعون، وابن خالها السائب بن عثمان بن مظعون، رضي اللّه عنهم أجمعين.

ولمّا انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وخلفه أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه، اختيرت حفصة من بين أمهات المؤمنين، رضي اللّه عنهنَّ جميعاً، وعائشة بينهن - لتحفظ لديها أولَ مخطوط للقرآن الكريم جمع من الصحابة رضوان اللّه عليهم.

وبعد وفاة أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه، وتولّي ابيها عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه مقاليد الخلافة، شهد المسلمون أمجاد عمر ومآثره في فتوح الشام والعراق ومصر، وكانت حفصة بين الشهود، وأمضت ما تبقى لها من أيامها عابدة قانتة، تقوم الليل وتصوم النهار، معتزة بائتمانها على دستور المسلمين وكتابهم القويم ومصدر شريعتهم الرشيدة، وعقيدتهم المجيدة.

ولما طعن أبوها عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه على يد المجوسي (أبي لؤلؤة) سنة ثلاث وعشرين للهجرة في شهر ذي الحجة باتت حفصة الوصيةَ على تَركته، ثم أوصت إلى أخيها عبد اللّه بما أوصى إليها به عمر، وتصدقت بمال لها وقفته بالغابة، وهي موضع معروف بالمدينة من شمالها جهة الشام.

---

(١) فتح الباري: شرح الحديث ٤٩١٢.

عدد الأحاديث التي روتها عن النبي ﷺ:

وكانت رضي اللّٰه عنها أحد رواة الحديث عن رسول اللّٰه ﷺ، وقد ذكر الإمام النووي في تهذيبه بأن ما روي لها يبلغ ستين حديثاً، وروى عنها أخوها عبد اللّٰه بن عمر وغيره، منها: عن ابن عمر عن أخته حفصة: أن رسول اللّٰه ﷺ كان إذا سكت المؤذن من الأذان لصلاة الصبح، صلّى ركعتين خفيفتين قبل أن تقام الصلاة، كما ذكر في أسد الغابة لابن الأثير[١].

تاريخ وفاتها وعمرها:

وفي شهر شعبان سنة خمس وأربعين توفيت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة، وصلّى عليها مروان بن الحكم أمير المدينة، وحَمل سريرها بعض الطريق، ثم حمله أبو هريرة إلى قبرها. ونزل في حفرتها عبد اللّٰه وعاصم ابنا عمر، وسالم وعبد الرحمن وحمزة بنو عبد اللّٰه بن عمر، وقد بلغ عمرها ستين سنة يومئذ، كما جاء في طبقات ابن سعد، ومستدرك الحاكم.

وقد ذكر الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات، ما رواه ابن أبي خيثمة عن أنها ماتت سنة إحدى وأربعين للهجرة، أول ما بايع الحسن بن علي معاوية، في جُمادى الأولى. رحم اللّٰه أم المؤمنين حفصة وجعلها في مستقر رحمته وفسيح جنته، وجعلها في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) أسد الغابة: ترجمة حفصة بنت عمر رضي اللّٰه عنهما.

أمُّ المؤْمِنِيْنَ
زَينَبُ بنتُ خُزيمَةَ
رضيَ اللَّهُ عنها (أمُّ المسَاكين)

صاحبة الأمومتين: أم المؤمنين، وأم المساكين!!!

صاحبة الإطلالة والرحمة والشفقة، التي لم تهنأ في بيت النبوة سوى شهور عدة، حتى انتقلت قريرة العين، وأسلمت روحها للباري عزّ وجلّ وهي في رَيْعان الصبا والشباب.

زينب بنت خزيمة:

ابن الحارث بن عبد اللَّه بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، الهلالية[١].

وأمها:

هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة، الحميرية[٢].

(هند بنت عوف) التي قيل عنها: (ولا يعلم امرأة من العرب كانت أشرف أصهاراً من هند بنت عوف، أم ميمونة وأخواتها)[٣].

وتكون أمّاً للمؤمنين بعد حفصة بنت عمر رضي اللَّه عنه جميعاً:

لم يمضِ وقت طويل على دخول السيدة حفصة بنت عمر رضي اللَّه عنهما بيت النبوة حتى دخلته رابعةُ أمهات المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة زوجة كريمة

---

(١) راجع ترجمتها في السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٤٧)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٧٩)، والمحبر (٨٣) وجمهرة أنساب العرب (٢٢٦)، والسمط الثمين (١١٢) وعيون الأثر (٢/ ٣٠٢)، ولم يختلفوا في نسبها لأبيها كما صرح ابن عبد البر في الاستيعاب.

(٢) ذكره كذلك النسّابة: (أبو جعفر بن حبيب) في مبحث أسلاف رسول اللَّه ﷺ من قبل ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية، وقد أغفلته جميع النسب السابقة، بل نقل ابن عبد البر فيها قول أبي الحسن الجرجاني النسابة: (وكانت زينب بن خزيمة أخت ميمونة بنت الحارث ـ أم المؤمنين ـ لأمها.

(٣) المحبر (١٠٥ ـ ١٠٩)، والإصابة (٨/ ٩٥).

للرسول ﷺ، صاحبة الإطلالة والرحمة والشفقة بين نسائه ﷺ، فلم تكد تمضي شهوراً قليلة بينهن لا تتجاوز ثمانية شهورٍ[١]، حتى وافتها المنية وانتقلت إلى الرفيق الأعلى وهي لا تزال في ريعان الشباب بعمر لا يتجاوز الثلاثين عاماً،

وحين ماتت دفنت بالبقيع، فكانت أول زوجة من زوجات الرسول ﷺ تدفن في هذا المكان، وهي ثاني زوجة من زوجاته ﷺ تموت في حياته بعد السيدة خديجة بنت خويلد التي دفنت بالحجون في مكة.

زواجها قبل حبيب اللّه ﷺ:

هذا وقد تعددت الروايات فيمن كانت عنده قبل رسول اللّه ﷺ:

ففي عيون الأثر عن ابن عبد البر وابن سيد الناس والطبري في السمط الثمين ومما ذكر في ترجمتها بالإصابة والاستيعاب أنها كانت عند الطفيل بن الحارث فطلّقها، فخلف عليها النبي ﷺ.

وفي السيرة النبوية لابن هشام: إنها كانت عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وكانت قبله عند جهمة بن عمرو بن الحارث الهلالي، وهو ابن عمها.

وفي حكاية ابن عبد البر عنِ الزهري وابن حجر في الإصابة: إنها كانت عند عبد اللّه بن جحش فاستشهد في أُحد، فخلف عليها النبي ﷺ.

وعن ابن الكلبي: أنها كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فخلفه عليها أخوه فقتل في بدر، فخطبها رسول اللّه ﷺ.

وهكذا نرى بأنه قد تعددت الروايات والاجتهادات فيمن كانت عنده قبل النبي ﷺ والراجح واللّه أعلم: أنها كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، فخلفه عليها أخوه عبيدة بن الحارث، وقد استشهد رضي اللّه عنه في بدر، فخلفه رسول اللّه ﷺ.

وكذلك اختلفت الروايات مرة أخرى فيمن تولى زواجها من النبي ﷺ:

وفيما ذكر عن ابن هشام في السيرة النبوية: أنه زوجه إياها عمها: قبيصة بن عمر الهلالي، وأصدقها النبي ﷺ أربعمائة درهم.

وعن ابن الكلبي فيمن ذكره في الإصابة: أن رسول اللّه خطبها إلى نفسها فجعلت أمرها إليه فتزوجها.

---

(١) هذا ما ذكره ابن الكلبي.
وعن ابن حجر في الإصابة أنها لم تلبث عنده سوى شهرين أو ثلاثة وماتت.
وفي شذرات الذهب أنها عاشت عنده ثلاثة أشهر ثم توفيت. ـ واللّه أعلم ـ.

وفيما أتفقت عليه أكثر المصادر أنه ﷺ قد تزوجها في شهر رمضان سنة ثلاث للهجرة، فأقامت عنده عدة شهور وبعدها توفيت.

الطيّبة الكريمة العطوفة على الفقراء والمساكين:

وكذلك اتفق أغلب المؤرخين على وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء، ولا يكاد اسمها يذكر في أي كتاب مما ذكرناه إلا مقروناًبلقبها الكريم: (أم المساكين).

ومما ذكره ابن هشام في سيرته: (وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم)[١].

وكذلك مما ذكر في الاستيعاب والإصابة: (وكان يقال لها: أم المساكين، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم) ـ وكذلك غيره ـ[٢].

وذكر فضيلة الشيخ محمد المدني: (وكانت زينب بنت جحش رضي اللّه عنها هي أجودهن ـ أزواج النبي ﷺ ـ وأبرهن باليتامى والمساكين، حتى كانت تعرف بأمّ المساكين)[٣].

وتلحق بالرفيق الأعلى:

والراجح أنها ماتت في الثلاثين من عمرها كما ذكر (الواقدي) ونقل (ابن حجر) في الإصابة، ولم أقف على خبر عنها في حياتها الزوجية القصيرة، فحسبنا أن نتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج من النبي ﷺ وأمومة المؤمنين، منصرفة عن شواغل الحريم، بما كان يشغلها من أمر المساكين، قانعة بحظها من تقدير النبي ﷺ، والمؤمنين، لا يرهقها طمع ولا تنتهكها غيرة[٤].

وأسلمت روحها للباري عزّ وجلّ في سلام، كما عاشت هذه الفترة القصيرة بسلام، ويكفيها عزة وشرفاً أن رسول اللّه ﷺ قد صلّى عليها، وكذلك دفنها بالبقيع، فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين رضي اللّه عنهن.

فرحم اللّه أمَّنا زينب وجعلها في الخالدين في مقعد صدق عند مليك مقتدر إنه نعم المولى ونعم المجيب.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٩٦).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٣)، شذرات الذهب (١/ ١٠).

(٣) هذا ما ذكره في مقال له نشر بمجلة الرسالة العدد (٣٠١١) تاريخ ٤/ ٣/ ٩٦٥. والأرجح في قوله أن فضيلته قد أخطأ في التسمية بين زينب بنت جحش عوضاً عن زينب بنت خزيمة سهواً، وذلك أن جميع المصادر تثبت هذا الوصف لزينب بنت خزيمة ـ واللّه أعلم ـ.

(٤) نساء النبي ـ د. عائشة عبد الرحمن ـ ص (١٣٦).

أمُّ المؤمنينَ
السَّيدةُ (هندُ بنتُ أبي أميَّة) أمُّ سلمةَ
رضيَ اللَّهُ عنْها، القرشيَّةُ المخزوميّةُ

اسمها ونسبها:

اسمها: هند، وقيل: رملة، والأول أصح[١].

والدها:

أبو أمية سهيل بن المغيرة بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم بن يَقَظَة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكان أبوها يعرف بزاد الركب، فإذا سافر لم يكن يحمل أحد من رفقته زاداً، لأنه كان يكفيهم، وهو من أجود العرب المشهورين بالكرم!!!

أمها:

وأما أمها: فعاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن خزيمة بن علقمة بن فراس.

اخوتها:

عبد اللَّه وزهير، ابنا عمة رسول اللَّه ﷺ.

تزوجها أبو سلمة رضي اللَّه عنه قبل النبي ﷺ:

كانت ـ هند رضي اللَّه عنها ـ قبل زواجها من رسول اللَّه ﷺ، عند أبي سلمة بن عبد الأسد، والدته برة بنت عبد المطلب عمة رسول اللَّه ﷺ، وقد ولدت لأبي سلمة أربعة أولاد، ذكرين هما سلمة وعمر، وابنتين هما درة وزينب[٢].

شهد أبو سلمة رضي اللَّه عنه بدراً، وأصيب بسهم في عضده، ومكث يُداوى شهراً حتى بَرَأ جرحه، فبعثه رسول اللَّه ﷺ في هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من مهاجره إلى جبل قطن، ومعه مِائة وخمسون رجلاً، فغاب

(١) قاله ابن حزم في الجمهرة ١٤٦. وأبو عمر في الاستيعاب ٤/ ١٩٢٠، والنووي في التهذيب ٢/ ٣٦١.
(٢) أسد الغابة في ترجمة أم سلمة.

تسعاً وعشرين ليلة ثم عاد إلى المدينة حيث انتقض جرحه فمات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع للهجرة.

كان أبو سلمة رحمه الله أخَ النبي ﷺ من الرضاعة، أرضعتهما السيدة ثويبة، مولاة أبي لهب(١). وقد هاجر أبو سلمة مع زوجه هند إلى الحبشة الهجرتين، وهما أول من هاجر إلى الحبشة، وكانت الهجرة الأولى في رجب سنة خمس من المبعث، والثانية بعد عدة شهور، بعد رجوع المسلمين المهاجرين ظانين أن قريشاً أسلمت، إلا أن اشتداد أذاها للمسلمين جعل الرسول ﷺ يأذن لهم بالهجرة الثانية(٢).

وذكر نصر بن المغيرة قال: قال سفيان: أول مهاجرة من النساء أم سلمة(٣).

وعن مصعب بن عبد الله قال: أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة أم سلمة، ويقال: بل ليلى بنت حَثْمَة زوج عامر بن ربيعة(٤).

وكانت أم سلمة رضي الله عنها خير زوج لزوجها، وفيَّة، مطيعة، قائمة بحقوق زوجها خير قيام، شريكة له في فرحه وترحه، تركا خلفهما المال والوطن والأهل، وفرَّا بدينهما إلى الحبشة، بعيداً عن ظلم قريش وطغيانها وأذاها.

لحوق أبي سلمة بالرفيق الأعلى أمام النبي ﷺ وهو يعوده:

ولما انتكأ جُرح أبي سلمة رضي الله عنه، جاءه رسول الله ﷺ يعوده، وبحضوره ﷺ فارق أبو سلمة الحياة، فأغمض حبيب الله ﷺ عينيه بيديه الشريفتين ودعا له قائلاً: (اللَّهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المقربين، وأخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين).

إرشاد الحبيب ﷺ إلى ما يقال عند المصيبة:

وروى مسلم في صحيحه عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من مسلم تصيبه مصيبه فيقول: ما أمره الله: (إنا لله وإنا إليه راجعون. اللَّهم أجِرني في مصيبتي وأَخْلِف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها).

قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ. ثم إني قلتها. فأخلف الله لي رسول الله ﷺ.

---

(١) جمهرة أنساب العرب ١٣٤، نسب قريش ٣٣٧.
(٢) طبقات بن سعد ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٧.
(٣) سيأتي لاحقاً حديث لمسلم بهذا المعنى إن شاء الله تعالى.
(٤) نسب قريش ٣٣٧.

قالت: أرسل إليَّ رسول اللّه ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له. فقلت: إن لي بنتاً وأنا غيور. فقال: (أما ابنتها فندعو اللّه أن يغنيَها عنها، وأدعو اللّه أن يذهب بالغَيْرة)[١].

وكان من عادة المسلمين أن يتقدموا لخطبة من يموت في ساحة المعركة، حفظاً لزوجه وعياله، ولما انقضت عِدة أم سلمة، خطبها أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه، فرفضت في رفق، وتقدم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بعده فلقي مثل ما لقي صاحبه!! ولم تجد أمام مقالة المصطفى ﷺ غير القبول: وقد أبدلها اللّه خيراً من أبي سلمة. وتمَّ الزواج الميمون.

وفي حديث أبي بكر بن عبد الرحمن: فقالت: ما مثلي ينكح، أما أنا: فلا ولد فيَّ، وأنا غيور، وذات عيال، فسمع عمر بما ردت به على رسول اللّه ﷺ، فغضب لرسول اللّه ﷺ أشد ما غضب لنفسه حين ردته، فأتاها فقال: أنت التي تردين رسول اللّه ﷺ؟! قالت: يا ابن الخطاب، إن فيّ كذا وكذا. فأقبل رسول اللّه ﷺ إليها فقال: (أمَّا ما ذكرت أنك غَيْرى، فسأدعو اللّه فيذهب غيرتك، وأما ما ذكرت أنك مُصْبية، فإن اللّه سيكفيك صبيانك ـ وفي رواية: وأما العيال فإلى اللّه ورسوله ﷺ ـ وأما ما ذكرت أن ليس هاهنا أحد من أوليائك يزوجك، فإنه ليس أحد من أوليائك شاهد ولا غائب يكرهني.

وفي حديث أبي بكر في لفظ: (فإنه ليس أحد منهم شاهد ولا حاضر، إلا سيرضاني وأنا أكبر منه). فقال لابنها عمر[٢]: زَوِّج رسول اللّه ﷺ: (أما إني لن أنقصك مما أعطيت أختك فلانة). قال ثابت لابن أبي سلمة: ما كان أعطى فلانة؟ قال: أعطاها جرَّتين تجعل فيهما حاجتها، ورحابتين، ووسادة حشوها ليف. ثم انصرف عنها، ثم أتاها الثانية وهي ترضع زينب، فلما رأته مقبلاً جعلت الصبية في حجرها.

قالت: وكان رسول اللّه ﷺ حيياً فرجع.

قال عمر: فجاء عمار بن ياسر حتى انتزعها من حجرها. وفي لفظ ففطن لذلك عمار بن ياسر، ـ وكان أخاها لأمها ـ فانتشط زينب من حجرها، فقال:

---

(١) رواه مسلم برقم ٩١٨/ ٣.

(٢) كلمة (لابنها) موجودة في رواية النسائي بسند صححه الحافظ في الإصابة عند ترجمة أم سلمة رضي اللّه عنها، إلا أن الحافظ المزني قال: بأن الصحيح (قم يا عمر)، وإنها أكثر الروايات في المسند وغيره، وأن لفظة (ابنها) وقعت من بعض الرواة ظناً من أن المقصود هو ابنها (عمر) قال: ويدل على ذلك أن ابنها عمر كان صغير السن. (جِلاء الأفهام/ ١٩٧).

هاتي ـ وفي لفظ: دعي عنك ـ هذه المشقوحة التي منعت رسول اللّه ﷺ. ثم أتاها رسول اللّه ﷺ، فجعل يقلب بصره في البيت، فلم يرَ الصبية في حجرها ـ وكان اسمها زينب ـ فقال: (أين زُنابُ؟) فقالت: جاء عمار فأخذها).

وفي حديث أبي بكر رضي اللّه عنه: فقال رسول اللّه ﷺ: (إني قد آتيكم الليلة). قالت: فوضعت ثغالي[١]، وأخرجت حبات من شعير كانت في جرن، وأخذت شحماً فعضدته به، فبات ثم أصبح فقال حين أصبح: (إن لك على أهلك كرامة، فإن شئت سبّعتِ، وإن أسبّعْ لك أسبّع لنسائي).

قال عمر رضي اللّه عنه: فدخل رسول اللّه ﷺ على أهله، فكانت في النساء كأنها ليست منهن، ولا تجد من الغيرة شيئاً)[٢].

الزوج الصادق يطلب من زوجه أن تتزوج بعد موته!!

وأورد ابن سعد في طبقاته عنها: قالت: قلت لأبي سلمة: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها ـ وهو من أهل الجنة وهي من أهل الجنة ـ ثم لم تتزوج بعده، إلا جمع اللّه تعالى بينهما في الجنة، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها، فتعال أعاهدك أن لا تتزوج بعدي و لا أتزوجَ بعدك. قال: أتعطينني؟ قالت: ما أستأمرك إلا وأنا أريد أن أعطيك. قال: فإذا أنا مت فتزوجي، ثم قال:

اللّهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني، لا يحزنها ولا يؤذيها. قالت: فلما مات، قلت: من هذا الذي هو خير لي من أبي سلمة؟ فلبثت ما لبثت، فجاء رسول اللّه ﷺ فقام على الباب...[٣].

حبيب اللّه ﷺ يبدأ بأمّ سلمة إذا ما دار على نسائه:

وكان رسول اللّه ﷺ يخصص أم سلمة من دون غيرها في بعض الأحوال ويبتدئ بها إذا دار على نسائه رضي اللّه تعالى عنهن:

وقد روى الإمام أحمد عن موسى بن عقبة عن أمه عن أم كلثوم قالت: لما تزوج رسول اللّه ﷺ أم سلمة قال لها: (يا أم سلمة إني قد أهديت النجاشي حُلَّةً وأواقيَّ من مِسك، ولا أرى النجاشي إلا قد مات، ولا أرى هديتي إلا مردودة عليَّ، فإن ردت عليَّ فهي لك).

فكان كما قال رسول اللّه ﷺ، وردت عليه هديته، فأعطى كل واحدة من

---

(١) ثغالي: الثغال: ما فرش تحت الرحى، أو الرحى نفسها.

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/ ٣١٣ ـ ٣١٤ ـ ٣١٧، وصححه الحافظ في الإصابة ٨/ ٤٢٣.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٨٨.

نسائه أوقية مسك وأعطى أم سلمة بقية المسك والحلة)[١].

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: (كان رسول اللّه ﷺ إذا صلى العصر، دخل على نسائه واحدة واحدة، يبدأ بأم سلمة لأنها أكبرهن، وكان رسول اللّه ﷺ يختم بي)[٢].

وسامُ شرف من سيد الأنام ﷺ لأم سلمة:

عن أم سلمة رضي اللّه عنها قالت: (أغدق رسول اللّه ﷺ على عليّ وفاطمة والحسن والحسين رضي اللّه عنهم خميصة سوداء ثم قال: (اللّهم إليك لا إلى النار، أنا وأهل بيتي) قالت: قلت: وأنا يا رسول اللّه، قال: (وأنت)[٣].

وعن أبي الحسن الخلعي أنّ عمرو بن شعيب دخل على زينب بنت أبي سلمة فحدثته: أن رسول اللّه ﷺ كان عند أم سلمة، فجعل حسناً في شق، وحسيناً في شق، وفاطمة في حجره وقال: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، وأنا وأم سلمة جالستان، فبكت أم سلمة، فقال: (ما يبكيك؟) قالت: يا رسول اللّه خصصتهم وتركتني وابنتي. فقال رسول اللّه ﷺ:

(إنك وابنتك من أهل البيت)[٤].

السيدة أم سلمة تُنقذ الأمة من محنة قاسية:

وعن عبيد بن عمير قال: قالت أم سلمة: (لما مات أبو سلمة قلت: غريب وفي أرض غربة، لأبكينه بكاء يُتحدث عنه. فكنت قد تهيأت للبكاء عليه، إذ أقبلت امرأة من الصعيد تريد أن تسعدني، فاستقبلها رسول اللّه ﷺ وقال: (أتريدين أن تدخلي الشيطان بيتاً أخرجه اللّه منه مرتين. فكففت عن البكاء فلم أبك)[٥].

وروى الشيخان عن أم سلمة، قالت: قلت: يا رسول اللّه! هل لي أجر في بني أبي سلمة؟ أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بنيَّ. فقال: (نعم، لك فيهم أجر ما أنفقت عليهم)[٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/ ٤٠٤ والطبراني في الكبير ٢٥/ ٨١، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦/ ٢٧، وابن سعد في الطبقات ٨/ ٩٥.

(٢) كذا عزاه المحب الطبري إلى عمر الملاء في السمط الثمين/ ١٠٧، والذي في الصحيح (إذا انصرف من العصر دخل على نسائه. . .) دون تحديد الأولى أو الآخِرة (البخاري ٤٩١٨).

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٩٦ و٦/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ومجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٦٦.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢، والسمط الثمين ١٠٦ ـ ١٠٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١/ ١٧٢.

(٥) رواه مسلم في الجنائز ٩٢٤.

(٦) رواه مسلم برقم ١٠٠١.

وعن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول اللّه! إني امرأة أشد ضَفْر رأسي، فأنقضه لغسل الجنابة؟ قال: (لا) إنما يكفيك أن تحثي على رأسك ثلاث حَثَياتٍ، ثم تفيضين عليك الماء فتطهرين)[١].

كانت أم سلمة رضي اللّه عنها جزلة الرأي، ولو لم يكن لها من الفضل إلا شَوْرها على رسول اللّه ﷺ بالحلق في قصة الحديبية، حين امتنع منه أكثر الصحابة، لكفاها، وقد روى النجدي والإمام أحمد عن المسْورِ بن مخرمة ومروان، يصدق كل منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول اللّه ﷺ زمن الحديبية، حتى كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: (إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين. فو اللّه ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقُتْرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يُهبَط عليهم منها، بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فألحت، فقالوا خلأت القصواء، فقال النبيّ ﷺ: (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل!). ثم قال: (والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات اللّه إلا أعطيتهم إياها). ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزلت بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلمْ يلبث به الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول اللّه ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فو اللّه ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذا جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عَيبةَ نصح رسول اللّه ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال رسول اللّه ﷺ: (إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جُموا، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تتفرد سالفتي، وليُنْفِذَنَّ اللّه أمرَه). فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، قال: فانطلق حتى أتى قريشاً قال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبيّ ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أيْ قوم، ألستم بالوالد؟

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٣٠.

قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عُكاظ، فلمّا بلَّحوا عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرضَ لكم خطة رُشد، اقبلوها ودعوني آتيه، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبيّ ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أيْ محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى، فإني واللّه لأرى وجوهاً، وإني لأرى أوشاباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصُصْ ببظْر اللات، أنحن نفِرُّ عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبوبكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبيّ ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبيّ ﷺ ومعه السيف وعليه المِغْفَر، فلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبيّ ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول اللّه ﷺ، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أيْ غُدَرُ، ألست أسعى في غَدْرتك، وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبيّ ﷺ: (أما الإسلام فأقبلُ، وأما المال فلستُ منه في شيء). ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبيّ ﷺ بعينيه، قال: فو اللّه ما تنخم رسول اللّه ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: (أي قوم، واللّه لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، واللّه ما تنخم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا ائته، فلما أشرف على النبيّ ﷺ وأصحابه، قال رسول اللّه ﷺ: (هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له). فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان اللّه، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم، يقال له (مِكْرَزُ بن حفص). فقال: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم. قال النبيّ ﷺ: (هذا مِكْرَزُ، وهو رجل فاجر) فجعل يكلم النبيّ ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

قال معمر: فأخبرني أيوب، عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل بن عمرو: قال

النبي ﷺ: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبيّ ﷺ: (بسم اللّه الرحمن الرحيم). قال سهيل: أما الرحمن فواللّه ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللّهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: واللّه لا نكتبها إلا بسم اللّه الرحمن الرحيم، فقال النبيّ ﷺ: (اكتب باسمك اللّهم). ثم قال: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللّه). فقال سهيل: واللّه لو كنا نعلم أنك رسول اللّه ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد اللّه). قال الزهري: وذلك لقوله: (لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات اللّه إلا أعطيتهم إياها). فقال له النبيّ ﷺ: (على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوفَ به). فقال سهيل: واللّه لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان اللّه، وكيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً، فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبيّ ﷺ: (إنا لم نقض الكتاب بعد). قال: فو اللّه إذاً لن أصالحك على شيء أبداً. قال النبيّ ﷺ: (فأجزه لي). قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: (بلى فافعل). قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟

وكان قد عذب عذاباً شديداً في اللّه. قال: عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: فأتيت نبيّ اللّه ﷺ فقلت: ألست نبيّ اللّه حقاً؟ قال: (بلى). قلت: ألست على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: (بلى). قلت: (فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: (إني رسول اللّه، ولست أعصيه، وهو ناصري). قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: (بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام). قال: قلت: لا، قال: (فإنك آتيه ومطوِّف به) قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي اللّه حقاً، قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: (بلى)، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول اللّه ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فواللّه، إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: (بلى)، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوِّف به.

قال الزهري: قال عمر رضي اللّه عنه: فعملت لذلك أعمالاً، قال: فلما فرغ

من قضية الكتاب، قال رسول اللّه ﷺ لأصحابه: (قوموا فانحروا ثم احلقوا). قال: فواللّه ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على (أم سلمة) فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي اللّه! أتحب ذلك، اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل اللّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فطلق عمر يومئذ امرأتين،كانتا في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير، رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلَيْفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: (واللّه إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل، واللّه إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت، فقال أبو بَصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى بَرَد أي: مات، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول اللّه ﷺ حين رآه: (لقد أُري هذا ذعراً)، فلما انتهى إلى النبيّ ﷺ قال: قتل واللّه صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي اللّه، قد واللّه أوفى اللّه ذمتك. قد رددتني إليهم، ثم أنجاني اللّه منهم، قال النبيّ ﷺ: (ويلُ أمه، مِسْعَرُ حَرْب، لو كان له أحد). فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم جماعة، فواللّه ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبيّ ﷺ تناشده باللّه والرحم، لما أرسل: فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبيّ ﷺ إليهم، فأنزل اللّه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٤ ـ ٢٦] وكانت حميتهم أنهم لم يُقروا أنه نبي اللّه، ولم يقروا ببسم اللّه الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

قال أبو عبد اللّه: (معرة) العُرُّ: الجَرَبُ. (تزَّيلوا) تميزوا. حميت القوم منعتهم حمايةً، وأحميت الحمى جعلته حِمىً لا يُدْخَلُ[(١)].

من زوَّج أم سلمة من النبيّ ﷺ من أولادها؟

واختلف الرواة فيمن زوَّجها من النبي ﷺ من أولادها، فرواية النسائي، والإمام أحمد أنه عمر، ولكن ابن كثير أورد في التاريخ وفي الفصول[(٢)] أن المقصود بعمر هذا هو ابن الخطاب رضي اللّه عنه، لأنه كان الخاطب على رسول اللّه ﷺ، وهذا رأي الحافظ المزني وابن القيم رحمهما اللّه في جِلاء الأفهام[(٣)].

وقيل: إنه سلمة أخو عمر وعليه الأكثر، وقد عاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان، ولم يحفظ له رواية. وأما عمر ابنها فله رواية وقد ولد بالحبشة في السنة الثانية من الهجرة، وكانَ في التاسعة عند وفاة رسول اللّه ﷺ، واستعمله علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه على فارس والبحرين، وتوفي بالمدينة سنة ثلاث وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان. وأما زينب فقد ولدت بالحبشة، وكان اسمها بَرَّة، فسماها رسول اللّه ﷺ زينب، وروى الإمام في حديث محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي برة. فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول اللّه ﷺ، نهى عن هذا الاسم، وسميتُ برة. فقال رسول اللّه ﷺ: (لا تزكوا أنفسكم، اللّه أعلم بأهل البرّ منكم) فقالوا: بم نسميها؟ قال: (سموها زينب)[(٤)]. وقد دخلت زينب على رسول اللّه ﷺ وهو يغتسل: فنضح في وجهها الماء، فلم يزل ماء الشباب في وجهها رضي اللّه عنها حتى كَبِرت وعجَزت!!

وروى الطبراني عنها قالت: كانت أمي إذا دخل رسول اللّه ﷺ يغتسل، تقول أمي: اذهبي فادخلي. قالت: فدخلتُ، فنضح في وجهي الماء وقال: (ارجِعي).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم ٢٥٨١ في كتاب الشروط.
(٢) التاريخ لابن كثير ٤/ ٩٢ والفصول لابن كثير ٢٤٥.
(٣) جلاء الأفهام لابن القيم ١٩٧.
(٤) رواه مسلم برقم ٢١٤٢/ ١٩.

قال المعطاف: قالت أمي فرأيت وجه زينب وهي عجوز كبيرة ما نقص من وجهها شيء[١].

وتزوجها عبد اللّه بن زمعة بن الأسود الأسدي، وولدت له، وكانت من أفقه أهل زمانها.

اللحوق بالرفيق الأعلى:

عن الهيثم بن عدي قال: أول من مات من أزواج النبيّ ﷺ زينب بنت جحش ماتت في خلافة عمر رضي اللّه عنه وآخر من مات أم سلمة زمن يزيد بن معاوية سنة اثنتين وستين[٢].

وقال ابن أبي خيثمة: توفيت أم سلمة في ولاية يزيد بن معاوية سنة إحدى وستين على الصحيح ـ واستخلف يزيد سنة ستين ـ بعدما جاءها الخبر بقتل الحسين بن علي رضي اللّه عنه جميعاً ولها أربع وثمانون سنة على الصواب[٣]. رحم اللّه أم سلمة. وجعلها في مستقر رحمته، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خيراً وجعلها في عليين في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقد صلّى عليها أبو هريرة رضي اللّه عنه ودفنت في البقيع.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ ٢٨٢.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/ ٢٨٤.
(٣) الإصابة ٨/ ٢٢٥.

أمُّ المُؤمنينَ
السَّيدةُ زَيْنَبُ بنتُ جحشٍ
رضيَ اللَّهُ عنْها

اسمها ونسبها:

كانت تسمى بَرَّة، وغيّره رسول اللَّه ﷺ، إلى زينب، وجاء في الحديث الذي رواه مسلم عن زينب بنت أم سلمة، قالت: (كان اسمي برّة، فسماني رسول اللَّه ﷺ زينب، قالت: ودخلت عليه زينب بنت جحش، واسمها برة، فسماها زينب)(١)، بعد زواجه منها ﷺ.

كنيتها:

وكانت تكنى بأم الحكم(٢).

والدها:

أما أبوها فكان يدعى جحش بن رِئاب بن يَعْمُر بن صَبِرَة بن مرة بن كبير بن غَنْم بن دُودان بن أسد بن خزيمة.

أمها:

وأما أمها فهي: أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول اللَّه ﷺ.

زوجها قبل النبي ﷺ زيد بن حارثة:

كان زيد بن حارثة ربيبَ رسول اللَّه ﷺ وحِبَّه، وكان إضافة إلى شبابه وحيويته، ممتلئاً علماً وحكمة، ولم يكن بين الشباب أفضل منه في الدين. ولكن تقاليد الجاهلية وعاداتها لم تكن قد زالت من نفوس المسلمين بعدُ، ورأى فيه النبي ﷺ أنه زوج كُفءٌ لابنة عمته الشابّة ذات الحسب والنسب والجمال، فقال لها ﷺ: (رضيته لكِ). فردت قائلة: ولكني لا أرضاه لنفسي. ولم تلبث إلا يسيراً حتى نزل

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢١٤٢/ ١٨.

(٢) البيهقي في الدلائل ٣/ ٤٦٥، وأبو عمر في الاستيعاب ٤/ ١٨٤٩، وفي أسد الغابة ٧/ ١٢٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولم يبقَ أمامها مفرّ من قضاء اللّه ورغبة رسوله ﷺ. وتزوجت الشريفة، سليلة الحسب والنسب ممن كان عبداً ثم عتقَ، إنه حِبُّ رسول اللّه ﷺ، ولم يكن إيمانها العميق إلا حافزاً لها على تنفيذ مشيئة اللّه وطلب رسوله ﷺ، ومؤكداً ـ من خلال هذا الزواج الميمون أنْ لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيضَ على أسود ولا لحر على عبد ـ في ساحة الإسلام، إلا بالتقوى.

كانت زينب لا ينشرح قلبها لزيد، وتولّيه نفوراً وترفعاً لم يكن ليحتمله، وأبت كرامته أن يبقى مع زوجة زاهدة فيه، فانطلق إلى رسول اللّه ﷺ وعرض عليه أن يطلقها، فسأله النبيّ ﷺ: (ما بالك يا زيد؟ هل رابك منها شيء؟).

فردّ زيد بصدق: لا واللّه يا رسول اللّه ما رابني منها شيء ولا رأيت إلا خيراً، ولكنها تتعظم عليَّ لشرفها، وإن فيها كِبراً، تؤذيني بلسانها، فقال ﷺ: (أمسك عليك زوجك).

ولكن الحياة لا تستقر بين زوجين متنافرين، وأمام إلحاح زيد قبل رسول اللّه ﷺ وأجاب طلبه، وعزم أن يخطبها لنفسه تنفيذاً لأمر ربه ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ بعد أن تحلّ، ولما انتهت العدة أرسل رسول اللّه ﷺ زيداً نفسه ليخطبها له. أما التقية المؤمنة فقرّرت أن تستخير ربها وتنتظر أمره، واعتكفت في مصلاها، ولم يطل ارتقابها حتى نزل الوحي على رسول اللّه ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تزويج النبي ﷺ بها وأن اللّه جلّ جلاله زوّجها!!

قيل: إن النبي ﷺ تزوجها سنة ثلاث[(١)] من الهجرة بالمدينة، وقيل: سنة أربع[(٢)]، وقيل: سنة خمس[(٣)]، وهي يومئذ في الخامسة والثلاثين من عمرها.

وعن أنس رضي اللّه عنه قال: (لما انقضت عدة زينب قال رسول اللّه ﷺ

(١) نقله ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ١٨٤٩، وابن الأثير في أسد الغابة ٧/ ١٢٥، والنووي في التهذيب ٢٠/ ٣٤٥.

(٢) مرشد المختار ٢٦٤.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ١١٤، تاريخ الطبري ٢/ ٦٢هـ، ابن الأثير في أسد الغابة ٧/ ١٢٥.

لزيد: (فاذكرها عليّ) قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها. قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول اللّه ﷺ ذَكَرَها. فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب! أرسل رسول اللّه ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول اللّه ﷺ فدخل عليها بغير إذن. قال: ولقد رأيتنا أن رسول اللّه ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار. فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام. فخرج رسول اللّه ﷺ واتبعته، فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول اللّه! كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني.

نزول الحجاب:

قال: فانطلق حتى دخل البيت: فذهبت أدخل معه فألقى السِّتر بيني وبينه، ونزل الحجاب، قال: ووُعِظ القوم بما وُعظوا به.

وزاد ابن رافع في حديثه: (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه؛ إلى قوله: واللّه لا يستحيي من الحق)[1].

إثبات وليمة العرس:

وعن أنس رضي اللّه عنه قال: (ما رأيت رسول اللّه أولَمَ على امرأة من نسائه، ما أولَم على زينب، فإنه ذبح شاة)[2].

وعن عبد العزيز بن صهيب قال: سمعت أنس بن مالك يقول: (ما أولَمَ رسول اللّه ﷺ على امرأة من نسائه أكثر وأفضل مما أولَم على زينب). فقال ثابت البُنانيُّ: بمَ أولَمَ؟ قال: أطعمهم خبزاً ولحماً حتى تركوه). أي: شبِعوا[3].

وعن أنس بن مالك قال: لما تزوج النبيّ ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعِموا، ثم جلسوا يتحدثون. قال: فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام من القوم.

وزاد عاصم وابن عبد الأعلى في حديثهما قال: فقعد ثلاثة: وإن النبي ﷺ جاء ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا. قال: فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، قال: فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه. قال: وأنزل اللّه عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن

---

(١) أخرجه مسلم برقم ١٤٢٨/ ٨٩.
(٢) أخرجه مسلم برقم ١٤٢٨/ ٩٠.
(٣) أخرجه مسلم برقم ١٤٢٨/ ٩١.

يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾[1] [الأحزاب: ٥٣].

وقال ابن شهاب: إن أنس بن مالك قال: أنا أعلم الناس بالحجاب، لقد كان أُبَي ابن كعب يسألني عنه، قال أنس: أصبح رسول اللّه ﷺ عروساً بزينب بنت جحش، قال: وكان تزوّجها بالمدينة، فدعا الناس للطعام بعد ارتفاع النهار. فجلس رسول اللّه ﷺ وجلس معه بعد ما قام القومُ، حتى قام رسول اللّه ﷺ، فمشى فمشيت معه حتى بلغ باب حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجع فرجعت الثانية، حتى بلغ حجرة عائشة، فرجع فرجعت، فإذا هم قد قاموا، فضَرَب بيني وبينه بالسِّتر، وأنزل اللّه آية الحجاب)[2].

ظهور البركة في وليمة زواجها:

وعن أنس بن مالك. قال: تزوج رسول اللّه ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سُلَيم حَيْساً فجعلته في تَوْر، فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسول اللّه ﷺ، فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول اللّه! فقال: (ضعه) ثم قال: (اذهب فادعُ لي فلاناً وفلاناً وفلاناً، ومَن لقيت). وسمى رجالاً، قال: فدعوت من سمَّى ومن لقيتُ.

قال: قلت لأنس: عدد كَمْ كانوا؟ قال: زُهاء ثلاثمِائة!!!

وقال لي رسول اللّه ﷺ: (يا أنس! هات التَوْر) قال: فدخلوا حتى امتلأت الصُفَّة والحجرة، فقال رسول اللّه ﷺ: (ليتحلق عشرة وليأكل كل إنسان مما يليه) قال: فأكلوا حتى شبِعوا، قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلُّهم، فقال لي: (يا أنسُ ارفع) قال: فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائفُ منهم يتحدثون في بيت رسول اللّه ﷺ، ورسول اللّه ﷺ جالس، وزوجته مُولية وجهها إلى الحائط، فثقّلوا على رسول اللّه ﷺ فلما ذهب ثُمّ رجَع، ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، قال: فابتدروا الباب فخرجوا كلهم، وجاء رسول اللّه ﷺ حتى أرخى الستر ودخل، وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلا يسيراً حتى خرج عليَّ، وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول اللّه ﷺ وقرأها على الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ إلى آخر الآية [الأحزاب: ٥٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم ١٤٢٨/ ٩٢.

(٢) أخرجه مسلم برقم ١٤٢٨/ ٩٣.

قال أنس بن مالك: أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات، وحجبن نساء النبي ﷺ[(١)].

وكانت زينب رضي الله عنها تعتز كثيراً بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وتفخر على نساء النبيّ ﷺ جميعاً بأنها بنت عمته، وأن الله تعالى زوجها له، وهنّ زوّجهن أولياؤهن.

فخرها:

وقد روى البخاري عن ثابت، عن أنس قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبيّ ﷺ يقول: (اتق الله، وأمسك عليك زوجك). قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه. قال فكانت زينب تفخر على أزواج النبيّ ﷺ تقول: (زوجكن أهاليكن، زوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات)[(٢)].

وأخرج ابن جرير في تفسيره عن الشعبي قال: (كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأُدِلُّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تُدِل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله من السماء، وكان جبريل السفيرَ في أمري)[(٣)].

مساماتها لعائشة:

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كانت زينب هي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ في المنزلة عند رسول الله ﷺ، وما من امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرّب به إلى الله تعالى)[(٤)].

وروى ابن أبي خيثمة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: (لم يكن أحد من نسائه يساميني في حسن المنزلة عنده غيرها). تعني زينبَ بنت جحش[(٥)].

ورع السيدة رضي الله عنها:

كانت زينب رضي الله عنها تخشى الله، وقد استدل على ورعها وخشيتها لله ما ورد في حديث الإفك الطويل حين قالت عائشة: (وهي التي كانت تساميني من أزواج النبيّ ﷺ، فعصمها الله بالورع)[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم ١٤٢٨/ ٩٤.
(٢) أخرجه البخاري برقم ٦٩٨٤.
(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤.
(٤) أخرجه مسلم في حديثه الطويل برقم ٢٤٤٢/ ٨٣.
(٥) الاستيعاب ٤/ ١٨٥٠، وأسد الغابة ٧/ ١٢٦.
(٦) أخرجه البخاري برقم ٤٤٧٣.

الحبيب ﷺ يشهد لها بالكرم:

كانت زينب رحمها اللّه صَناعَ اليدين، تدبغ وتخرز، وتتصدق به في سبيل اللّه، وقد روى أبو يعلى بسند حسن عن أبي برزة رضي اللّه عنه قال: (كان لرسول اللّه ﷺ تسع نسوة، فقال يوماً: (خيركن أطولكن يداً) فقامت كل واحدة تضع يدها الجدار، فقال: (لست أعني هذا، أصنعكن يدين)[١].

وعن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول اللّه ﷺ: (أسرعكن لَحاقاً بي، أطولكن يداً) قالت: فكن يتطاولن أيّتهن أطول يداً. قالت: فكانت أطولَنا يداً زينبُ، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدَّق)[٢].

وأورد البخاري حديثاً عن مسروق عن عائشة رضي اللّه عنها: أن بعض أزواج النبيّ ﷺ قلن للنبي ﷺ: أيُّنا أسرع بك لحوقاً؟ قال: (أطولكن يداً). فأخذن قصبة يذرعنها، فكانت سودة أطولهن يداً، فعلمنا بعدُ: إنما كانت طولَ يدها الصدقةُ، وكانت ـ أي: زينب رضي اللّه عنها ـ أسرعَنا لحوقاً به، وكانت تحب الصدقة)[٣].

وصفها النبيّ ﷺ بأنها أوّاهة:

روى الطبراني في المعجم الكبير قال: (دخل رسول اللّه ﷺ منزله ومعه عمر ابن الخطاب، فإذا هو بزينب بنت جحش تصلي، وهي تدعو في صلاتها، فقال النبي ﷺ: (إنها لأوّاهة)[٤].

وروى أبو عمر في الاستيعاب: (أن رسول اللّه ﷺ قال لعمر بن الخطاب: (إن زينب بنت جحش أوّاهة).

فقال رجل: يا رسول اللّه ما الأوّاه؟ قال: (الخاشع المتضرع، و﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[٥] [هود: ٧٥].

وروى ابن سعد عن ميمونة بنت الحارث أن رسول اللّه ﷺ قال: (إنها أوّاهة).

زهدها:

وعن برزة بنت رافع قالت: (لما جاءنا العطاء، بعث عمر إلى زينبَ بنت

---

(١) أخرجه أبو يعلى ٦/ ٤٦٢ (٧٣٩٣).
(٢) أخرجه مسلم برقم ٢٤٥٢/ ١٠١.
(٣) أخرجه البخاري برقم ١٣٤٥.
(٤) المعجم الكبير للطبراني ٢٤/ ٣٩.
(٥) الاستيعاب ٤/ ١٨٥٢، الحلية لأبي نعيم ٢/ ٥٣، أسد الغابة لابن الأثير ٧/ ١٢٧.

جحش بالذي لها، فلما أدخل عليها قالت: غفر اللَّه لعمرَ، غيري من أخواتي كنّ أقوى مني على قَسْم هذا. قالوا: هذا كله لك. قالت: سبحان اللَّه! واستترت منه بثوب، وقالت صبوه، واطرحوا عليه ثوباً. ثم قالت لي: أدخلي يدك، فاقبضي منه قبضة، فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان ـ من أهل رحمها وأيتامها ـ ففرّقته حتى بقي منه بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر اللَّه لك يا أم المؤمنين، واللَّه لقد كان لنا في هذا حق. قالت: لكم ما تحت الثوب. فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللَّهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا. فماتت!!!

قال عبد الوهاب ـ شيخ ابن سعد ـ في حديثه: فكانت أول أزواج النبي ﷺ لحوقاً به)[١].

وقالت عائشة رضي اللَّه عنها: (لقد ذهبت حميدة مفيدةً اليتامى والأراملَ)[٢].

وفاتها وعمرها:

توفيت أم المؤمنين زينب بنت جحش سنة عشرين ولها ثلاث وخمسون سنة[٣]. وكانت أولَ نساء النبي ﷺ لحوقاً به.

وكبّر عليها عمر رضي اللَّه عنه أربعاً، ثم أرسل إلى أزواج رسول اللَّه ﷺ، من يدخل هذه قبرها؟ فقلن: من كان يدخل عليها في حياتها.

وقال البيهقي: وهي أول امرأة جعل عليها النعش[٤]، وروى ابن سعد عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما: إن الرجال والنساء كانوا يخرجون بهم سواء، فلما ماتت زينب بنت جحش، أمر عمر منادياً فنادى: ألا لا يخرج على زينب، إلا ذو رحم من أهلها. فقالت بنت عميس: يا أمير المؤمنين ألا أريك شيئاً رأيت الحبشة تصنعه لنسائهم! فجعلت نعشاً وغشته بثوب، فلما نظر إليه قال: ما أحسن هذا!

فرضي اللَّه عنك وأرضاك يا أمّ المؤمنين، يا من أنزل فيك ربك جلّ جلاله قرآناً يتلى على مرّ العصور وكرّ الدهور. آمين.

---

(١) طبقات بن سعد ٨/ ١٠٩ ـ ١١٠.
(٢) ابن سعد ٨/ ١١٠.
(٣) ابن سعد ٨/ ١١٥.
(٤) السنن الكبرى ٧/ ٧٢.

أمُّ المُؤمنينَ
السَّيدةُ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحَارِثِ
رضيَ اللَّهُ عنْها

التعريف بها:

جويرية بنت الحارث سيدة بنى المصطلق، ومن فُضليات النساء وساداتهن.

والدها:

أما أبوها: فالحارث بن أبى ضرار بن حبيب بن عائد بن مالك بن جذيمة، وجذيمة هو المصطلق من خزاعة، سمي لحسن صوته.

قومها:

أما قومها: فهم بنو المصطلق، بطن من خزاعة، أصحاب بأس وشدة وكثرة عدد.

كان اسم جويرية رضي اللَّه عنها: برّة، فسماها رسول اللَّه ﷺ جويرية، وإنما سماها النبي ﷺ جويرية؛ كراهة أن يقال: خرج من عند برّة!!

نشأت رضي اللَّه عنها في ظل سيادة أبيها لقومه في عزٍّ وسؤدد، وللبيوت أعظم الأثر في التنشئة والتربية!!

زواجها قبل رسول اللَّه ﷺ:

وقد تزوجت جويرية في حداثة سنها مسافع بن صفوان، أحد فتيان خزاعة، ثم قتل عنها مشركًا فيمن قتل يوم المريسيع من بني المصطلق الذين أسرعوا إلى القتال.

وتبدأ قصتها مع النبي ﷺ بتلك الغزوة التي عزم فيها أبوها الحارث لحرب النبي ﷺ وتسمى هذه الغزوة: غزوةَ بني المصطلق.

وفي هذه الغزوة أتم اللَّه عز وجل النصر لرسوله ﷺ والمؤمنين، وغنِموا أموالهم، وسبَوا نساءهم، وكان من بين السبايا: جويرية رضي اللَّه عنها، وكانت ما تزال في زهرات العمر الأولى.

زواجها من النبي ﷺ:

وهنا نترك الحديث لأم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها تحكي لنا قصة جويرية، تقول رضي اللّه عنها: لما قسم رسول اللّه ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن القيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأةً حلوة الملاحة، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول اللّه ﷺ تستعينه في كتابتها، فقالت: يا رسول اللّه، أنا جويرية بنت الحارث، وإنه كان من أمري مالا يخفى عليك، وإني وقعت في سهم ثابت بن قيس، وإني كاتبته على نفسي، فجئتك أسألك في كتابتي، فقال لها رسول اللّه ﷺ: (فهل لك إلى ما هو خيرٌ منه؟) قالت: وما هو يا رسول اللّه؟ قال: (أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك) قالت: قد فعلت، فتسامع ـ تعني: الناس ـ أن رسول اللّه ﷺ قد تزوج جويرية فأرسلوا ما في أيديهم من السبي فأعتقوهم، وقالوا: أصهار رسول اللّه ﷺ. فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، أُعتق في سبيلها أهل مِائة بيت من بني المصطلق!!!

رؤيا جميلة!!

وكانت جويرية رضي اللّه عنها رأت في منامها أنها ستكون زوجًا للنبي ﷺ، وتمنت لو تحققت رؤياها!!

روى البيهقى عنها قالت: رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليالٍ كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أخبر بها أحدًا من الناس حتى قدم رسول اللّه ﷺ، فلما سُبينا رجوت الرؤيا، فأعتقنى و تزوجنى!!!

ولقد تحققت رؤيا جويرية رضي اللّه عنها، وسعدت بالزواج من السراج المنير ﷺ، وحظيت بالشرف العظيم بأن أصبحت أمًا للمؤمنين، وظلت رضي اللّه عنها تذكر تلك اللحظة السعيدة التي قال فيها النبي ﷺ لها: (وأتزوجك) ولقد كان موقفاً نبيلاً من الرؤوف الرحيم ﷺ أن يؤدّي عنها ويعتقها ويتزوجها.

ولقد كانت رضي اللّه عنها أيمنَ امرأة على قومها، و أية بركة أعظم من إسلام قبيلة بأسرها!!

وتزوجت جويرية رضي اللّه عنها، وهي في العشرين من عمرها، قالت: تزوجني رسول اللّه ﷺ و أنا بنت عشرين سنة، ودخلت رضي اللّه عنها بيت الزوجية وبنيت لها حجرة بجوار حجرات أخواتها أمهات المؤمنين.

جويرية والخيار العظيم:

وقد روي أنه لما انصرف رسول اللّه ﷺ من غزوة بني المصطلق ومعه جويرية، وكانت بذات الجيش، دفع جويرية إلى رجلٍ من الأنصار وديعة، وأمره بالاحتفاظ بها، وقدم رسول اللّه ﷺ المدينة، فأقبل أبوها الحارث بفداء ابنته، فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء فرغب في بعيرين منها، فغيبهما في شعب من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النبي ﷺ وقال: يا محمد أصبتم ابنتي و هذا هو فداؤها، فقال رسول اللّه ﷺ: (فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا و كذا؟) فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا اللّه و أنك محمد رسول اللّه!!! فو اللّه ما اطلع على ذلك إلا اللّه، فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له و ناس من قومه، و أرسل إلى البعيرين فجاء بهما، فدفع الإبل إلى النبي ﷺ، ودفعت إليه ابنته جويرية، فأسلمت وحسن إسلامها، فخطبها رسول اللّه ﷺ إلى أبيها، فزوجه إياها وأصدقها أربعمائة درهم.

وقيل: إن أباها قال: يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، فإن ابنتي لا يسبى مثلها، فخلِّ سبيلها، قال ﷺ: (أرأيت إنْ خيرناها أليس قد أحسنتُ؟) قال: بلى، فأتاها أبوها فذكر لها ذلك، فقالت: إخترت اللّه ورسوله ﷺ.

الحكمة من الزواج بالسيدة جويرية:

لقد استهدف زواج النبي ﷺ من جويرية مصلحة إسلامية عليا تحقق للدعوة الظهور والانتشار!! ومهما يكن في جويرية رضي اللّه عنها من ملاحة وجمال، ففي بعض أمهات المؤمنين ملاحة وحسن وجمال، ولا يصح أن يكون الحسن وحده هو الباعثَ على الزواج في نظام الإسلام وفي توجيهات النبوة، وقد مرّ بنا أن جويرية بنت سيد قومه، ووقعت في القسمة في سهم ثابت بن قيس، فافتدت نفسها منه فأغلى فداءها لمكانتها من قومها، وزعامة أبيها، فاستعانت بالنبي ﷺ فلباها لذلك، وقضى كتابتها وتزوجها.

ولو أراد النبي ﷺ أن يصطفيها لحسنها، لاصطفاها قبل قسمة الغنائم، لكن الزواج منها كان لأمر أبعدَ من ذلك وأسمى، و هو الطمع في إسلام قومها، وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعزّ الإسلام، ومن لك بإسلام قبيلة كاملة، بأي سبيل!!!

إنها الحكمة البعيدة التي قصد ـ المصلح العظيم المسدَّد من قبل اللّه ﷺ ـ من ورائها تأليف القلوب عليه، و جمع القبائل حوله، وهذا ما كان يرجوه ﷺ من

نجاح دعوته وانتشارها بين الناس، وتحقق ما قصده النبي ﷺ كما نعلم.

إذاً، هي الحكمة الدينية، وليست الغرضَ النفسي القريب، ولا قضاء الأوطار، ولا إشباع الرغبات الجنسية، كما يلغو بذلك بعض المستشرقين والمستغربين!!!

ومن أجل الإخلاص في استهداف المصلحة الإسلامية البعيدة يسّر اللَّه جلّ جلاله هذا الزواج وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث رئيسهم وسيدهم.

أكان يحدث ذلك كله لو بقيت جويرية رضي اللَّه عنها في سهم ثابت بن قيس؟ أكان في الوسع أن تتحقق هذه المصلحة الإسلامية العليا؟؟!!

حياتها مع سيد الأنام محمد ﷺ:

عاشت أمّ المؤمنين جويرية حياتها مع النبي ﷺ، وسارت بها الحياة أحسن ما تكون، ووجدت رضي اللَّه عنها في بيته ﷺ ما يعينها على حياة العبادة والطاعة، فقد كانت رضي اللَّه عنها مجتهدة في عبادتها للَّه سبحانه وتعالى، صوامة قوامة، زاهدة عابدة، من الذاكرين اللَّه كثيرًا والذاكرات، روى عبد اللَّه بن عباس عن أمّ المؤمنين جويرية أن النبي ﷺ مرّ عليها وهي في مسجدها[1] أول النهار، ثم مرّ عليها قريبًا من نصف النهار فقال لها: (ما زلت على حالك؟) قالت: نعم، قال ﷺ: (ألا أعلمك كلمات تقولينها؟ سبحان اللَّه عدد خلقه، ثلاث مرات، سبحان اللَّه رضا نفسه، ثلاث مرات، سبحان اللَّه مداد كلماته ثلاث مرات).

قال في الفتح الرباني: ويستدل من هذا الحديث على فضلها وصلاحها.

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لها: (لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه ومداد كلماته).

لقد شغلت جويرية رضي اللَّه عنها نفسها بما انشغل به النبي ﷺ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال نساء المسلمين؛ لأنهن في أمس الحاجة إلى هذا الزاد الروحي، تزود به المسلمة روحها، وتزكّي إيمانها، في عصرٍ زادت فيه الفتن، وسيطرت فيه المادة.

إن المسلمة التقية تُقبل على تعلم بعض الأدعية والأذكار المأثورة عن النبي ﷺ،

---

(١) مسجدها: المكان المعدّ للصلاة في البيت.

وتحرص على تَردادها في أوقاتها ومناسباتها؛ كي يظل قلبها موصولاً باللّه عز وجل.

ولقد كان النبي ﷺ يحب في جويرية حسن إقبالها على اللّه تعالى، ويشجع فيها هذا الاستعداد الطيب، ويعينها دائمًا على عبادتها، ويوجهها إلى أفضل ما تكون عليه من عمل، ويصوبه لها حتى يكون مقبولاً عند اللّه، فقد دخل عليها النبي ﷺ يوم الجمعة وهي صائمة، فقال لها: (أَصُمْتِ أمسِ؟) قالت: لا، قال: (أتريدين الصوم غدًا؟) قالت: لا، قال: (فأفطري إذاً).

إن النبي ﷺ يوجهها إلى أن إفراد يوم الجمعة بالصيام مكروه؛ لأنه يوم عيدٍ للمسلمين، فمن أراد أن يصومه، فعليه أن يصوم يومًا قبله أو يوماً بعده.

السيدة المكرّمة في ساحات الجهاد!!

ولقد كتب اللّه تعالى لها شرف الجهاد، وشرف الصحبة مع النبي ﷺ والخروج معه، فقد روي أن النبي ﷺ أطعم جويرية يوم خيبر ثمانين وَسقًا تمراً، وعشرين وسقاً قمحاً، كما حجت و اعتمرت مع النبي ﷺ.

ذكريات عاطرة مشرِّفة:

ومما أُثر عن أم المؤمنين جويرية رضي اللّه عنها أنها كانت تتحدث عن حالها قبل إسلامها، وكأنها تحمد اللّه سبحانه أن هداها للإسلام وزوّجها بالنبي ﷺ قالت رضي اللّه عنها: أتانا رسول اللّه ﷺ ونحن على المريسيع، فأسمع أبي يقول: أتانا ما لا قبل لنا به!! قالت: وكنت أرى من الناس والخيل والسلاح، ما لا أصف من الكثرة، فلما أن أسلمتُ وتزوجني رسول اللّه ﷺ ورجعنا، جعلت أنظر إلى المسلمين، فليسوا كما كنت أرى، فعرفت أنه رعب من اللّه تعالى يلقيه في قلوب المشركين!!!

جويرية وسكرات موت حبيب اللّه محمد ﷺ:

لما اشتدّ المرض بالنبي ﷺ استأذن من نسائه رضي اللّه عنهن، ومن بينهن جويرية أن يُمرّض في بيت عائشة فأذنّ له، وكانت جويرية تأتي بين الحين والحين؛ لتطمئن على النبي ﷺ، وتمكث معه الفترة بعد الفترة، وحين تخلو وحدها تبكي وتتألم راجية اللّه جلّ جلاله أن يخفف ما برسول اللّه ﷺ من ألم المرض وشدته.

ولما كان يوم وفاة النبي ﷺ كانت جويرية رضي اللّه عنها بين من حضره، بل كانت أدنى الناس من فراشه وأقرب نسائه إليه، ولحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى وتوفي وهو عنها راض، واستقبلت جويرية رضي اللّه عنها المصيبة الكبيرة بصبر أكبرَ، وإيمانٍ أقوى.

أمُّ الفقراء والمساكين:

ومرت الأيام والأعوام، وعاشت رضي اللَّه عنها في ظل الخلافة الراشدة، يُعرف لها مكانتها بين أمهات المؤمنين، وتصلها أعطياتها ومخصصاتُها من بيت مال المسلمين، فما تلبث حتى تنفق معظمها على الفقراء، وأصحاب الحاجات، وكان أبو بكر رضي اللَّه عنه يقسم المال بين أمهات المؤمنين بالسوية، فلما مات، وتولّى عمر رضي اللَّه عنه الخلافة من بعده فتح اللَّه عليه الفتوح وتعددت مصادر الدخل، واتسعت رُقعة الأرض، وجاءه المال أكثر من ذي قبل، فقال عمر: قد كان لأبي بكر في هذا المال رأي، ولي رأي.. ثم فرض لأزواج رسول اللَّه ﷺ اثنتي عشرة ألفاً لكل واحدة، إلا صفية بنت حُيي، وجويرية رضي اللَّه عنهما، ففرض لكل واحدة ستة آلاف درهم، فأبين أن يأخذنها، فقال عمر رضي اللَّه عنه: إنما فرضت لهن ـ أي: لبقية نساء النبي ﷺ ـ بالهجرة، فقلن لعمر: ما فرضت لهن بالهجرة، إنما فرضت لهن لمكانتهن من رسول اللَّه ﷺ ولنا مثل مكانهن، فقالت عائشة رضي اللَّه عنها: إن رسول اللَّه ﷺ كان يعدل بيننا، فعَدَل عمر رضي اللَّه عنه عن ذلك فجعلنهن سواء.

وفاتها رضي اللَّه عنها:

عاشت جويرية رضي اللَّه عنها حتى أدركت أيام معاوية بن أبي سفيان، حيث قضت شطر حياتها في ظل الخلافة الراشدة مع نساء النبي ﷺ.

وبحلول شهر ربيع الأول من العام السادس والخمسين للهجرة على الأرجح، توفيت جويرية رضي اللَّه عنها، وقد بلغت من العمر سبعين سنة، وصلّى عليها والي المدينة من قبل معاوية مروانُ ابن الحكم، وشيع جثمانها رضي اللَّه عنها، ودفنت بالبقيع لترقد في مثواها ما قبل الأخير مع أمهات المؤمنين، وقيل: توفيت سنة خمسين وهي بنت خمس وستين سنة.

فضلها رضي اللَّه عنها:

لقد مرّ بنا ما كان من يُمنها وبركتها على قومها حتى لتقول عنها عائشة رضي اللَّه عنها: وما من إمرأة أعظم على قومها بركة منها، أعتق بزواجها من رسول اللَّه ﷺ أهل مِائة بيت من بني المصطلق، فكان هذا من أولى فضائلها.

ومن فضائلها رضي اللَّه عنها: أنها كانت محبةً للصدقة، فاعلة للخير، مبتغية بما تفعل مرضات اللَّه تعالى، وروى جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما أن جويرية

رضي اللَّه عنها قالت للنبي ﷺ: إني أريد أن أعتق هذا الغلام، قال: (أعطه خالك الذي في الأعراب يرعى عليه لأنه أعظم لأجرك).

ولقد كانت رضي اللَّه عنها من زوجات النبي ﷺ اللائي توفي عنهن، وكن معلماتٍ ومفتيات لنساء أمته ورجالها، فقد نقل عنها حِبْر الأمة عبد اللَّه بن عباس، وجابر بن عبد اللَّه، وعبد اللَّه بن عمر، وعبيد بن السباق، وكريب، ومجاهد، وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزدي وآخرون.

جاء لها سبعة أحاديث: منها عند البخاري حديث، وعند مسلم حديثان.

رضي اللَّه عن جويرية وأرضاها، وجزاها خيراً عن الإسلام والمسلمين وحشرنا مع زوجها وحبيبها المعظم محمد بن عبد اللَّه ﷺ في فردوسه الأعلى، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

أمُّ المُؤْمِنِيْنَ
صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ
رضيَ اللَّهُ عنْها الصفيَّةُ الصَّافيةُ

ذكرت السيدة صفية للنبي ﷺ نُبذةً عن حياتها، فقالت:

يا رسول اللّه! في ليلة عرسي بكنانة بن الربيع رأيت في المنام أن قمراً وقع في حجري، فلما صحوت من نومي، عرضت الرؤيا على كنانة، فقال غاضباً: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً ولطم وجهي لطمة ما يزال أثر منها فيه؟!!

ويقول رسول اللّه ﷺ لصفية: (إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟.)

أم المؤمنين، صفية بنت حيي، الأسيرة السبية، التقية النقية الزاكية، ذات العينين الباكية، صفية الصافية.

صفية بنت حيي بن أخطب سيدة قومها ـ سادتهم بسلامة قلبها ورباطة جأشها، ورجاحة عقلها، وسداد رأيها، وقوة شخصيتها، واعتزازها بنفسها مع خلق فاضل وحلم وافر.

وكان أبوها أيضاً سيداً في قومها، يشار إليه بالبنان، ويسند إليه أمر بني النَّضير، بل أمر يهود خيبر جميعاً، لم يسُدهم بما سادته به صفية، بل سادهم بشره وأشره وحبه للرياسة والسياسة.

واليهود إنما يسوّدون عليهم أشدهم بطشاً، وأشرسهم إقداماً على العدوان وأعظمهم تفنناً في الطغيان.

اليهود الخبثاء وخطرهم في المدينة المنورة!!

ويجدر بنا قبل أن نتكلم عنها وعن زواجها من النبي ﷺ أن نتحدث عن اليهود الذين كانوا في المدينة فنقول: إن النبي ﷺ قد عاهدهم على التعايش السلمي في المدينة، وكانوا ثلاث طوائف، هم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قُريظة: فنقضوا عهودهم، وخاضوا مع المسلمين حروباً معلنة وغير معلنة: فأجلى الرسول

ﷺ بني قينقاع وبني النضير، فمنهم من فرّ إلى أذرِعات بالشام، ومنهم من فرّ إلى خيبرَ.

وأما بنو قريظة فقد قتل النبي ﷺ رجالهم، وسبى نساءهم وذراريهم بحكم اللَّه فيهم من فوق سبع سماوات.

واجتمع اليهود في خيبر واشتد خطرهم على المسلمين، وهموا بما لم ينالوا، فوفق اللَّه رسوله ﷺ لدحرهم وإذهاب شوكتهم وتشريد مَن خلفهم ممن كانوا على شاكلتهم من أهل الشرك: فقد جهز النبي ﷺ جيشاً لقتالهم في أواخر المحرم في السنة السابعة للهجرة، وصحب معه زوجه أم سلمة رضي اللَّه عنها.

ولما أشرف رسول اللَّه ﷺ على خيبر بعد صلاة الصبح، قال لأصحابه رضوان اللَّه عليهم: (قفوا: فوقفوا منصتين، وعلمهم دعاء عظيماً، وأمرهم أن يرددوه خلفه، فقال ﷺ: (اللَّهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم اللَّه، وادخلوا على بركته تعالى)(١) وكان ﷺ يقولها لكل قرية دخلها.

ولما توجه إلى خيبر أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير: اللَّه أكبر، لا إله إلا اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: (اربَعوا على أنفسكم ـ أي: ارفقوا بأنفسكم ـ لا تبالغوا في رفع أصواتكم ـ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعًا قريباً وهو معكم)(٢).

وفي صبيحة يوم ـ ساء فيه صباحهم ـ رأى النبي ﷺ عمالهم غادين إلى زروعهم وثمارهم وفي أيديهم أدوات أعمالهم؛ فقال: (اللَّه أكبر، خربت خيبر؛ إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين).

وأخذ المسلمون أموالهم، وفتحوا حصونهم وسبوا نساءهم وذراريهم.

وذكر أصحاب السير: أنه كان بها عشرة آلاف مقاتل، وأنهم ظنوا كل الظن أن محمداً ﷺ لا يغزوهم؛ لكثرتهم وبعدهم عن المدينة وغير ذلك مما توهموه سبباً في إعاقته عن غزوهم، وكانت لهم حصون منيعة لا يقدر على اقتحامها جيش إلا بجهد جهيد وسلاح عنيد.

وتمَّ النصر للمسلمين على خير وجه وبأقلِ الخسائر، وأحرز المسلمون الكثير

---

(١) رواه الحاكم: ١/ ٤٤٦.

(٢) رواه البخاري ج١٣/ ٧٣٨٦ عن أبي أيوب، ومسلم في الذكر والدعاء، رقم ٤٤ عن أبي موسى ٢٨.

والكثير من أموال اليهود، وسبَوا الكثير والكثير من النساء والذراري كما ذكرنا.

وكانت صفية بنت حيي من السبايا، جاء بها بلال بن رباح رضي اللّه عنه مؤذن رسول اللّه ﷺ من حصن أبي الحقيق ومعها بنت عم لها؛ فمر بهما على القتلى وقد تناثرت أشلاؤهم هنا وهناك، فلما رأتهم المرأة التي مع صفية، صاحت صياحاً شديداً ولطمت وجهها، وحثت التراب على رأسها، وفعلت بنفسها الأفاعيل، فلما رآها رسول اللّه ﷺ قال: اغربوا عني هذه الشيطانة فأبعدوها عن ساحته.

وأما صفية: فقد كانت تتميز برباطة الجأش ـ كما ذكرنا ـ فلم تفعل مثل ما فعلت صاحبتها؛ بل تماسكت وكظمت غيظها، وكبتت حزنها في صدرها؛ فعرف النبي ﷺ قدرها؛ فرضيها لنفسه وجعلها خلفه وألقى عليها رداءه؛ ليعلم المسلمون أنه قد حازها لنفسه فلا يجعلوها في القسمة.

وقد عاتب النبي ﷺ بلالاً على ما فعله بهاتين المرأتين؛ فقال: (يا بلال، أنزعت منك الرحمة حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما!!)[(١)].

وقد حاز النبي ﷺ صفية لنفسه تكريماً لها؛ فهي سيدة قومها وبنت سيدهم كما ذكرنا؛ فإكرامها نخوة عربية، وأدب إسلامي عظيم.

وقد أبصر فيها سماحة تدعوها إلى الإسلام، ورأى في وجهها وجاهة تدل على سلامة قلبها وحسن استقبالها لهذا الدين القيم.

وما حازها لجمالها ـ وقد كانت ذاتَ جمال حقاً ـ فمثله ﷺ لا يشغله الجمال الظاهر عن جمال الباطن، وهو ذو بصيرة، يعرف وجوه الناس وخيارهم و تفاوتهم في الأقدار و مدى استعداد كل منهم إلى اتباع الهدى حين يدعى إليه. ولم لا؟ وهو القائل: (اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور اللّه وينطق بتوفيق اللّه)[(٢)].

الحبيب الأعظم ﷺ يخطب صفية لنفسه:

وبعد فراغه ﷺ من المعركة عرض عليها الزواج؛ فقبلت على الفور؛ شاكرة له حسن صنيعه بها، وعبرت قَسَمات وجهها عن سرورها العظيم بهذا الزواج المبارك، وقالت: يا رسول اللّه، قد كنت أتمنى ذلك في الشرك فكيف إذا أمكنني اللّه منه في الإسلام؟! فأعتقها عليه السلام وتزوجها، وكان عتقَها صداقُها، ودفعها ﷺ إلى أم سُليم تهيئها وتعتد عندها، وكان عندها إذ ذاك

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٩٤، والسيرة: ٣/ ٣٥١، ٤/ ٢٥٦، والإصابة: ٨/ ١٢٦.

(٢) رواه الترمذي وغيره.

سبعة عشر عاماً، ولكن مع صغر سنها تزوجت من قبل النبي ﷺ من رجلين!!

الأول: سَلام بن مِشْكم القرظي، وهو من بني قُريظة قبيلة أمها برة بنت شموال.

والثاني: كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري، صاحب حصن القموص أعظم حصن في خيبر، وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال عسير، وجيء بكنانة حيّاً، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله النبي ﷺ عنه؛ فجحد أن يكون يعرف مكانه، قال عليه السلام: (أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟) قال: نعم.

فلما اكتشف مخبأ الكنز عنده، دفعه النبي ﷺ إلى محمد بن مسلمة الأنصاري البدري فضرب عنقه؛ أخذاً بثأر أخيه محمود بن مسلمة البدري، الذي قتله اليهود في أول المعركة عند حصار حصن ناعم، حين ألقوا عليه رحى فقتلته.

وكانت صفية رضي اللَّه عنها قد رأت في منامها ـ وهي عروس بكنانة بن الربيع ـ كأن قمراً في حِجرها؛ فقصت رؤياها عليه؛كأنه كان يعرف شيئاً من تأويل الرؤى، فقال لها: إنك تتمنين أن تكوني زوجاً لمحمد ملك الحجاز؟! فلطم وجهها لِطْمة شديدة أحدثت في جوانب عينيها اخضراراً! فلما رأى النبي ﷺ هذا الاخضرار، سألها عن سببه فأخبرته بما حدث فلم يقل شيئاً لأن اللَّه سبحانه وتعالى قد اقتص لها منه، وقد كان كنانة بن الربيع صادقاً في هذا التأويل؛ لأن القمر يؤول في الرؤيا بأنه ملك أو وزير أو عالم له شأن.

السيدة صفية تخاف على زوجها المكرّم ﷺ من اليهود بني جلدتها!!!

فلما انقضت عِدة صفية من زوجها كنانة بن الربيع حملها النبي ﷺ وراءه إلى منزل على ستة أميال من خيبر، وأراد أن يعرّس بها فأبت؛ فوجَد النبي ﷺ في نفسه، فلما سار ووصل الصهباء مال إلى دومة هناك فطاوعته، فقال لها: ما حملك على إبائك حين أردت المنزل الأول؟ قالت: يا رسول اللَّه، خشيت عليك قرب يهود!!!

وعنها أنها قالت: انتهيت إلى رسول اللَّه ﷺ، وما من أحد أكره إليّ منه؛ قتل أبي وزوجي وقومي، فقال ﷺ: يا صفيةُ، أما إني اعتذرت إليك مما صنعتُ بقومك، إنهم قالوا لي كذا وكذا، وقالوا فيّ كذا وكذا، وما زال ﷺ يعتذر إليّ حتى ذهب ذلك من نفسي؛ فما قمت من مقعدي، وأحدٌ من الناس أحب إليّ منه ﷺ!!

الحب الحقيقي الصادق!!!

وكان أبو أيوب الأنصاري رضي اللَّه عنه يحب رسول اللَّه ﷺ حباً جماً، ويحرص على راحته، ويحميه من كل ما يؤذيه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فلما

رآه قد دخل على صفية، رابه شيء منها؛ فبات يحرسه حتى أصبح، وكان يطوف بالخيمة التي هو فيها مع صفية، فلما خرج النبي ﷺ مبكراً، كبَّر أبو أيوب حين أبصره، فسأله خاتم الأنبياء ﷺ: (مالك يا أبا أيوب؟). قال: لم أرقد ليلتي هذه يا رسول اللّه!! قال: (ولم يا أبا أيوب؟) قال: لما دخلت بهذه المرأة، ذكرت أنك قتلت أباها وأخاها وزوجها وعامة عشيرتها؛ فخفت أن تغتالك يا رسول اللّه!!

فتبسم ﷺ وأثنى عليه ثناء حسناً على هذا الحرص الذي لابد منه في هذه المواضع، ولكن الرسول ﷺ كان يعلم بنور اللّه أن صفية قد حسن إسلامها وصَدَق في اللّه يقينها، وأنها أحبته حب التابع للمتبوع والزوجة للزوج، وحفظت له حسن صنيعه بها، وهو (أوتي من اليقين ما لا مزيد عليه بعد أن أنزل عليه جلّ جلاله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٧٦].

أمهات المؤمنين يهنئن صفية بالزواج الميمون:

فلما قدم النبي ﷺ المدينة، ومعه صفية أنزلها في بيت لحارثة بن النعمان، فجاءت نساء الأنصار يزرنها ويهنئنها بهذا الزواج المبارك، وجاءت نساء النبي ﷺ يهنئنها وينظرن إليها؛ وتدفعهن الغيرة إلى التهوين من شأنها وتردهن التقوى عن ذلك.

وللّه درُّ التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء!! كما قالت عائشة رضي اللّه عنها وأرضاها.

وقد جاءت إليها فرأت ما أذهلها من جمال الخَلْق وسلامة القلب والمنطق، وما رأت فيها من مخايل العزة والنجابة؛ فهي سيدة بنت سيد، وقد سألها النبي ﷺ عنها وهي خارجة من عندها فقال: (كيف رأيت يا عائشة؟) قالت: رأيت يهودية، وصدق رسول اللّه ﷺ حين قال: (إن اللّه كتب الغيرة على النساء)[١].

فقال نبي الرحمة ﷺ: (لا تقولي ذلك؛ فإنها أسلمت وحسن إسلامها)؛ فطابت نفسها، وكبحت جماح غيرتها، ومضت إلى بيتها تمارس حياتها المعتادة، وهي مطمئنة القلب بذكر اللّه عز وجل، راضية بما رضيه رسول اللّه ﷺ.

---

(١) رواه الطبراني.

والمرأة التقية إذا خانتها غيرتها حيناً تغلبت عليها في أكثر الأحيان، فيكون ما فعلته الغيرة، كسحابة صيف سرعان ما تزول وتنكشف!!!

١ ـ ومن تلك السحائب: أن النبي ﷺ دخل عليها يوماً فوجدها تبكي؛ فسألها: (ما يبكيك؟) قالت: بلغني أن عائشة وحفصة تنالان مني وتقولان: نحن خير من صفية، نحن بنات عمِّ رسول اللّه ﷺ وأزواجه!!

فقال رسول اللّه ﷺ: (ألا قلت لهما: كيف تكونان خيراً مني وأبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد؟!)[1].

وهو بهذا القول يسليها ويواسيها، ويعلمها كيف تواجههن بصدر رحب، وكيف تداعبهن وترد عليهن في تؤدة وهدوء!!!

وهو يعلم أنهن لا يردن بذلك إحراجها بقدر ما يردن مداعبتها؛ لأنهن جُبلن على التقوى ـ كما عرفنا ـ وأنهن يعرفن أن اللمز والهمز والتنابز بالألقاب من الأمور المحرمة.

٢ ـ وكانت صفية تجيد صنع الطعام، لأنها كانت من قوم يعدون في بيوتهم الموائد الشهية ذات الأصناف المتعددة، فصادف يوماً أن صنعت طعاماً فما إن مدَّ النبي الحبيب ﷺ إليه يده الشريفة حتى أخذت الغيرة عائشة رضي اللّه عنها؛ فأمسكت الإناء فكسرته بما فيه.

فقدر النبي ﷺ موقفها فعذرها، وهو الحليم الذي لا يدانيه أحد في خلقه العظيم ولو من بعيد.

فلما رأت عائشة رضي اللّه عنها سوء صنيعها وتحلّم النبي ﷺ عليها، راجعت نفسها، واعتذرت عما بدر عنها للرسول ﷺ ولصفية رضي اللّه عنها وقالت: يا رسول اللّه ما كفارة ما صنعت؟ فقال ﷺ: (إناء مثل إناء، وطعام مثل طعام)[2].

٣ ـ وقد كان النبي ﷺ يحرص كل الحرص على راحة صفية في بيتها أو في حِلّها وارتحالها، ويذود عنها ما تكره أن تراه أو تسمعه؛ شأنه في ذلك شأنه مع سائر نسائه، وكان ﷺ يدافع عنها إذا كادت لها واحدة من ضرائرها، وربما قاطع الواحدة منهن إذا منعتها رفدها أو أرادت إحراجها.

وروى ابن سعد في الطبقات أن رسول اللّه ﷺ كان في سفر ومعه صفية

---

(١) الإصابة ٨/ ١٢٧، والاستيعاب: ٤/ ١٨٧٢.

(٢) الحديث رواه أبو داود والنسائي وغيرهما.

وزينب بنت جحش؛ فاعتلّ بعير صفية وفي إبل زينب فضل، فقال لها: (إن بعير صفية اعتل، فلو أعطيتها بعيراً).

فأجابته في ازدراء وترفع: أنا أعطي تلك اليهودية؟! فولّى عنها رسول الله ﷺ مغضَباً، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها، أو قيل: فهجرها لذلك ذا الحجة ومحرم وبعض صفر، ثم أتاها بعد، وعاد إلى ما كان عليه معها.

٤ ـ وروى ابن سعد في الطبقات أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش رسول الله ﷺ في مرضه الأخير، فقالت صفية: إني والله يا نبي الله، لوددت أن الذي بك بي، فما كان من أزواجه إلا أن غمزن بأبصارهن، فما راعهن إلا أن قال ﷺ: (مضمضن!) فتساءلن في دهشة: من أي شيء يا رسول الله؟! فقال: (من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة).

السيدة صفية وحلمها العظيم:

روى ابن عبد البَر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة أن جارية لها أتت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، إن صفية تحب السبت وتصل اليهود! فبعث عمر رضي الله عنه إليها يسألها عن ذلك؛ فأجابت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً فأنا أصلها؛ ثم انثنت إلى جاريتها فسألتها عما حملها على مثل ذاك الافتراء؛ فأجابتها قائلة: الشيطان؛ فقالت لها صفية رضي الله عنها: اذهبي فأنت حرة لوجه الله!!!!

وهنا يتجلّى بوضوح حلمها الذي ملك عليها مشاعرها بعد أن أسلمت وجهها للّه عزّ وجلّ، واتخذت زوجها رسول الله ﷺ أسوتها في العفو والصفح والتسامح، ونفعها صدق يقينها بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنه كريم قد سبق عفوُه غضبَه.

فقد كانت تستطيع أن تفعل بها الأفاعيل أو تبيعها لأسوأ الناس خلقاً؛ عقوبة لها، ولكنها سارعت إلى مغفرة الله جلّ جلاله وجنته؛ فتخلقت بأوصاف المتقين، وهم الذين قال عزّ وجلّ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أسهمها الكبيرة في نشر العلم:

وقد كان للسيدة صفية أسهم كبيرة في نشر العلم الذي تلقته من رسول الله ﷺ، ولا سيما بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى؛ فقد رَوى عنها ابن أخيها ومولاها

كنانة ومولاها الآخر: يزيد بن معتب، والإمام زين العابدين علي بن الحسين، ومسلم بن صفوان في عدد من حفاظ التابعين رضي اللّه عنهم أجمعين.

وحديثها عن رسول اللّه ﷺ مخرَّج في كتب السنة: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن التِّرمذي وسنن أبي داود، وسنن النسائي وسنن ابن ماجه.

رفقه ﷺ ولطفه بالسيدة صفية:

روى عمر الملاء عن صفية رضي اللّه عنها قالت: حج رسول اللّه ﷺ بنسائه، فلما كان ببعض الطريق برك جملي، وكنت من أحسرهن[١] ظهراً فبكيت، فجاء النبي ﷺ وجعل يمسح دموعي بردائه ويده، وجعلت لا أزداد إلا بكاءً، وهو ﷺ ينهاني.

في إرادة احتباسه ﷺ وجملة الحجيج مراعاة لصفية رضي اللّه عنها؟!!

روى الشيخان وبقية الستة والإمامان مالك وأحمد عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: كنا نتخوف أن تحيض صفية قبل أن تفيض، قالت: فجاءنا رسول اللّه ﷺ فقال: (أحابستنا صفية؟) قلنا: قد فاضت. قال: (فلا، إذن)[٢].

خروجه ﷺ من معتكفه تكرمة لصفية رضي اللّه عنها؟!!

روى الشيخان عن صفية رضي اللّه عنها قالت: إنها جاءت إلى رسول اللّه ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ يقلبها[٣]، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة، مرّ رجلان من الأنصار، فسلّما على رسول اللّه ﷺ، فقال النبي ﷺ: (على رِسْلكما، إنما هي صفية بنت حيي). فقالا: سبحان اللّه يا رسول اللّه. كَبُر عليهما، فقال النبي ﷺ: (إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً)[٤].

---

(١) أحسرهن ظهراً: أي: أعياهن، يقال: حسرت دابته: أي: أعيت. وهي في المسند (أحسنهن). واللّه أعلم، والشرح من المصنف آخر الباب، والسمط الثمين/ ١٤١.

(٢) أخرجه البخاري في الحج، باب: إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت (١٧٥٧) ومسلم في الحج، باب: وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض (١٢١١) ٣٨٤، وأخرجه الترمذي (٩٤٣) في الحج، وأبو داود (٢٠٠٣) في المناسك والنسائي ١/ ١٩٤ في الحيض والإمام مالك في الموطأ١/ ٤١٢، والإمام أحمد في المسند ٦/ ٣٨.

(٣) قامت تنقلب: أي: ترد إلى بيتها. ويقلبها: يردها إلى منزلها. (من الفتح).

(٤) أخرجه البخاري في الاعتكاف، باب: هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد (٢٠٣٥)، ومسلم في السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة. . . (٢١٧٥)،

وفاتها رضي اللَّه عنها :

ماتت رضي اللَّه عنها سنة خمسين في رمضان، وقيل: سنة اثنتين وخمسين، ودفنت بالبقيع(١) .

قال ابن أبي خيثمة: بلغني أنها ماتت في زمن معاوية، وورثت مِائة ألف درهم بقيمة أرض وعَرَض، وأوصت لابن أختها بالثلث. وكان يهودياً(٢) .

فرضي اللَّه عن السيدة صفية أم المؤمنين وأرضاها، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وحشرنا وإياها تحت ظل عرش ربنا جلّ جلاله، يوم لا ظلّ إلا ظله، إنه نعم الولي ونعم النصير.

الحكمة من هذا الزواج :

إن زواج النبي ﷺ من صفية كان من أمر اللَّه عزّ وجلّ، وقد أشارت إليه رؤياها رضي اللَّه عنها التي رأتها في منامها.

وقد استكثر الصحابة رضي اللَّه عنهم أن تكون صفية لواحد منهم في القسمة، ورأوا أنها لا تصلح إلا لرسول اللَّه ﷺ، إنها سيدة بني النضير وبني قريظة، وبنت زعيمهم وسيدهم ومن أشرف البيوت، واستجاب النبي ﷺ لرأي أصحابه ورغبتهم، فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها، وجعل عتقَها صداقَها، ورأى في ذلك تكريماً لهذه العزيزة الشريفة في قومها، وتخفيفاً لمصابها في قتل أبيها وزوجها وبعض قومها في تلك الغزوة.

هذا، ولقد أحسن النبي ﷺ إلى من أساء إليه من اليهود، وكافأ هذه المرأة الصادقة على إسلامها وإيمانها التي اختارته ﷺ على أهلها وعشيرتها، ولقد دلّ هذا الزواج على عظمة النبي ﷺ وسمو أخلاقه، إذ أنه أراد أن يصل بهذا الزواج قوم صفية الذين دأبوا على عدائه ومخاصمته، غير أنهم لم يتحولوا عن عدائهم

وأبو داود في الصوم، باب: المعتكف يدخل البيت لحاجته (٢٤٧٠)، والإمام أحمد في المسند ٦/ ٣٣٧.

(١) القولان للواقدي كما في طبقات ابن سعد ٨/ ١٢٨ ـ ١٢٩، وعند البلادري في أنساب الأشراف ١/ ٤٤٤ إن وفاتها سنة خمسين قولاً واحداً، ورجحه الحافظ في فتح الباري عند شرحه لحديث البخاري السابق (٢٠٣٥) قلت: وذكر ابن الكثير في الفصول/ ٢٤٧/ والذهبي في السير٢/ ٢٣٥ قولاً آخر هو: (٣٦) أورده الحافظ أيضاً في الموضع السابق وعزاه ابن طولون في مرشد المحتار/ ٢٧٣/ إلى ابن حيان وابن منده. وهذا وذكر الأقوال الثلاثة ابن الجوزي في الصفوة ٢/ ٥٢ إلا أن الإمام النووي في تهذيبه ٢/ ٣٤٩ ضعف القول الأخير.

(٢) ذكره ابن سعد عن الواقدي ٨/ ١٢٨، وانظر عيون الأثر ٢/ ٣٠٨.

وعنادهم وحقدهم، بل استمروا على كيدهم وكفرهم، فذلك طبعهم الخبيث، ولؤمهم الخسيس الذي نشؤوا عليه[١].

حكم الزواج بالكتابيات:

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن الحكمة من زواج النبي ﷺ بصفية ـ وقد كانت يهودية ولم يتزوجها إلا بعد أن أسلمت ـ أن نقول: إن الأصل في الزواج من نساء أهل الكتاب عند جمهور المسلمين هو الإباحة، بدليل قوله تعالى:

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة: ٥].

وهذه الإباحة معتبرة بعدة قيود يجب ألا نُغفلها:

القيد الأول:

الاستيثاق من كونها كتابيةً، بمعنى أنها تؤمن بدين سماوي الأصل كاليهودية والمسيحية، فهي مؤمنة ـ في الجملة ـ باللّه ورسالاته والدار الآخرة، وليست ملحدة أو مرتدةً.

القيد الثاني:

أن تكون عفيفة محصنة، فإن اللّه جلّ جلاله لم يبح كل كتابية، بل قيد في آياته إباحية نفسها بالإحصان، حيث قال: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، قال ابن كثير: والظاهر أن المراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا، فلا يجوز للمسلم بحال أن يتزوج من فتاة تسلم زمامها لأي رجل، بل يجب أن تكون مستقيمة نظيفة بعيدة عن الشبهات، وهذا ما اختاره ابن كثير وذكر أنه رَأيُ الجمهور[٢].

القيد الثالث:

ألا تكون من قوم يعادون المسلمين ويحاربونهم، ولهذا فرق جماعة من الفقهاء بين الذمية والحربية، فأباحوا الزواج من الأولى، ومنعوا الثانية، وقد جاء هذا عن ابن عباس وتبعه جماعة من الصحابة والتابعين، منهم عليُ بن أبي طالب

---

(١) انظر: زوجات النبي ﷺ الطاهرات وحكمة تعددهن، محمد محمود الصواف، ص٧٦ ـ ٧٩، وتعدد الزوجات في الإسلام وحكمة تعدد زوجات النبي ﷺ، د. عبد اللّه ناصح علوان، ص٦٣، ٦٤، ونداء للجنس اللطيف: محمد رشيد رضا، ص٨٢، ٨٣، والرسول ﷺ، سعيد حوى، ص١٤٢، وشبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ، محمد على الصابوني، ص٢٨ ـ ٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠.

رضي اللّه عنه، وأيّد هذا الرأي أبو بكر بن العربي محتجاً له بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢].

القيد الرابع:

ألا يكون من وراء الزواج من الكتابية فتنةٌ ولا ضرر محقق أو مرجح، فإن استعمال المباحات كلِّها مقيد بعدم الضرر، فإذا تبين أن في إطلاق إستعمالها ضرراً عاماً، أو ضرراً خاصاً منعت منعاً خاصاً، وكلما عظم الضرر تأكد المنع والتحريم، وقد قال ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار)[١].

والضرر المتمثل هنا في انتشار الزواج من غير المسلمات، قد يكون في كساد سوق الفتيات المسلمات أو كثير منهن، وفي ذلك فتنة للنساء المسلمات، وقد يكون في تعاطي الزنا منهن لعدم الزواج. وكلتاهما مفسدة ينبغي أن تمنع قبل وقوعها، عملاً بسد الذرائع.

وعليه، فإن الزواج من غير المسلمات في عصرنا ينبغي أن يمنع سداً للذريعة إلى ألوان شتى من الضرر والفساد، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، ولا يسوغ القول بجوازه إلا لضرورة قاهرة أو حاجة ملحة، وهو يقدر بقدرها[٢].

(١) الدارقطني في سننه ٣/ ٧٧ (٢٨٨)، ومالك في الموطأ ٢/ ٧٤٥ (٣١).
(٢) انظر بتوسع في: فتاوي معاصرة، د. يوسف القرضاوي ١/ ٤٦٦ ـ ٤٧٦.

أمُّ المُؤْمِنِيْنَ السَّيدةُ (أمُّ حَبِيْبَةَ) القرشيّةُ العدويّةُ رملةُ بنتُ أبي سفيانَ

رضيَ اللّهُ عنْهما

اسمها ونسبها:

هي رملة بنت أبي سفيان، وهو المشهور وقيل: اسمها: هند، والصحيح: رملة وبه قال الكثيرون[١].

والدها:

أما أبوها فهو: أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكان أبوها زعيم قريش ورأس المشركين إلى ما قبل الفتح.

أمها:

وأما أمها فهي: صفية بنت أبي العاص بن أمية، عمة عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه، وهي من بنات عم الرسول ﷺ[٢].

كنيتها:

أم حبيبة، من زوجها قبل رسولِ اللَّه ﷺ، وهو عبيد اللَّه بن جحش الأسدي، أسد خزيمة. وكان قد خرج بها من مكة مهاجراً إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وتنصر هناك وأكب على الخمر حتى مات عنها على النصرانية، وأبت أم حبيبة متابعة زوجها فيما ذهب إليه، وثبتت على الإسلام، فأتم اللَّه تعالى لها الإسلام والهجرة حتى قدمت المدينة المنورة.

رؤياها وتأويلها:

قالت أم حبيبة رضي اللَّه عنها: (رأيت في النوم كأن عبيد اللَّه بن جحش

---

(١) تهذيب الإمام النووي ٢/ ٣٥٩.

(٢) قاله الذهبي في السير ٢/ ٢١٩.

زوجي بأسوأ صورة وأشوهها، ففزعت، فقلت: تغيرت والله حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة، إني نظرت في الدين فلم أرَ ديناً خيراً من النصرانية، وكنت قد ذممتها، ثم دخلت في دين محمد ﷺ، ثم رجعت إلى النصرانية، فقلت: والله ماهو خير لك، أخبرته بالرؤيا ما رأت له، فلم يحفِل بها، وأكب على الخمر حتى مات[١]. وتتابع ما رأته في الرؤيا بعد وفاة زوجها فتقول:

رأيت في النوم كأن آتياً يقول: يا أم المؤمنين، ففزعت، فأولتها أن رسول الله ﷺ يتزوجني. فما هي إلا برهة إلا أن انقضت عدتي، فما شعرت إلا برسول النجاشي على بابي يستأذن، فإذا جارية له يقال لها أبرهة، كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فدخلت عليَّ فقالت: إن الملك يقول لك: إن رسول الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوجك، فقلت: بشّرك الله بخير..

كانت أم حبيبة تعيش في مهاجرها بالحبشة، محنة قاسية جراء ردة زوجها إلى النصرانية، ولكن إيمانها القوي بالله عز وجل منحها ما تحتاج إليه من الصبر والثبات، وتمثلت قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

حبيب الله محمد ﷺ يخطبها من النجاشي:

وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فزوجه إياها وأجرى العقد خالد بن سعيد بن العاص، وأصدقها النجاشي عن رسول الله ﷺ أربعمِائة دينار، وبعث معها شرحبيل بن حَسَنة، وجهزها من عنده[٢].

امتداح أبيها وهو مشرك زواجَها من سيد الكائنات ﷺ:

وروى ابن أبي خيثمة عن مصعب الزبيري قال: تزوج الرسول ﷺ أم حبيبة، زوجه إياها النجاشي، فقيل لأبي سفيان يومئذ ـ وهو مشرك محارب لرسول الله ﷺ ـ إن محمداً قد نكح ابنتك. قال: فذاك الفحل، لا يُقدَعُ أنفه!![٣].

قال: ودخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة، فسُمع يمازح النبيّ ﷺ وهو يقول: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة![٤].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر.
(٢) ذكر النووي في التهذيب ٢/ ٣٥٩ قال الكلاباذي: أمهرها النجاشي أربعة آلاف درهم، وقال أبو نعيم: أمهرها النجاشي أربعمائه دينار، وهذا أنسب والله أعلم.
(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ٩٩، والحاكم ٤/ ٢٢، وفي الاستيعاب ٤/ ١٨٤٤.
(٤) وهي كنية أبي سفيان كما في الإصابة ٣/ ٤١٤، والإصابة ٧/ ١٨١.

موقف مشرِّف من السيدة أم حبيبة:

وقد أورد ابن الجوزي في صفة الصفوة عن الزُهري قال: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة، جاء إلى رسول اللّه ﷺ، وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية، فلم يقبل عليه رسول اللّه ﷺ، فقام ودخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول اللّه ﷺ، وأنت امرؤ نجس مشرك؟!!! فقال: يابنية لقد أصابك بعدي شر!!(١).

تزويج النبي ﷺ لها مِن قِبَل النجاشي:

وروي أن خادمة النجاشي (أبرهة) حين قرعت باب أم حبيبة لتبشرها بخِطبة رسول اللّه ﷺ لها، قالت لها بعد دخولها: يا أم حبيبة: يقول لك الملك: وكّلي من يزوجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته.

إهداؤها بعضَ الهدايا لخادمة النجاشي:

وأعطت (أبرهة) سوارين من فضة وخدمتين (خَلْخَالين) وخواتم من فضة سروراً بما بشرت به(٢).

خُطبة عصماءُ من النجاشي رضي اللّه عنه في وليمة زواجها للنبي ﷺ!!!

فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومَنْ هناك من المسلمين، فحضروا، فخطب النجاشي، فقال: الحمد للّه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه الذي بشَّر به عيسى بن مريم عليه السلام، أما بعد: فإن رسول اللّه ﷺ، كتب إليَّ أن أزوجه أمّ حبيبة بنتَ أبي سفيان، فأجبت إلى ما دعا إليه رسول اللّه ﷺ، وقد أصدقتها أربعمِائة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم، فقدِم خالد بن سعيد بن العاص وكيلُ أم حبيبة، فقال: الحمد للّه أحمده وأستعينه وأستنصره، وأشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول اللّه ﷺ وزوَّجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك اللّه لرسوله الكريم ﷺ. ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها منه

---

(١) صفة الصفوة ٢/٤٦، وطبقات ابن سعد ٨/ ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) الإصابة ٤/٤٨، والسمط الثمين ٦٧.

ومن ثَمَّ أرادوا أن يقوموا، فقال الملك النجاشي: اجلسوا فإن من سنة الأنبياء أن يؤكل طعام على التزويج، فدعا بطعام، فأكلوا.

النجاشي رضي اللّه عنه يأمر نساءه بإهدائها العطر:

ولما انتهت الوليمة أمر النجاشي رضي اللّه عنه نساءه أن يبعثن إلى أم حبيبة بعطر كثير، حتى إذا كان الغد، وردها عود وورس وعنبر وزُبّاد كثير: فقدمت بها على النبي ﷺ فكان يراه عليها وعندها لا ينكره. ولما وصلت أم حبيبة أمر رسول اللّه ﷺ بلالاً فأخذ خطام بعيرها، وأنزلها المنزل الذي أمره النبي ﷺ.

وتصبح أمُّ حبيبة أمّاً للمؤمنين:

وبنى بها الرسول ﷺ في السنة السابعة للهجرة بعد صلح الحديبية، وعاشت في دور النبوة في كنف رسول اللّه ﷺ تحفها أنوار الإسلام وأضواء الإيمان من كل جانب.

القرآن يتكلّم بزواجها من سيد الكائنات ﷺ:

روى ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧].

نزلت حين تزوج النبيّ ﷺ أم حبيبة بنتَ أبي سفيان(١).

فضائلها وورعها:

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: دعتني أم حبيبة زوج النبي ﷺ عند موتها فقالت: قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر اللّه ذلك كله، وتجاوزه، وحلّلتك من ذلك كله. فقالت عائشة رضي اللّه عنها: سررتني سرّك اللّه، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك(٢). فحللتها عائشة واستغفرت لها، وعن زينب بنت أبي سلمة، قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبوسفيان بن حرب، فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة، خَلوق أوغيره، فدهنت منه جارية ثم مسّت بعارضيها، ثم قالت: واللّه مالي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (لا يحل لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث ليالٍ، إلّا على زوج أربعة أشهر وعشراً)(٣).

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٩٩.

(٢) أخرجه الحاكم ٤/ ٢٢ ـ ٢٣، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٢/ ٤٦، وطبقات ابن سعد ٨/ ١٠٠، وهذا الأثر يدل على ورعها ودينها رضي اللّه عنها.

(٣) رواه البخاري برقم ٥٠٢٤.

روى مسلم عن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس، قال: حدثني عنبسة ابن أبي سفيان، في مرضه الذي مات فيه، في حديث يتسارّ إليه، قال: سمعت أم حبيبة تقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: (من صلَّى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة، بنى اللَّه له بهن بيتاً في الجنة).

قالت أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول اللَّه ﷺ.

وقال عنبسة: فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة.

وقال عمرو بن أوس: ماتركتهن منذ سمعتهن من عنبسة.

وقال النعمان بن سالم: ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس[١].

استجابة اللَّه تعالى لدعائها:

عن حميد بن هلال قال: لما حوصر عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه أتته أم المؤمنين (أم حبيبة) فجاء رجل فاطلع في خدرها فجعل ينعتها للناس، فقالت: ما له قطع اللَّه يده وأبدى عورته؟.. قال: فدخل عليه داخل، فضربه بالسيف فألقى بيمينه فقطع، فانطلق هارباً آخذاً إزاره بفيه أو بشماله بادية عورته!!!

وفاتها:

وروى أبو عمر وابن الجوزي أن وفاة أم حبيبة رضي اللَّه عنها كانت سنة أربع وأربعين في خلافة معاوية. رحمها اللَّه وجعل مستقرها الجنة.

---

(١) رواه مسلم برقم ٧٢٨/ ١٠٤.

أمُّ المُؤْمِنِيْنَ
السَّيدةُ مَيْمُوْنَةُ بِنْتُ الحَارِثِ
رضيَ اللَّهُ عنْها

كانت زوجاً لأبي رُهْم بن عبد العزى، فتوفي عنها وبقيت أرملة تعيش في مكة بجوار أختها أم الفضل بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب رضي اللّه عنه. كان سنها يتجاوز خمسة وثلاثين عاماً، وقررت أن تتجاوز بقية حياتها بعيدة عن بهارج الدنيا وأضوائها، وإن كانت مَنْ في مثل سنها تتطلع إليها الأنظار.

قلب واحد كان يعيش مأساتَها ويفكر أن يبعث فيها الحياة والبهجة هو قلب رسول اللّه الرحيم ﷺ، الذي كان يحيا حياة كل بائس من أصحابه.

وحواجز الصحراء والجبال بين مكة والمدينة، وطبيعة الصراع بين المدينتين، جعل دون التئام هذا الجرح في قلب بَرّة بنت الحارث عقباتٍ و عقباتٍ!!!

ومن أجل هذا، ما أن عقدت هدنة الحديبية بين المسلمين والمشركين؛ حتى تفتح الأمل من جديد عند رسول اللّه ﷺ في أن يأسوَ جراح هذه المسلمة البائسة، وحانت المناسبة.

أمها:

وأما أمها: فكانت تدعى: هنداً بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة ابن حمير.

أخواتها:

أم الفضل لبابة الكبرى، زوج العباس رضي اللّه عنه.

ولبابة الصغرى، زوج الوليد بن المغيرة المخزومي، وأم خالد بن الوليد رضي اللّه عنه.

وعصماء بنت الحارث، زوج أُبيّ بن خلف، ولدت له أبا أبي.

وغرة بنت الحارث، زوج زياد بن عبد اللّه بن مالك الهلالي. وهؤلاء هم أخواتها لأبيها وأمها.

أما أخواتها لأمها فهن: أسماء بنت عُميس، زوج عبدالله بن كعب بن منبه الخثعمي.

وكان يقال: أكرم عجوز في الأرض أصهاراً: هند بنت عوف، أصهارها: رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب، وجعفر وعلي ابنا أبي طالب، وشداد بن الهاد.

زواجها قبل النبي ﷺ:

كان زوجُها قبل النبي ﷺ أبا رُهْم ابن عبد العزى العامري القرشي من بني مالك بن حِسل، وقيل: كانت عند غيره.

تزويج النبي ﷺ بها:

وروي عن قتادة قال: تزوج رسول الله ﷺ حين اعتمر بمكة ميمونة بنت الحارث، وهبت نفسها للنبي ﷺ، وفيها نزلت: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

ثم سارت معه إلى المدينة، وكانت قبله عند فروة بن عبد العزى بن أسد بن غنم بن دودان[١].

وجاء عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أنه قال: (لما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، توجه إلى مكة معتمرًا سنة سبع، وقدم عليه جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فخطب عليه ميمونة بنت الحارث الهلالية، وكانت أختها لأمها أسماءُ بنت عُميس عند جعفر، فأجابت جعفراً إلى التزويج برسول الله ﷺ، وجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، فأنكحها العباسُ النبي ﷺ وهو محرم (في عمرة القضية سنة ثمان) فلما رجع بنى بها بسَرِف، وكانت قبله عند أبي رُهْم بن عبد العزى بن عامر بن لؤي، ويقال: (بل عند سبرة بن أبي رهم)[٢].

فالمسلمون يتأهبون لدخول مكة معتمرين بناء على الاتفاق الذي تم في الحديبية، وقلوبهم تتلهف لرؤية البيت الحرام كما وعدهم ربهم جلّ جلاله:

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ٢٧].

وتحقق موعود الله في الفتح القريب. وسقطت خيبر صريعة تحت سنابك خيل المسلمين.

---

(١) أخرجه أبو عمر في الإستيعاب ٤/١٩١٧، وابن الأثير في أسد الغابة ٧/٢٧٤، والإصابة ٨/١٩٧.
(٢) أبو عبيدة في تسمية أزواج النبي ﷺ/٦٧، والإستيعاب ٤/١٩١٦.

وحان وقت موعود الله بدخول مكة آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصرين.

وفي غمرة هذه البهجة وهذه السعادة الغامرة، بالاتجاه إلى مكة، لم ينس رسول الله ﷺ ذلك القلب البائس في مكة، قلب برة بنت الحارث، فبعث بين يديه أبا رافع مولاه وأوس بن خولي يخطبان برة لرسول الله ﷺ.

لما أراد رسول الله الخروج إلى مكة عام القضية بعث أوس بن خولي وأبا رافع إلى العباس فزوجه ميمونة...

وتعثرت خطوة الرسولين فأضلا بعيريهما، فأقاما أيامًا ببطن رابغ حتى أدركهما رسول الله ﷺ بقُديد، قد ضما بعيريهما، فسارا معه حتى قدم مكة.

وتجاوبت أصداء مكة بالتكبير والتوحيد من المسلمين، والمشركون جالسون ينظرون بعيون زائغة، هذه الكتيبة المسلمة، التي تجرح كبرياءهم بإعلان عقيدتها المناقضة لعقيدة الآباء والأجداد، ولكنهم لا يملكون حَراكاً، فهم قد كتبوا على أنفسهم صك الهزيمة، وكان العباس بن عبد المطلب يكاد يطال الثريّا سروراً بانتصار ابن أخيه ﷺ.

وقبل اللقاء المنتظر الذي يتلهف العباس رضي الله عنه له ويحن شوقًا إليه، أرسل له رسول الله ﷺ، وطار العباس رضي الله عنه بأسعد نبأ إلى بنت الحارث، فلم تتمالك في نشوة الفرحة أن تركت أمرها كله لرسول الله ﷺ، وجاء رسول الله منزل العباس فخطبها إلى العباس فزوجها إياه.

وكانت الأيام الثلاثة التي نَصّ عليها عهدُ الحديبية قد قاربت نهايتها، فود الرسول ﷺ لو يمهله المكيون ريثما يتم الزواج، فيكسب بهذا الإمهال مزيدًا من الوقت، ليمكِّن للإسلام من هؤلاء الذين يكفرون بألسنتهم عناداً وحسداً.

فلما جاء رسولا قريش يطلبان إليه أن يخرج، إذ انقضى الأجل المنصوص عليه في العهد، قال مسالماً: ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟

لكن رسولَيْ قريش أدركا أن مكة لن تلبثَ أن تفتح أبوابها لمحمد ﷺ طائعة، إذا امتد مُقامه أياماً أخرياتٍ. وأجابا في جفاء: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا!!

فنزل الرسول ﷺ على كلمتهما وفاء بعهده، وأَذَّن في المسلمين بالرحيل مخلفًا مولاه أبا رافع بمكة ليلحق به في صحبة بَرّة(١).

---

(١) عن كتاب نساء النبي ﷺ للدكتورة بنت الشاطئ.

وخارج مكة في سَرِف، بنى رسول اللَّه ﷺ ببرة بنت الحارث في قبة لها هناك. وكانت الذكرى السعيدة الخالدة الميمونة.

برة بنت الحارث، كان يمكن أن تكون نكرةً في التاريخ، فإذا بها اليوم زوجةٌ لرسول اللَّه ﷺ، وأمٌ للمؤمنين في الأرض إلى يوم الدين.

وكانت ذكرى ميمونة لرسول اللَّه ﷺ، أن تم زواجه من برة بعد أن أقر اللَّه عينه وعين الثُّلة المؤمنة في الأرض بدخول مكة بعد حرمان طال عشر سنين.

وكان دخولاًمظفَراً ولا شك، بعد أن غادروا سراً متوارين من جحيم إيذاء قريش إلى أن عادوا وقريش مقهورة لا تملك حولاً ولا قوة.

ذكرى ميمونة فعلاً لا للجماعة المؤمنة في الأرض آنذاك، بل للمؤمنين في الأرض إلى يوم الدين.

دخلت ميمونة رضي اللَّه عنها بيت النبي ﷺ، وهي تعلم أن لها شريكاتٍ كثيراتٍ فيه.

وقد اطمأنت نفسها بأن يكون لها ليلة من تسع ليال يأوي رسول اللَّه ﷺ إليها فيها، فهي تعلم عدله عليه الصلاة والسلام بين أزواجه فيما يملك.

إن الأمر عند ميمونة أكبرُ بكثير من قضاء وَطَر في ليلة، ولو كانت هذه غايَتَها لوجدت الكثير من الرجال من يمضي كل لياليه معها إذا تزوجته، ولكن أن تنتقل من امرأة مغمورة تتعامل مع رجل من عامة الناس مهما كانت عظمته، إلى امرأة تكون زوجًا لرسول اللَّه ﷺ سيد ولد آدم، وتكون أمًا للمؤمنين في الأرض إلى يوم الدين، وزوجًا لرسول اللَّه ﷺ في الجنة، فهذا أشرف ما تحلم به أنثى في الوجود، ومن أجل هذا، فلقد غامرت كثيراً في أن تهب نفسها للنبي ﷺ، وكم تثار الأقاويل عليها لو فعلت ذلك، سوف تتحدى هذه الأقاويل وترجو ضارعة إلى ربها أن يتقبلها رسول اللَّه ﷺ بين أزواجه.

وتقول بعض الروايات: إنها هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وفيها نزل قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

السيدة ميمونة في بيت سيد الأنام محمد ﷺ:

ما أحلى تلك الليلة التي يخلو فيها رسول اللَّه ﷺ معها وحدها من دون الناس تحدثه، تستمع منه، يرق قلبه لها، أهي هي التي نالت هذا الشرف، تتمنى لو يكون عمرها هذه الليلة، أن تستأثر برسول اللَّه ﷺ وحدها ولا يطلع الصبح

عليها، وهي تصغي لرسول اللّه ﷺ يحدثها ويَبَشُّ لها وتنبسط أساريره لها، وعلى أكتافه أعباء الأمة كلها!!

ومن أجل هذا، لا تنسى ميمونة تلك الليلة الشجية من لياليها.

بينما رسول اللّه ﷺ معها يحادثها وينبسط لها، إذ بها تحس أن وجهه الشريف قد تغير شيئاً ما!! ثم قامَ وغادر حجرتها.

ويالَوقع الصاعقة على رأس ميمونة!!

ترى، هل ملّ منها وتضايق؟! نعم هناك ما يوحي بذلك، وقامت منزعجة إلى باب الحجرة فأقفلته، وارتمت على الأرض مستسلمة لدموعها وآلامها وهواجسها تسأل نفسها: رباه ماذا فعلت؟ هل أسأت إليه بشيء؟

واستعرضت شريط ذكرياتها، فلم تجد شيئاً فاهت به وأخطأت فيه.

ما الأمر؟

وراح الشيطان يوسوس لها ويعظم الأمر عليها، لقد تركك ومضى إلى زوجة أخرى من زوجاته!!

هل هنتِ عليه إلى هذا الحد أن لا يستأذنك في الخروج، وأي شيء جنيت حتى يقسوَ عليك هذه القسوة؟

لك اللّه يا ميمونة.

صحت من هواجسها فزعة على الباب يطرق، فانتبهت مذعورة، وسألت، فعرفت أنه رسول اللّه ﷺ قد عاد، وكانت لحظة عنيفة قاسية!

هل تتنازل عن حقها لأخواتها، وجدت قلبها يضن برسول اللّه ﷺ عنهن فلم تفتح له. قال ﷺ: (أقسمت إلا فتحته لي).

فأجابته: تذهب إلى أزواجك في ليلتي هذه.

(قال: ما فعلت ولكن وجدت حَقْنًا من بولي)

وهبطت حدة انفعالها كلها، وفتحت الباب، واطمأنت أنها لا تزال أثيرة عنده.

مالها وللدنيا، لقد قبضت بيدها عز الدنيا كله، بعد أن صارت زوجًا لرسول اللّه ﷺ، فلتلتفت إذًا إلى أعمال الخير.

إن مقامها العالي في الدنيا يقتضي أن تحافظ على مقامها العالي في الآخرة، إنها لكي تصل إلى مستوى زوج رسول اللّه ﷺ في الجنة فلا بد من أن تتوجه بكليتها إلى أعمال البر.

فماذا تفعل؟؟

بحثت حواليها. فلم تجد نفسها تملك إلا جارية لها جلدة لبيبة، تقضي لها حوائجها، وتلبي طلباتِها وتهيء لها راحتها ومتعتها، وفكرت في الأمر كثيراً، هذا رأسمالها كله مالٌ ومتعة من الدنيا، ولكن هذه الجارية كذلك، إنسان يحس، يتألم ويفرح، يرضى ويغضب، وقد سمعت حديث رسول اللَّه ﷺ: (من أعتق رقبة مسلمة أعتق اللَّه بكل عضو منه عضواً منه في النار حتى فرجه بفرجه)[١].

ففي عتق هذه الجارية إذًا بكل ما تملك عتقٌ لها، ليكون لها حق مرافقة النبي ﷺ في الجنة.

ولم تنتظر طويلاً، ولم تتردد.

وجاء رسول اللَّه ﷺ إلى ميمونة الطالع، إلى سعيدة الحظ إلى ميمونة بنت الحارث. ووجدها تقوم هي لتخدُم نفسها بنفسها، فسأل باستغراب ودهشة عن الجارية؟ قالت: أعتقتها؟!! قال: قد كانت جَلْدة، ولو كنتِ وضعتها في ذي قرابتك كان أمثل.

ولم يتغير شيء من الأمر فهي غير نادمة على العتق، رجاء أن يعتق اللَّه بكل عضوٍ منها عضواً من النار.

وعكفت ميمونة على العبادة منيبة إلى ربها جلّ جلاله ضارعة إليه شاكرة له، ترى بأمّ عينها عظمة نعمة اللَّه سبحانه وتعالى عليها، في القليل والكثير، في أمثال الذرات وأمثال الجبال.

أمُّ المؤمنين وحبّة الرمان:

فليس البِر محصوراً في عتق الرقاب بل هناك أبواب وأبواب، هناك حبة الرمان!!!

وقبل الحديث عن حبة الرمان تطالعنا آلاف المشاهد بكل أسف. ومعظم الطعام الدسم مرمي مع النُّفايات. نجد أماكن القُمامة ملأى كل يوم بأفخر المطاعم التي يأنف أصحابها أن يأكلوها، لأن الأيدي امتدت إليها أول مرة.. بل نجد أحياناً اللحم والرُّزَ عقب المآدب الكبرى مصيره إلى صناديق القمامة!!

ما هذا؟

---

(١) متفق عليه.

نسأل ميمونة رضي اللّه عنها التي رأت حبة رمان في الأرض حبة. . . . فأخذتها وقالت: إن اللّه لا يحب الفساد!!!

والتي تحيا مع حبة الرمان وترى فيها فسادًا إن ألقيت في الأرض، لا غرو أن نجدها تهتز لكل فساد جلّ أو صغر. وترتعش مشاعرها رهبة من اللّه عزّ وجلّ في أن تُنتهك حرماته، وما أحد مثل ميمونة يحب أقرباءه ويرعاهم.

وستأتينا أضخم شهادة بذلك.

ورعها رضي اللّه عنها:

يدخل عليها قريب لها مَحْرَم فوجدت منه ريح شراب.

ترى هل أستمرأ أقاربها ودّها وبرها إلى حدّ أن يدخلوا عليها وفي أفواههم آثار المعصية؟! هل يخطر ببالهم أن ميمونة الوفية الحنون الرؤوم كأنها أم كل قريب يمكن أن تغضب؟ نعم، ولكن للّه وحده. فماذا فعلت بنت الحارث؟

غدت إنسانًا آخر، غدت لهبًا مشتعلاً غضباً للّه، ونسيت قرابتها ولطفها وحنانها وقالت بما لا يقبل المساومة: لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك (أو قالت فيطهروك) لا تدخل عليّ بيتي أبداً. هكذا تربت على يدي رسول اللّه ﷺ، الذي كان لا يغضب إلا اللّه.

(وما نيل منه شيء قط فينتقمَ من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم اللّه تعالى فينتقم للّه تعالى)[١].

أحب رسول اللّه ﷺ السواك فأحبته، فكان سواكها دائمًا منقعاً في ماء، فإن شغلها عمل أو صلاة وإلا أخذته فاستاكت به، ولم لا؟ وقد سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (السواك مَطْهرة للفم ومَرْضاة للرب)[٢].

فلِمَ لا تكون دائماً في مرضاة اللّه سبحانه وتعالى؟

لن تنسى أبدًا تلك الساعة الميمونة، التي أصبحت بعدها ميمونةَ لا برةَ، وذلك المكان الميمون سَرِف الذي بنى بها فيه رسول اللّه ﷺ، وودعت أحلامها بعد رسول اللّه ﷺ، وقد عزفت نفسُها عن الدنيا وشهواتها، وأقامت في محرابها طائعة للّه عابدة متبتلة. إلا حلما واحداً ما زال يرف على خيالها، جعلته وصية لها بعد موتها أن تدفن بسَرِف حيث بنى بها رسول اللّه ﷺ.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد والشافعي والنسائي وابن ماجه.

وجاء الأجل المحتوم:

وعُمِّرت ميمونة بعد رسول اللّه ﷺ خمسين عاماً حتى جاء الأجل، وكان على رأس مشييعيها حِبْرُ الأمة عبد اللّه بن عباس وترجمان القرآن رضي اللّه عنه، إنه ابن أختها الذي تربى في حجرها. الذي طالما بات عند خالته ميمونة تعطيه قبضةً من زبيب، أو تطعمه المدخر من القوت، ترغبه في المراح في بيت النبوة يتلقى العلم فيه، ولن ينسى يوم أن شدَّ رسول اللّه ﷺ أذنه ونقله إلى يمينه في الصلاة.

ها هو الآن يودع خالته إلى مشوارها إلى الآخرة والدموع ملء مآقيه. يحدثنا ابن أختها الأخر يزيد بن الأصم عن لحظاتها الأخيرة قبل الوداع فيقول: (دفنّا ميمونة بسرف في الظلة التي بنى فيها رسول اللّه ﷺ) وكانت يوم ماتت مقصرة قد قصرت من الحج، فنزلنا في قبرها أنا وابن عباس، فلما وضعناها مال رأسها فأخذت ردائي فوضعته تحت رأسها، فانتزعه ابن عباس فألقاه ووضع تحت رأسها حجرًا.

ولم ينس ابن عباس رضي اللّه عنه أن يعيد إلى الأذهان صورة ميمونة أمّ المؤمنين فقال للذين يحملون نعشها: ارفقوا بها فإنها أمكم.

فرضي اللّه عن ميمونة، وجعل روحها في الخالدين، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وجعلها في مستقر رحمته، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، ونحن معها.. إنه سميع مجيب.

أمُّ المُؤْمنيْنَ
السَّيدةُ ماريّةُ القبْطِيَّة
رضيَ اللَّهُ عنْها

روى ابن أبي خيثمة عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال: كان لرسول اللّه ﷺ أربع ولائد:

مارية القبطية ـ و ـ ريحانة من بني قريظة أومن بني النضير على خلاف ذلك. وكانت له جارية أخرى جميلة، أصابها في السبي، فكادها نساؤه، وخشين أن تغلبهن عليه. وكانت له جارية أخرى نفيسة، وهبتها له زينب بنت جحش، وكان هجرها في صفية بنت حُيَيّ ذا الحجة ومحرم وصفر، فلما كان في شهر ربيع الأول الذي قبض فيه النبي ﷺ رضي عن زينب، ودخل عليها، فقالت: ما أدري ما أجزيك به؟ فوهبتها له، انتهى كلام أبي عبيدة[١].

اسمها واسم أبيها:

مارية القبطية بنت شمعون رضي اللّه عنها.

المصلح العظيم ﷺ يبعث رسالة إلى المقوقس:

أرسل رسول اللّه ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه فيها إلى الإسلام، جاء فيها: (بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد اللّه إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[٢].

وكان حاطب بن أبي بلتعة، رسولَ رسول اللّه ﷺ إلى المقوقس، ولما

---

(١) السمط الثمين/ ١٦٢، زاد المعاد ١/ ١١٤، تلقيح فهوم أهل الأثر ٢٨.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٨٥، والمحبر ٩٨، وعين الأثر ٢/ ٢٦٦. والآية/ ٦٤/ آل عمران.

سلمه الرسالة قرأها عظيم القبط بعناية وتقدير، ثم دعا كاتبه، وأملى عليه الرد التالي:

المقوقس يقرأ الكتاب، لكنه لم يسلم:

أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت من ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوة ومطية لتركبها، والسلام عليك.

وعاد حاطب إلى المدينة بكتاب المقوقس إلى رسول اللّه ﷺ، مصطحباً معه ماريّة وأختها سيرين وعبداً خصياً يدعى مابور، وألف مثقال ذهباً وعشرية ثوباً ليناً من نسيج مصر، وبغلة شهباء (دُلْدُل) وجانباً من عسل بنها وبعض العود والمسك والند. واصطفى رسول اللّه ﷺ مارية لنفسه ووهب أختها سيرين لشاعره حسان بن ثابت ووزع باقي الهدايا. وأنزل ماريّة في العالية، في مشْرَبة أم إبراهيم. وأسلمت مارية وأختها سيرين، وضرب عليها الحجاب ولم يكن لها هم إلا إرضاء سيدها وحبيبها ﷺ.

السيدة مارية تزفّ بشرى الحمل إلى الحبيب ﷺ:

وذات مساء زفت مارية إلى سيدها أجمل بشرى، إنها حامل، وكانت فرحة عظيمة، وخبراً ساراً استقبله النبيّ ﷺ بحمد اللّه والشكر له جلّ جلاله. وسمع أهل المدينة بالخبر، وعم النفوس البشر والسرور، وأما نساؤه فقد نالهن الحزن، لأن كلاً منهن كانت تطمح لمثل هذه العطيّة وتعيش على أمل أن تمنحه منها الولد.

ويفجع قلب النبي ﷺ بوفاة ولده إبراهيم:

ولما بلغ إبراهيم من العمر سنتين، مرض مرضاً شديداً فأرسلت أمه مارية إلى أبيه رسول اللّه ﷺ حتى يراه.

يقول أنس: لقد رأيته ـ أي: إبراهيمَ ـ وهو يكيد نفسه، وهو في النزع ـ بين يدي رسول اللّه ﷺ، فدمعت عينا رسول اللّه ﷺ فقال: (تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، واللّه! إنا بك لمحزونون)[(١)].

وشاع خبر وفاة إبراهيم، وصادف الخبرَ كسوفٌ للشمس، فقال بعض الناس: كَسَفت الشمس لموت إبراهيم! وكان الرد من النبي ﷺ وشيكاً، في حديث صحيح أورده الإمام البخاري.

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل برقم ٢٣١٥/ ٦٢.

عن المغيرة بن شعبة قال: كسفت الشمس على عهد رسول اللّه ﷺ يوم مات إبراهيم فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول اللّه ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلّوا وادعو اللّه»[1] .

وودعت مارية وحيدها، وأخذت تردد قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ .

حتى إذا استمرت على صبرها ورضاها بقضاء اللّه وقدره جاءها ما أنساها حزنها على ولدها إبراهيم، وأي شيء أعظم من فقد إبراهيم إلا رحيل أبي إبراهيم، محمد ﷺ ؟

وفاتها ولحوقها بالرفيق الأعلى:

لكنها بقيت محافظة على عهده دائبة على إخلاصها للّه ولرسوله ﷺ حتى أتاها اليقين، بعد قرابة خمس سنوات من وفاة مولاها رسول اللّه ﷺ. ففي سنة ست عشرة للهجرة ـ وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ـ أسلمت أم إبراهيم روحها إلى بارئها سبحانه وتعالى، فحشد الناس لجنازتها ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضوان اللّه عليهن أجمعين.

رحم اللّه أمَّ إبراهيم ماريّة وأسكنها فسيح جناته، وجعلها في أعلى عليين وجمعنا بها وبحبيبها محمد ﷺ تحت ظل عرش ربنا جلّ جلاله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الكسوف برقم ٩٩٦.

القسم الرابع

بَناتُ النبيِّ الحبيبِ ﷺ

١ ـ زَيْنَبُ الكُبْرَى (بكر سيد ولد آدم ﷺ)

٢ ـ رُقَيَّةُ (ذات الهجرتين)

٣ ـ أمُّ كُلثوم (الصابرة المحاصرة)

٤ ـ فاطمةُ الزهراء (سيدة نساء أهل الجنة)

الطَّاهِرَةُ
زَيْنَبُ الكُبْرَى
رضيَ اللَّهُ عنها

بشرى أول حمل لسيد الكائنات محمد ﷺ:

وانبسطت أسارير وجه الطاهرة أم المؤمنين خديجة بالفرح والسرور وراحت تهتز طرباً حين أفضت إلى زوجها ﷺ بسرّ حملها.

لقد حملت من سيد العالمين، ومبشر الأمة بدين الإسلام، خاتم النبيين ﷺ، إن هي إلا شهور قليلة حتى تضع مافي بطنها..

فهي تشعر في صميم وجودها بأن حَملها وإنجابها ذرية من محمد الأمين ﷺ، شيء يختلف عن إنجابها السابق، شيء رائع يثلج الصدر، ويشرق النفس بآمال عظيمة كبيرة..

وأطلق ﷺ لخياله العنان، فقد كانت فرحته عظيمة بالنبأ السار العظيم. فذاك المولود الذي في بطن زوجه المخلصة الطاهرة هو الإبن والأخ والحبيب.

وما هو ﷺ إلّا بشر، له الإحساس بروح الأبوة وله فرحته الكبيرة، عندما تكون له الأسرة والأولاد، يرعاهم برعايته الكبيرة، ويربيهم بتربيته الصالحة المؤمنة، تلك الرعاية التى طالما حرم منها، فهو الذي شب وحيداً يتيماً، لم يذق طعم حنان الأبوة، ولا حلاوة الأخوة الصادقة، ولا عطف الأم الحنونة الرؤوم، وإن ذاق طعم الاستبشار بالأنس بربه جلّ جلاله.

السيدة زينب بنت سيد ولد آدم، وبكر الطاهرة الشريفة أم المؤمنين، الصادقة الأمينة ابنة الأمين، الطاهرة ابنة الطاهرة، المؤمنة العفيفة، المخلصة.

وتدور الأيام والشهور مسرعة، والرسول ﷺ عاكف على رعاية الطاهرة سيدة نساء العالمين، وهو يغمرها بعطفه ورعايته.. إلى أن كانت ساعة المخاض.

ووضعت السيدة أم المؤمنين خديجة طفلة جميلة جعدة حسناء، بيضاء، يتجلى النور من خلال وجهها الطاهر، فهي ابنة أكرم بني البشر وسيدة نساء العالمين.

وأخذها الرسول الحبيب ﷺ بين يديه، وضمها إلى صدره في عطف وحنان، ووضع على وجنتيها قبلة ناعمة دافئة بعد أن شكر اللَّه ﷺ على ما آتاه من كرم في سلامة زوجه السيدة (خديجة) وولادتها للبكر الجديدة التي أسمياها: (زينب).

زينب بنت محمد الأمين ﷺ بن عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم القرشية الهاشمية.

وأمها: السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزَّى بن قصي القرشية الأسدية.

... واحة من الإيمان في صحراء الكفر والضلالة، سراج منير في ظلمات بعضها فوق بعض، كان بيت النبوة الذي ضم بين جدرانه سيد بني آدم عليه السلام والسيدة خديجة زوجه وبكرهما الطفلة الحبيبة: (زينب)، بيت يذكر فيه اسم اللَّه في الغدو والآصال، ذلك الذكر الذي كان ينبعث من قلبين مؤمنين عرفا الحقيقة بدين الإسلام، وأشرق فيهما نور اللَّه تعالىٰ، فقد كان ذكرهما يفوق كل الذكر المنبعث من قلوب الحنفاء والصابئة وأهل الكتاب، وكل من تحركت بالذكر شفتاه، فلو وزن إيمانهما بإيمان أهل الأرض لرجحه..

طفلة حبيبة من أمّ حبيبة:

وراح الرسول ﷺ يضم زينب إلى صدره حبّاً وحناناً، فهي الطفلة الحبيبة من الأم الحبيبة، فتنبسط أسارير وجهه سروراً، وتتسارع ضَرَبَات قلبه حباً وولعاً، حتى تشعر زوجه الطاهرة بحبه الدافق للثمرة المباركة التي جمعت بينهما، فخفق قلبها وتدفقت منه كنوز مشاعرها المرهفة الرقيقة.

كانت (زينب) تشبه أمها الطاهرة (خديجة) وهي في طفولتها البريئة... ولكن! . لم يكن ذلك ما يشغل قلب أبيها الأمين ﷺ، بل راح يفكر في جفنيها وكيفية انفتاحهما وانطباقهما، وفي عينيها ولسانها وشفتيها، وفي إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق، واسترسل في تأمله فراح يفكر كيف خلق اللَّه قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل والقلب، فيمتلىء اندهاشاً وإجلالاً وكذلك سيستمر في تأمله والنظر في خلق اللَّه تعالى شكراً له ويقيناً في خلقه وقدرته عزّ شأنه..

وتدور الأيام والسنون:

وتكبَر البِكر المدللة (زينب)، وما كادت تكتمل أنوثتها الغضة حتى تقدم لخطبتها ابن خالتها (أبو العاص بن الربيع) أحد رجال مكة المعدودين شرفاً ومالاً، من صميم نسب قريش، حيث كان يلتقي نسبه من جهة أبيه مع النبي الأمين ﷺ

عند عبد مناف بن قصي، ويلتقي نسبه كذلك من جهة الأم مع زينب بنت رسول اللَّه ﷺ عند جدها الأدنى خويلد، وذلك لأن أمه هالة بنت خويلد هي أخت أم المؤمنين الطاهرة خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ[١].

وكان أبو العاص بن الربيع إلى جانب ذلك الأصل العريق والعرق الطيب، كريم الخصال، نبيل الشخصية، حتى لقبه قومه بالأمين، كما لقبوا محمد بن عبد اللَّه ﷺ[٢].

وكذلك أتاحت له أمانته من ثقة الناس به واطمئنانهم إليه ما جعله يتقدم إلى الصف الأول من صفوف التجار، وهم يومئذٍ سراة مكة وأثرياؤها[٣].

وقد كان لأم المؤمنين الطاهرة خديجة الرغبة الكبيرة في زواج ابن الربيع من ابنتها زينب فمهدت السبيل أمامه وساعدته للتقدم لخطبة ابنتها.

وقد كان لها من وراء ذلك قرابته لها وكذلك معزتها الخاصة له ومجده الموروث المكتسب، كل هذا كان السبيل إلى تزكيته أمام الأبوين الشريفين، وموافقتهم على زواج ابنتهم منه.

الحبيب ﷺ يستشير ابنته (زينب) في زواجها!!

ويتقدم الخطيب أبو العاص بصحبة أهله لخِطبة الطاهرة بنت محمد ﷺ زينب وابنة أم المؤمنين رضي اللَّه عنها خديجة.

فقال رسول اللَّه ﷺ: (إنه نعم الصهرُ الكفء)!!

ويتريث رسول اللَّه ﷺ في الرد على طلب الخطيب أبى العاص حتى دخل على ابنته وسألها: (أي بنيتي زينب! إن ابن خالتك أبا العاص بن الربيع جاء لخطبتك).

فما كان من العروس زينب إلا أن أطرقت رأسها حياءً و أن تلألأ البشر في وجهها والتمعت عيناها قبل أن تسبل عليهما جفونها. فالتفت رسول اللَّه ﷺ إلى زوجه خديجة وأنبأها بموافقته، فسكوت زينب علامة رضاها على هذا الزواج.

وذاع الخبر السعيد في مكة، فنحرت النحائر، ومدت الموائد، وساد الفرح أرجاء مكة كاملة فرحاً منهم بالزواج المبارك.

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب، ط الذخائر (٧٠)، والاستيعاب (٤/ ١٧٠١)، وفي الإصابة (٧/ ١١٨). وكذلك في نسب قريش (٢٣١).

(٢) ما رواه الزبيري في نسب قريش، ط الذخائر (٢٣١).

(٣) السيرة لابن هشام (٢/ ٣٠٦)، وكذلك في ترجمة ابن العاص بن الربيع في الإصابة.

واستوى الليل، وحمل أبو العاص بن الربيع زوجه زينب بنت خاتم النبيين ﷺ إلى داره، وأبوها يرقُبها، وأمها ترنو إليها وفي عينيها دموع وفي قلبها أفراح، وفي ضميرها دعوات، كانت بكل جوارحها وبكل عواطفها ترجو لها التوفيق والسعادة والهناء.

وتحلّ السيدة زينب عروساً مكرَّمة هانئة:

وفي البيت الجديد، تحل العروس البكر زينب عزيزةً مكرمة هانئة، لتهنأ في ظل زوجها الحبيب الكريم أبي العاص.

وتطيب لها الحياة الجديدة بعد أن تحققت كل أمانيها، كمثل كل فتاة أصيلة في هذه الحياة.

فكانت الزوجةَ الكريمة الطيبة التى تقوم على إشادة بيتها، وطاعة زوجها، وإخلاصها له، منتظرة سنة اللّه عزّ وجلّ ورسوله ﷺ في خلقه لبناء أسرة طيبة عريقة.

ولقد أصاب أبو العاص في اختياره الزوجة الصالحة ابنة سيد هذه الأمة ﷺ، وفاز بالسعادة الزوجية التي وجدها عندها، فكان كلما آن الأوان للسفر يشتد عليه الفراق، فينشد من أشعاره وهو بعيد عنها:

ذكـرتُ زيـنـب لـمّـا وركـتْ أرمـا فقلتُ سَقْيًا لشخصٍ يسكنُ الحرما
بـنـت الأمـيـن جـزاهـا اللّـه صـالـحـة وكلُ بَعْلٍ سيثني بالذي عَلِمَا[1]!!

ومنَّ اللّه جلّ جلاله على الزوجين الكريمين بولدين: الأول: علي بن أبي العاص، والثاني: أُمامة بنت أبي العاص وهي التي قد تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة السيدة فاطمة رضي اللّه عنها[2].

وتدور الأيام.. ويتابع الزوج أبو العاص رِحِلاته المتوالية إلى بلاد الشام وغيرها.. ويترك دونه زوجه الحبيبة زينب كمثل كل مرة يسافر فيها طلباً للرزق والتجارة.

ويتنزل الوحي على الحبيب ﷺ:

في غار حراء، وبينما رسول اللّه ﷺ في تعبده وشكره الدائم للّه سبحانه وتعالى، فإذا بأنوار ربانية تغشى المكان، وإذا برحمة إلهية تنزل على من

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٠) و الاستيعاب (٤/ ١٨٥٤)، والروض الأنف (٥٣، ٩٩).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٧٠، ١٥٨) والمحبر (٥٣ ـ ٩٩)، نسب قريش (٧٠).

اصطفاه ربه ليكون رسوله إلى الناس، وإذا بالروح الأمين يكلفه برسالة تنوء بحملها الجبال، رسالة هداية البشرية جمعاء ودعوة الناس إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له.

وانقلب المصطفى محمد ﷺ إلى أهله ليس له عون إلا عون ربه جلّ جلاله وإيمان بإلهه، تَرْجف بوادره من هول ما كان بينه وبين رسول ربه في غار حراء، وقد أشفق على نفسه من ضخامة المسؤولية التي وضعت على كاهله، فقد أمر وهو الأعزل من كل سلاح أن يقف في وجه الفساد الذي انتشر في الأرض وأن يتحدى الجبابرة والعتاة والمفسدين حتى يتم نوره، ولم يخفف من حدة الهلع الذي نزل بقلبه إلا وعد بنصر من عند اللّه عزّ وجلّ.

وحين دخول رسول اللّه ﷺ، شاهدته زوجه الطاهرة خديجة فهونت عليه الأمر بأسلوبها اللين المعتاد بعد أن سمعت منه هبوط الوحي عليه السلام عليه، فصدقته وآمنت بدعوته وبدأت الدعوة معه جنباً إلى جنب، وقالت له: اللّه يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عم و اثبت واللّه لا يخزيك اللّه أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكلّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق[١].

ولبثت زينب عند سماع الخبر في مكانها ساكنة لا تريم، وأفلت منها زمام أفكارها فلم تدر من أين تبدأ ولا أين تنتهي، بل خيل إليها أنها تسبح نائمة في بحر لجيّ لا تدرك عبره![٢].

وردّها إلى يقظتها صوت أختها فاطمة، إذ تقول سائلة: أوما يسرك يا أختي أنكِ بنت نبي الأمة؟ أجل واللّه يا فاطمة، وأي فتاة لايزدهيها ذلك الشرف الذي ما بعده شرف؟ لكنه الذي سمعت وسمعتِ من قول خالي ورقة:

ليُكَذبَّن أبي، وليؤذين، وليخرجن، وليقاتلن![٣].

ويعود الزوج المسافر من رحلته ليلقى زوجه زينب ويضمها بين ذراعيه بعد طول غياب وعناء من السفر واشتياق حار لها، وليحدثها عما ملأ سمعه من شائعات تناقلها الركبان، عن ظهور محمد بن عبد اللّه ﷺ بدين جديد يخالف دين آبائهم وأجدادهم؟!!!

---

(١) كذا في تاريخ الطبري (٢/ ٢٠٥)، وكذلك في ترجمتها بالاستيعاب والإصابة.

(٢) تراجم سيدات بيت النبوة، د. عائشة عبد الرحمن (٥٠١).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٠٧).

وتحدثه زوجه زينب بالنبأ اليقين عن أبيها رسول اللَّه ﷺ، وهبوط الوحي عليه في غار حراء ودعوته للرسالة الإلهية بنشر دين الإسلام، وكذلك بأنها قد دخلت في دينه واتبعت دين الإسلام هي وأمها وأختها..

فقال لها: أو قد فعلتها يا زينب؟ فقالت: ما كنت لأكذِّب أبي وإنه واللَّه لكما عرفت، هو الصادق الأمين.

وراحت تدعوه أن يدخل في دين الإسلام، ويبتعد عن عبادة الحجارة والأصنام كما فعل بنو قومه الذين سبقوه إلى الإسلام مثل أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وابن خاله الزبير بن العوام رضي اللَّه عنهم.

فأخذ في وجوم دائم، وذهب يفكر بعيداً عما قد يصيبه من سمعة بين أهله وعشيرته بأنه قد ترك دين آبائه وأجداده واتبع دين زوجه؟!! فقال لها وقد ترنح صوته:

يا زينب! واللَّه ما أبوك عندي بمتَّهم، وليس أحب إليَّ من أن أسلُكَ معك يا حبيبة في شعب واحد، لكني أكره لكِ أن يقال: إن زوجك خذل قومه وكفر بآبائه إرضاء لامرأته، فهلا قدرت ذلك؟!

وتطول الأيام على هذه الحال بين الزوجين، والدعوة المحمدية لا تزال قائمة للهداية إلى دين الإسلام، بينما راحت قريش تأخذ وتشتد في عداوتها لرسول اللَّه ﷺ، وتتابع من اتبع الإسلام لتلحق بهم الأذى والاضطهاد وتشردهم من أموالهم وديارهم، إلى أن كانت المقاطعة الرهيبة التي سجلت في صحيفة علقت على باب الكعبة، وأخرجت المؤمنين إلى شعب أبي طالب بظاهر مكة حيث أقاموا هناك في حصار طويل امتد نحو ثلاث سنوات[١].

وبعد تمزيق الصحيفة بستة أشهر مات العم أبو طالب وكذلك بعده بثلاثة أيام توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى أم بنات رسول اللَّه ﷺ.

وغابت الشمس وراء جبال مكة، فانطلق الرسول ﷺ إلى بيت زينب ليبيت عندها، سار مكلوم الفؤاد! فهو لايطيق أن يمضي الليل في داره بعد أن أقفرت من الطاهرة خديجة، ولو أنه قد بنى بسودة بنت زمعة، وكذلك بناته يبذلن أنفسهن ليهيئن للأب الصابر الحزين كل أسباب الراحة، إلا أن ما يعتلج

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٢٥) وعيون الأثر (١/ ١٣١)، والسيرة الهاشمية (١/ ٣٧٥).

في نفسه من الحزن والشجن، لم يمنعه من أن يُضفي كلّ لطفه على بناته وزوجه اللاتي انطوين على أنفسهن بعد أن فقدن الغالية الطاهرة أمّ المؤمنين. .

وبينما رسول اللّه ﷺ في دعوته إلى دين الحق و الإسلام، لم تزل قريش تسعى وراء مطاردته وتعذيبه لينفك عن دين الإسلام الذي جاء به داعياً.

وتصبح مكة وما حولها يوماً وقد خلت من الأمين محمد ﷺ وصاحبه الصديق أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه، فقد كانت الهجرة!!

وتسري القافلة المهاجرة في الصحراء بجوف الليل، وقد زينت السماء بمصابيحَ، فرأوا ببصرهم جمالاً لم يشهدوا مثله من قبل على طول ما سَرَوْا في الليل، فقد صفت قلوبهم وتيسر لهم الفكر، فكشف اللّه جلّ جلاله لهم من أسرار ملكوت السماء والأرض في لحظة ما عجَزوا عن إدراكه طوال السنين التي انصرمت من أعمارهم.

وقد تبعه من صحبه كذلك كل من آمن به واتبع دين الهدى، وكذلك بناته فاطمة وأم كلثوم ورقية اللواتي هاجرن لحاقاً بالأب الصادق الأمين ﷺ.

وتتلفت زينب حولها وإذا بمكة قد خلت من أبيها وأخوتها وكل الأهل والأحباب.

أين أبي وأمي؟ أين رقية وأم كلثوم وفاطمة؟ أين القاسم وعبد اللّه؟ أين الأهل؟.

لقد رحلوا جميعاً وتركوني وحيدة في هذه الأرض المقفرة الموحشة، بين أيدي الكفرة والطغاة؟!!

فرحلت إلى قبر أمها الطاهرة الشريفة خديجة لتروي الثرى بدمعها، وتقرأ عليها ما تعلمته من مدرسة النبوة من أبيها ﷺ، فأمها الراقدة تحت التراب هي الأقرب الآن إليها، ومن كانوا مقربين منها هم البعيدون عنها؟!!

وكانت الصدمة القاسية للسيدة زينب!!

وكانت الصدمة القاسية لزينب ألا يدخل زوجها في دين الإسلام الحنيف، فساد جو المنزل قلقاً وهماً، وانقلب النعيم بينهما إلى جحيم!!!

وبقيت زينب على هذه الحال في بيت زوجها بمكة، ولم يبق حولها من يخفف آلام غربة الوالدين عنها، فقد هاجر أبوها وصحبه وبناته إلى المدينة المنورة، وانتقلت الوالدة الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، وزوجها يتبع عبادة الأوثان

والحجارة، فلم يبق لها إلا اللّه تتضرع إليه وتدعوه أن يلهمها الصبر سبحانه وتعالى.

ونشبت معركة بدر بين المسلمين والكفار، فطلب المشركون من أبي العاص ابن الربيع زوج زينب الخروج معهم لمحاربة المسلمين ورسول اللّه ﷺ، فلبى الدعوة مسرعاً، وخرج للمعركة ولكن كان نصيبه في هذه الغزوة أن يقع أسيراً لدى المسلمين.

فانتاب زينب عند سماع خبر أسر زوجها الأسى العميق والحزن عليه لموقفه العدائي من أبيها الرسول ﷺ الذي لم يكن له منه إلا كل الخير والمعروف والإحسان.

وكان أبو العاص ذا مال وفير، وقد أراد أهله أن يَغلوا في فدائه، ولكن زوجه زينب آثرت أن تفديه بما هو أغلى من المال!

الطاهرة تفدي زوجها من الأسر بمالها:

روى ابن إسحاق عن عائشة رضي اللّه عنها، قالت:[١] لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول اللّه ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمالٍ، وبعثت بقلادة لها كانت خديجة رضي اللّه عنها، أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول اللّه ﷺ رقّ لها رِقةً شديدة، وقال: إن رأيتُم أن تطلقو لها أسيرها وتردُّوا عليها مالها فافعلوا يستشيرهم وهو الزعيم المطلق المطاع، يا للخُلُق العظيم..!!!

قالوا: نعم يا رسول اللّه!! فأطلقوه، وردوا عليها الذي لها.

وكان رسول اللّه ﷺ قد أخذ وعداً منه أن يخلي سبيل زينب إليه، وهذا عهدٌ عليه كما عرف أنه لا يخل بالعهد.

وبعث رسول اللّه ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، وقال لهما: (كونا ببطن يأجج (وهو مكان على بعد ثمانية أميال من مكة) حتى تمرَّ بكما زينب، فتصحباها حتى تأتياني بها).

وعاد أبو العاص إلى مكة، ففرح الناس بعودة من كان من الرجال المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وطاف بالبيت سبعاً، وغدا مسرعاً إلى زينب إلى الزوج التي بعثت في فدائه بأعز ما تملك، إنه طوال الرحلة قد شغل بوجه محمد ﷺ وقد رقّ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٥٣ ـ ٦٥٤).

لها رقة شديدة، إنه كان يعلم حبه الكبير إلى خالته خديجة، ولكنه ما كان يتصور أن حبه لها يكاد يذوب رقة لمجرد رؤية قلادتها، وأن تغيم عيناه بالدموع لذكراها الغالية.

وراح أبو العاص بن الربيع يغذُّ السير ليلحق بزوجه وهو ملهوف في صدره شوق وفي فؤاده هوى وعلى لسانه كلمات حب، وهمّ بأن يترنم بشعر يعبر عن شدة عواطفه في وجدانه، إلا أنه أفاق إلى نفسه وتذكر ما وعد به رسول اللّه ﷺ، فقطب حاجبيه وقد هاجت في عين ذاته الأحزان، فهو لا يستطيع أن ينكث وعده و إلا لطخ أمانته التي اشتهر بها بين قومه.

إنه وعد أليم موجع لقلبه، سيقوض البيت الهانئ والذي عجزت عواصف الأحداث من قبل على أن تزعزع أركانه، وعندما بلغ داره، فما أن وقعت عينا زينب عليه حتى جرت إليه ودموع الفرح تغسل الوجه الذي انبسطت أساريره، وصار في لحظة مرآة الفؤاد الذي فاض في لحظة بشتى المشاعر والانفعالات.

ويبقى الزوج مصرّاً على الكفر:

وغاب الزوجان عن الوجود، ولم يحسا إلا بأنفاسهما وعواطفهما الثائرة المشبوبة، وبينما هما في غمرة سعادة العودة وإذ بصدى صوت رسول اللّه ﷺ يرن في أعماق أبي العاص فيبعد زوجه عن صدره ويقول لها: تأهبي يا زينب لتلحقي بأبيك؟!!!

ونظرت زينب إليه في دهشة، وهي لا تدري معنى الذي يقول، ولا تكاد تفقه شيئاً، فقال لها وقد أطرق بنظره إلى الأرض: قد فرَّق بيني وبينكِ الإسلام!!!

إن أبا العاص قد وعد رسول اللّه ﷺ بأن يردَّ له زينب إلى المدينة، وكان يعلم قسوة ذلك الوعد على قلبه، ولكنه وهو يفضي إلى زينب الحبيبة بما شرط عليه أبوها، يشعر أن قلبه يتمزق وأنه يتناثر أشلاء.

وغدت زينب تجاهد عواطفها وهي تتجهز للخروج، إنها قالت صادقة بلسانها ووجدانها: (سمعاً وطاعة للّه ورسوله ﷺ)، ولكن عواطفها خذلتها ولم تكن لها عليها سلطان، فدمعها لا يرقأ وقلبها دائم الخفقان للحبيب الذي كان نعم الزوج على الدوام.

وبينما هي تتجهز للحاق بأبيها لقيتها هند بنت عتبة مَنْ قُتِلَ أبوها وعمها وأخوها يوم بدر، فقالت لها: ألَمْ يبلغني يا بنت محمد أنك تريدين اللحاق بأبيك؟.

فقالت زينب في حذر: ما أردت ذلك، أي بنت العم، لا تفعلي، إن كانت لكِ حاجة في متاع أو فيما يرفق بك في سفركِ أو مالٍ تبلغين به إلى أبيكِ، فإن عندي حاجتكِ، فلا تستحي مني فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال.

وأحست زينب أنها صادقة، وما قالت ذلك إلا لتفعل، ولكن خافتها فأنكرت أن تكون تريد ذلك.

وتهاجر السيدة إلى الله ورسوله ﷺ:

وتجهزت حتى فرغت من جهازها، فأخذها أخو زوجها كنانة بن الربيع وقدم لها بعيراً، وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها نهاراً يقود بعيرها وهي في هودج على ظهره.

وتحدث في أمر رحيلها الرجال من قريش والنساء، وتلاومت في ذلك وأشفقت أن تخرج ابنة محمد ﷺ قاتل آبائهم وأولادهم من بينهم على تلك الحال، فخرجوا في طلبها سراعاً حتى أدركوها بمنطقة ذي طوى فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب ونافع بن عبد القيس الفهري، فروعها هبار بالرمح وهي في الهودج، وكانت وقتئذٍ حاملاً، فغدت تنزف دماً، ووقف حاميها كنانة بن الربيع ونثل كنانته بين يديه، ثم أخذ منها سهماً فوضعه في كبد قوسه، وقال: أحلف بالله، لا يدنو اليوم منها رجل إلا وضعت فيه سهماً، فرجع الناس عنه، وجاء أبو سفيان بن حرب في جلة من قريش فقال: أيها الرجل: اكفف عنا نبلكَ حتى نكلمك، فكف النبل عنهم، فأقبل أبو سفيان حتى وقف إليه، فقال: إنكَ لم تحسن ولم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية جهاراً وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد أبيها، فيظن الناس إذا أنت خرجت بابنته إليه جهاراً أن ذلك على ذلٍ أصابنا أو عن وهنٍ فينا؟!!!

ولعمري مالنا في حبسها من أبيها من حاجة وما فيها من ثأرٍ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس بردها سلّها سلاً خفياً، فألحقها بأبيها.

وراحت زينب تنظر إلى الدم الذي ينزف منها في خوف، ورأى كنانة بن الربيع أن يعود بها استجابة لتوسل أبي سفيان وحفاظاً على حياة زوج أخيه.

وشاهدت هندُ بنت عتبة الذين خرجوا إلى زينب حين انصرافهم فقالت لهم:

أفي السلم أعيارٌ[١] جفاءً وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك[٢]

---

(١) أعيارٌ: حمر الوحش، والعيار من الرجال: الذي يخلي نفسه وهواها.

(٢) النساء العوارك: النساء الحوائض.

وفيما كانت زينب في طريقها بالعودة، طرحت ما في بطنها وأصابها ضعف، فلما بلغت دار زوجها أبي العاص هُرِعَ مَن فيه إليها يحملونها وهي غارقة في دمائها.

وراح أبو العاص بن الربيع يمسح بحنانه آلام زوجه التي فرق الإسلام بينه وبينها.

واستردت زينب بعد أيام بعض قواها، وهدأ الصوت عنها، فأخذها كنانة بن الربيع على بعيرها وهي تذرف الدمع على فراق زوجها أبي العاص، فخرج بها ليلاً وهو يسلّها سلاً خفياً وقد أرهفت حواسه خشية الطلب، إلى أن وصل كنانة بن الربيع بهودج زينب إلى المكان الذي ينتظره به الرجلان رسولا الرسول ﷺ في منطقة ذي طوى فأسلمهم إياها وهو يقول:

عجبت لهبار وأوباش قومه ... يريدون إخفاري[1] ببنت محمد
ولست أبالي ما حييت عديدهم ... وما استجمعت قبضاً يدي بالمهند

وانطلق الرجلان حتى قدما بزينب على رسول اللَّه ﷺ، فلما تقدم خافق القلب ﷺ لاستقبال ابنته العزيزة من دار الشرك إلى الإسلام، إذا به يجدها تنزف دماً فأصابه كدر، وسمع ما كان من هبار بن الأسود من قسوة على زينب، فأهدر دمه.

وقال شاعر الأنصار عبد اللَّه بن رواحة فيما كان من أمر زينب:

أتاني الذي لا يقدِّر الناس قدره ... لزينب فيهم من عقوق ومأثم
وإخراجها لم يخزَ فيها محمد ... على ثاقط[2] بيننا عطر منشم[3]
وأمسى أبو سفيان من حلف ضمضم[4] ... ومن حربنا في رغم أنف ومندم
قرنا ابنه عمراً ومولى يمينه ... بذي حلق جلد الصلاصل محكم
فأقسمت لا تنفك منا كتائب ... سَراة خميس[5] في لهام[6] قسوَّم

---

(١) إخفاري: نقض عهدي. كذا في السيرة لابن هشام (٢/ ٣١٠)، وشرحها في الروض الأنف (٣/ ٦٨).
(٢) ثاقط: معترك الحرب.
(٣) كناية عن شدة الحرب، ومنشم: بائعة طيب تعطر بطيبها فتيان ثم ذهبوا للحرب فلم يرجعوا.
(٤) ضمضم بن عمرو الغفاري، أرسله أبو سفيان ليخبر أهل مكة بمحاولة تعرض الرسول ﷺ وأصحابه لتجارة قريش.
(٥) الخميس: الجيش الكبير.
(٦) اللهام: الجيش العظيم.

نزوع قريش الكفر حتى نُعلّها[1] بخاطمة من فوق الأنوف بميسَم
تنزلهم أكناف نجد ونخلة إن يُتهموا بالخيل والرَّجل نُتهم
ويندم قوم لم يطيعوا محمداً على أمرهم ولات حين تندُّم
فأبلغ أبا سفيان إما لقيته لئن أنت لم تخلص سجوداً وتسلم
فأبشر بخزي في الحياة معجَّل وسربال قار خالداً في جهنم

حدثنا أبو هريرة إذ قال:[2] بعث رسول اللّه ﷺ سرية أنا فيهم. فقال لنا: (إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو نافع بن عبد قيس الفهري فحرقوهما بالنار).

فلما كان الغد بعث إلينا رسول اللّه ﷺ، فقال: (إني كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا اللّه، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما).

ويعلن الزوج الحنون شهادة الحق!

ومرت سنوات ست، وزينب تعيش في حمى أبيها رسول اللّه ﷺ، وما كاد يوماً يغلبها اليأس في أن نورَ الإسلام سوف يدخل قلب زوجها أبي العاص.

ويقدّرُ اللّه عزّ وجلّ على أبي العاص زوج زينب بعد ست سنوات أن ينشرح قلبه لدين الهدى والصلاح دين الإسلام الحنيف.. فيهاجر إلى المدينة حيث رسول اللّه ﷺ ويعلن الشهادة أمامه ودخوله في دين الحق المنزل من السماء، دين الهدي والنور.

وتعلم زينب خبر قدوم زوجها أبي العاص ودخوله في دين الإسلام، فتأخذها الدهشة مع انشراح قلبها، وتنفرج أسارير وجهها، ويلفها صمت مشحون بفرح كبير، وقد غرق الكون من حولها في سكون خاشع، فطالما جلست منتظرة خبر إسلامه وقدومه المدينة. فتسرع إليه مرحبة به:

مرحباً بابن الخالة، مرحباً بك أبا علي وأمامة:

وكان صوت أبيها ﷺ يدوي الكون بقول: اللّه أكبر وهو يكبر في المسجد، ويكبر معه الناس فجمعت زينب نفسها، بعد أن استجمعت شيئاً من قُواها، وقامت إلى الباب، وصاحت بأعلى صوتها: (أيها الناس، إني أجرت أبا العاص بن الربيع[3][4]، وجاء صوتها في أرجاء المنزل، فلما سلّم ﷺ بعد انتهاء صلاته، أقبل على من معه وقال: هل سمعتم ما سمعت؟).

---

(١) العلل: الشرب مرة بعد مرة. (٢) عاد وجرهم: من القبائل التي بادت.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١٢).
(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٣)، والاستيعاب (٤/ ٧٠٢)، والاصابة (٨/ ٩١)، والسيرة النبوية (٢/ ٣١٢).

أجابوا عليه: نعم يا رسول اللّه، قد سمعنا. فقال ﷺ: (أما والذي نفس محمد بيده، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم).

وتابع قوله ﷺ: (إنه يجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرنا من أجارت)[١].

وبعد أن فرغ ﷺ من صلاته دخل على ابنته وكان عندها زوجها ابن خالتها، فقالت له وقد ترنح صوتها برجاء ضارعة: يا رسول اللّه، إن أبا العاص إن قَرُبَ فابنُ عَمٍّ، وإن بَعُدَ فأبو ولدٍ، وإني قد أجرته.

وبعد مرور فترة من الزمن دعا رسول اللّه ﷺ ابنته وكله عطف وتأثر من موقفها هذا بعد أن تأكد من إسلام زوجها وعطفه على زوجه ورغبته في ردها.

قيل: ردها عليه في النكاح الأول، وقيل: ردها عليه في نكاح جديد[٢].

وبعد طول فراق بين الزوجين دام طويلاً يجتمع الشمل بينهم، ويتلاقى الحبيبان تحت سقف واحد ودين واحد وإله واحد جلّ جلاله.

ويعود الفراق ثانية! لكنه فراق الموت!

وبعد مرور عام تقريباً على لقاء الزوجين، عاد الفراق بينهما من جديد، ولكن هذا الفراق الذي لا لقاء بعده إلا في صعيد القيامة المرتقبة.

فقد ماتت زينب بكر رسول اللّه ﷺ، وهي متأثرة بآلامها التي لازمتها من وقت طرحت جنينها، ونزفت دماً في الصحراء الجرداء وهي مهاجرة من مكة.

فكانت المصيبة الكبرى للزوج الحبيب، الذي أكبّ على جثمان الحبيبة يناجيها ويذرف عليها دموعه حتى أبكى كل من حوله، إلى أن حضرها أبوها رسول اللّه ﷺ والحزن يملأ قلبه والدموع تنسكب من عيونه، فدعا لها واستودعها اللّه متأثراً، ثم قال للنسوة التي حولها: (اغسلنها وتراً ثلاثاً أو خمساً، واجعلن في الآخرة كافوراً)[٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٩٢)، والطبقات (٢/ ٦٣)، والاستيعاب (٤/ ١٧٠٢).

(٢) ذكر القول الأول ابن عباس في الطبري (٢/ ٢٩٣)، وابن حبيب في المحبر (٥٣)، وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٧٠٣). وفي القول الآخر ذكر في الروض الأنف (٣/ ٦٩) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح من حديث أم عطية الأنصارية. وكذلك في الإصابة (٨/ ٩٢).

وتمّ تجهيز الطاهرة كما أمر الحبيب رسول اللّه ﷺ فصلّى عليها ﷺ في مسجده، ثم شيعها إلى مرقدها حيث أودعها ثرى طيبة.

فرحم اللّه تعالى ورضي عن الطاهرة المطهرة ابنة الطاهرة المؤمنة المتعبدة ابنة خير الناس وخير ولد آدم محمد ﷺ السيدة زينب الكبرى، وحشرنا وإياها تحت ظل عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الطَّاهِرَةُ السَّيدةُ رُقَيَّةُ
رضيَ اللَّهُ عنْها

ويفرح المصطفى ﷺ بقدوم المولود الثاني بنتاً!

ووقف حبيب اللَّه ﷺ برهةً خاشعاً، كأنه في صلاةٍ، فقد اتصلت روحه بروح الكون، وانبعثت من صميم ذاته آيات الشكر للَّه عزّ وجلّ، وفاضت رحمته، وترقرقت الدموع في عينيه فرحاً.. فقد وضعت له الزوجة الحبيبة أم المؤمنين خديجة مولودها الثاني الذي جاء أنثى، فَسُرَّ ﷺ كثيراً على سلامة زوجه من آلام المخاض، وشكره تعالى وحمِده أن جاد عليه بذرية طيبة طاهرة، من أصل مؤمن طاهر.

وأخذها ـ الرؤوف الرحيم ـ ﷺ بين ذراعيه، ليضمها إلى حنان صدره برفق ورقة وليضع على وجنتيها قبلة ناعمة دافئة.

وقد سمّاها: رقية.

رقية بنت سيد ولد آدم محمد ﷺ الطيبة الطاهرة بنت الطاهرة خديجة أم المؤمنين.

الصادقة الوهابة، الوفية التوابة، المهاجرة الرحالة.

صاحبة الهجرتين: رقية بنت رسول اللَّه محمد ﷺ بن عبد اللَّه، وابنة خديجة أم المؤمنين بنت خويلد.

وتمرّ الأيام سريعاً وتخطب الفتاتان:

وتمرّ الأيام سريعاً، وتكبر الطفلة الحبيبة رقية بين حنان الوالد الكريم ﷺ ورعاية أم المؤمنين الطاهرة رضي اللَّه عنها، وكذلك بصحبة أختها الملازمة لها دوماً: أم كلثوم التي نشأت معها وهما مجتمعتان متعاطفتان دوماً، إلى أن أصبحت الفتاتان في رَيْعان الصبا، مؤهلتين للزواج، فوفد إلى البيت المحمدي كبار آل عبد المطلب، يلتمسون مصاهرة ابن عمهم الأمين المصطفى ﷺ، فتقدم شيخهم أبو طالب، طالباً القرب من الرسول ﷺ، قائلاً: إنك يا ابن أخي قد زوجت أبا العاص بن الربيع، وإنه لنعم الصهر، غير أن بني عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن الربيع، وليسوا دونه شرفاً ونسباً.

فقال ﷺ: (قد صدقت يا عم...).

وكعادته ﷺ في تزويج بناته، طلب منهم أن يسأل ابنتيه في أمر زواجهما من ابني عمهما عبد العُزّى[١] عتبة وعتيبة ابني أبي لهب.

ولم تكن ابنتا رسول اللّه ﷺ ممن يخالفان أمر أبيهما أو يعرضانه للحرج أمام أهله وعشيرته، فكان الصمت والسكون ردَّهما.

وتمّ الزواج في هدوء، لكنه مصحوب بقلق!!

وبعد أيام تم عقد زواجهما في هدوء صامت مصحوب بقلق، فقد تمّ عقد رقية من عتبة بن أبي لهب، وكذلك عقد على أم كلثوم من أخيه عتيبة.

وبارك الأب الحنون ﷺ هذين العقدين وترك أمر رعايتهما للّه عزّ وجلّ.

وما كاد الحبيب محمد ﷺ يتلقى رسالة ربه جلّ جلاله، ويدعو إلى الدين الحق، حتى اجتمعت قريش وائتمرت برسول اللّه ﷺ، وقال قائلها:

إنكم قد فرَّغتم محمداً من همه، فردوا عليه بناته فأشغلوه بهن، واتجهوا إلى أصهار النبي ﷺ الثلاثة، فقالوا لهم: فارق صاحبتك ونحن نزوجك أية امرأة في قريش شئت.

فأما أبو العاص فأبى أن يرد زوجه زينب فقد آثرها على نساء قريش كافّة، وأمّا ابنا أبي لهب فاستجابا على الفور، واختار عتبة زوجة له من آل سعيد بن العاص بدلاً من رقية بنت سيد المرسلين ﷺ[٢].

وعادت الفتاتان إلى عذريتهما ولم يكن الدخول عليهما قد تم.

وقد كانت أم جميل، حمالة الحطب هي من وراء العمل في رد بناته عليه ﷺ، ولم تكتف بهذا.

بل بدأت بصحبة زوجها أبي لهب في إيذاء الرسول ﷺ بشتى الوسائل الممكنه في سبيل رده عن دين الإسلام!!! حتى أنزل جلّ جلاله على النبي ﷺ بحقها وحق زوجها سورة في القرآن الكريم تقرأ إلى قيام الساعة وهي: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١ ـ ٥].

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب، ط الذخائر (١٨)، فاسمه عبد العزى وقد غلبت عليه كنيته (أبو لهب) بن عبد المطلب بن هاشم، وأمه لبنى بنت هاجر الخزاعية.

(٢) كذلك في (مسند أحمد) (٣/ ٢٩٤) وفي الإصابة (٨/ ٨٣) والسيرة الهشامية (٢/ ٣٠٧).

ويدخل البيتَ المحمديَّ الامتحانُ والإبتلاء!

وقال ابن اسحاق[١]:

فذكر لي أن أم جميل حمّالة الحطب، حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول اللّه ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة معه أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه، وفي يدها فِهْر من حجارة ـ قطعة تملأ الكف ـ فلما وقفت عليهما أخذ اللّه ببصرها عن رسول اللّه ﷺ فلم ترَ إلّا أبابكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك، فقد بلغني أنه يهجوني، واللّه لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما واللّه إني لشاعرة ثم قالت:

مذمّما عصينا

وأمرَه أبينا

ودينه قلينا

وانصرفت، فقال أبوبكر: يا رسول اللّه أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ اللّه ببصرها عني!!!

ويقول الأحوص عبداللّه بن محمد بن عبداللّه الدوسي، الشاعر الأنصاري في أم جميل حمالة الحطب[٢]:

ما ذاتُ حبلٍ يراه الناس كلهم ... وسْط الجحيم ولا يخفى على أحد
كلُّ الحبال، حبال الناس، من شعر ... وحبلها وسْطَ أهل النار من مسدِ

والبيت المحمدي الصادق المؤمن لم يزده هذا الامتحان من عشيرته والإبتلاء في سبيل اللّه عزّ وجلّ إلّا رسوخاً.

وعرفت السيدة الطاهرة خديجة ما تعنيه هذه العبارة، فوطنت نفسها على الوقوف إلى جانب الزوج الكريم ﷺ فما زالت تثبته، وتهون عليه ما يلقى حتى يزول ما به من حزن[٣].

وكذلك أدركت ابنتاها الطاهرتان رقية وأم كلثوم مايسعى إليه والدهما ﷺ. ومدى المعاناة التي تعانيها الأسرة المحمدية من صنوف الاضطهاد والأذى والعذاب من قومه وعشيرته.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٣).
(٢) جمهرة الأنساب (٣١٣) ونسب قريش (٨٩).
(٣) السيرة النبوبية لابن هشام (١/ ٢٥٧).

وخاب ظن حمَّالة الحطب وزوجها، وكذلك ظن المشركين كافة من قريش، فلم يشق على رسول اللّه ﷺ من جراء ردّ ابنتيه إليه، وكذلك لم يصعب عليه طلاقهما فقد نجاهما اللّه عزّ وجلّ من محنة العيش مع أبي لهب وامرأته حمَّالة الحطب.

وتُعوض العروسان بأفضلَ من ابني عدو اللّه:

وبعد مرور فترة قصيرة من الزمن يتقدم لخطبة ابنة رسول اللّه ﷺ رقية من هو خير وأفضل من ولدي عدو اللّه أبي لهب رجل صالح كريم، من أعرق فتيان قريش نسباً، من النفر الثمانية الذين سبقوا إلى دين الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة المشهود لهم رضي اللّه عنهم أجمعين، هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس رضي اللّه عنه(١).

وكان عثمان بن عفان يلتقي مع رسول اللّه ﷺ قرابةً من جهة الأب عند عبد مناف بن قصي، وكذلك يلتقي قرابةً من جهة الأم عند عبد المطلب ابن هاشم فجدة عثمان لأمه، هي البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب جد النبي ﷺ(٢).

يقول فيه عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه: كان عثمان أوصلَنا للرحم، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، واللّه يحب المحسنين(٣).

فهو رضي اللّه عنه إضافة إلى نسبه العريق، وصفاته الحسنة التي قيلت فيه، كان بهي الطلعة، فخم السمت، موفور المال، رضي الخلق.

وعندما تقدم عثمان بن عفان رضي اللّه عنه إلى النبي ﷺ يطلب منه شرف المصاهرة بابنته رقية، وافق ﷺ وزوجه وبارك لهما في هذا الزواج الميمون، وقد قيل عنهما: إنه لم يُرَ زوجان أجملَ منهما ولا أبهى طلعة! وقد أنشد النسوة في العرس أجمل الأشعار إذ قلن:

أحسن شخصين رأى إنسان   رقية وبعلها عثمان(٤)

وكانت رَدة فعل المشركين في هذا الزواج أن اشتدت في قهرها وتعذيبها في

---

(١) راجع صحيح مسلم (٤/١٨٦٦)، والبخاري: ٦٢ باب ١/٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨ رقم ١١٩، ونسب قريش (١٠).

(٢) راجع نسب قريش (١٨)، والاستيعاب (٤/١٨٣٠).

(٣) صحيح مسلم، باب فضائله في كتاب فضائل الصحابة، وذكر في الاستيعاب (٤/١٠٣٩).

(٤) الروض الأنف (٢/٧٩).

كل الأساليب الوسخة فيمن يعتنق دين الإسلام وكذلك برسولهم الكريم ﷺ، ولكن جميع هذه الطرق التي اتبعتها قريش لم تغير شيئاً من صبر المسلمين المؤمنين بدين الحق والهدى ولا يردهم عنه شيء، إلى أن وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر فيها يتفننون في طرحهم وجلدهم عليها؟!! حتى يفتنوهم عن دينهم، فيؤثر أحدهم أن يموت على أن يرتد إلى دين الكثرة الغالبة(١).

ويهاجر العروسان إلى الحبشة:

وعندما رأى ﷺ أصحابه وهم في هذا البلاء من أعداء اللَّه، قال لهم: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظْلَمُ عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل اللَّه لكم فرجاً مما أنتم فيه)!!.

فكان عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه أول من هاجر إلى الحبشة وبصحبته زوجه العروس رقية التي لم يكن قد مضى على زواجها سوى فترة قصيرة(٢).

وكانت الهجرة إلى أرض الحبشة بصحبة بعضٍ من نفر قريش الذين أنار اللَّه جلّ جلاله قلوبهم بدين الإسلام(٣)، وبعد فترة أخذ الرسول ﷺ يتفقد أنباء ابنته رقية وزوجها عثمان بن عفان في أرض الهجرة الأولى، حتى أتته امرأة تخبره أنها قد رأت رقية وزوجها عثمان في أرض الحبشة. فقال رسول اللَّه ﷺ: (منحهما اللَّه، أن عثمان أول من هاجر بأهله)(٤).

وفي أرض الحبشه رزقت رقية من زوجها ولداً أسمياه: عبد اللَّه بن عثمان(٥) فكان هديةً من اللَّه تعالىٰ أن منَّ عليهما ورزقهما بالذرية الصالحة.

فكان في صحبتهما أثناء عودتهما إلى الوطن في مكة المكرمة.

وتعود المهاجرة الصابرة الراضية رقية وزوجها ومن كان بصحبتهم أثناء الهجرة إلى حيث رسول اللَّه ﷺ، وذلك بعد أن وصلتهم أنباء ملاحقة آل قريش وزعمائهم وتخفيف وطأة التعذيب فيمن اعتنق دين الإسلام..

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٣٠) والسيرة الهاشمية (١/ ٢٣٩).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٤٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٣١).

(٣) ذكرت كتب السيرة فيمن هاجر إلى أرض الحبشة بصحبة، (رقية وزوجها) ببعض الخلاف في عددهم. راجع السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٤٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٣١)، عيون الأثر (١/ ١١٥).

(٤) الإصابة (٨/ ٨٣).

(٥) هناك اختلاف في مولد (عبد اللَّه بن عثمان) بين هجرة الحبشة أو هجرة المدينة. راجع الإصابة (١٢/ ٢٥٨).

مصابُ السيدة بوفاة السيدة خديجة :

تقول الدكتور عائشة عبد الرحمن وهي تصف عودة رقية إلى بيت أبيها[١] :

وآبت رقية إلى بيت أبيها مشوقة مجهدة، فخفت أختاها أم كلثوم وفاطمة للقائها، وتشبثتا بها معانقتين، وهما تغالبان الدمع وتتكلفان التجلد وأفلتت من عناقهما وسألت مستريبة :

ـ أين أبي، وأين أمي؟

أجابتا : أبوك بخير، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجري الحبشة.

ثم اختلجت شفاهما في تأوه مكتوم، وعادت رقية تسأل وقد أوجس قلبُها خيفة :

ـ وأمي، أين هي؟؟!!

فأطرقت أم كلثوم صامتة لا تجيب، أما فاطمة فغادرت الغرفة وهي تنشج باكية.

هنالك كفت رقية عن أسئلتها، وسارت مترنحة نحو مخدع أمها الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر، مثلجة الأطراف.

إلى أن جاء أبوها ﷺ ، فأذاب ذلك الجمود القاتل بحرارة، وأزاح بحنوه ذلك الركام الصخري الذي جثم على ظهر ابنته.

وأسعفها الدمع ما شاء لها حزنها وأساها، ثم آوت إلى الصدر الرحب الكريم، وثابت إلى السكينة والصبر. اهـ.

وتكون الهجرة الثانية إلى المدينة المنورة :

ويأذن رسول اللّه ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة لأهله وأصحابه، فكان من أول المهاجرين عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت خير الأكرمين ﷺ ، وهما يمنيان النفس بحياة سعيدة مستقرة يعملان فيها لآخرتهم ودنياهم.

وكانت أول أيامهم في المدينة المنورة محفوفة بالسعادة والاستقرار بصحبة طفلها عبداللّه بن عثمان، فهي سعادة لا مثيل لها أن يكون لهما ذرية من نسل خير البشر ﷺ .

ويغمر دارهما الحبُ والاستبشار حين كان يدخل عليهما رسول اللّه ﷺ وهو يحضن حفيده بفيض من حنانه ورقته، ويتوج الشفاه بالبسمات، فسروره ﷺ كان يسر جميع المهاجرين والأنصار.

---

(١) بنات النبي ﷺ ، د. عائشة عبد الرحمن (١٣٩).

ولكن هذه البهجة سرعان ماغاضت عندما نقر ديك الطفل الحبيب المدلل عبداللّه بن عثمان فمات على أثر ذلك وهو في السادسة من العمر[١].

وذاقت رقية حزن الفراق للمرة الثانية بعد موت أمها، وراحت تسقي الثرى بدموعها وهي تذوق مرارة الثقل، وتؤثر على نفسها أمام زوجها عثمان بن عفان رضي اللّه عنه.

ولما كانت رقية بنت رسول اللّه ﷺ مرهفة الحس وليس لها طاقة على تحمل الحزن فقد سقطت صريعة الحمى.

وتلتحق السيدة رقية بالرفيق الأعلى:

وينادي رسول اللّه للجهاد سبيل اللّه تعالى إلى غزوة بدر، فكان أول من لبى النداء عثمان بن عفان، ولكن رسول اللّه ﷺ استخلفه في المدينة المنورة بجوار زوجه رقية للعناية بها أثناء مرضها.

وبقي عثمان بن عفان رضي اللّه عنه إلى جوار زوجه رقية بنت محمد ﷺ التي اشتد بها المرض وطاف بها شبح الموت، وهو يرنو إلى وجهها الذابل الذي علاه الاصفرار، ففرت سكينته وقد لفه حزن شديد امتزج بخوف الفراق القاتل، فالأنفاس المضطربة التي كانت تلتقطها رقية في جهد كانت على الرغم من خفوتها تعلن بأعلى صوتها فناء صاحبتها، وأنها تسير في نفس الطريق التي سارت فيه أمها أم المؤمنين من قبل، سبيل الخلود في ملكوت اللّه سبحانه وتعالى.

وراح الزوج الوفي عثمان بن عفان صاحب الفجيعتين: فجيعته في رقية الزوجة المؤمنة الوفية وفجيعته في نسبه من رسول اللّه ﷺ يبعد عنها عينيه المحمرتين من أثر البكاء وهي تنازع سكرات الموت في لقاء وجه الباري عزّ وجلّ.

وما إن بدأت أصوات المسلمين العائدين من غزوة بدر تلوح في الأفق مهللة: اللّه أكبر، معلنة الانتصار في غزوتها بصحبة رسول اللّه ﷺ حتى كانت روح رقية الطاهرة المؤمنة الشريفة ابنة سيد الكونين ﷺ ترفرف على شفتيها مودعة دنيا فانية، صاعدة إلى الدار الآخرة.

فرحم اللّه ورضي تعالى عن رقية الطاهرة المرضية صاحبة الهجرتين ابنة رسول اللّه ﷺ، وأعلى مقامها في مستقر رحمته بجوار والدها حبيب اللّه ﷺ وعباده الصالحين.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٢٥١).

الطَّاهِرَةُ السّيدةُ أمُّ كُلثوم
رضيَ اللَّهُ عنْها
الصَّابِرَةُ المُهَاْجِرَةُ

وأجهشت أم كلثوم بالبكاء! جاهدت ضعفها لتذرف آخر دمعة من مقلتيها، لا جزعاً من الموت، فقد كانت على يقين من أنها تموت على دين الحق والإسلام، بل إشفاقاً على أبيها ﷺ حليف الأحزان، الذي كان يقبر فِلِذات كبده فِلْذة بعد فلذة . .

الصابرة، المحاصَرة، التوابة، الطاهرة بنت الطاهرة أم كلثوم، بنت رسول اللّه ﷺ محمد بن عبد اللّه وابنة الطاهرة خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش . .

وأتى المولود الثالث أنثى من صُلب طاهر :

وترقرقت عينا رسول اللّه ﷺ سروراً لسلامة زوجه الطاهرة خديجة رضي اللّه عنها، فقد وضعت له الأنثى الثالثة من صلب طاهر مشع بالنور والإيمان، في جو يسوده الاضطراب والنزاع الدائم بين المشركين، وأتباع الدعوة الإسلامية .

وتكبَر الطفلة أم كلثوم بصحبة أختها رقية التي كانت ملازمة إليها تماماً وكأنهما توأمتان، إلى أن أصبحتا في رَيْعان الصبا، مؤهلتين للزواج .

ويتقدم لخطبتها عتيبة بن أبي لهب ويحظى بالموافقة الشريفة بزواجه من ابنة رسول اللّه ﷺ .

وخفق فؤادها فرحاً وسروراً، وداعب خيالها أمنيةٌ أن يأتي أبو لهب إلى أبيها ﷺ لينطق شهادة الحق، فأختها رقية تحت عتبة بن أبي لهب، وهي ترقب زِفافها إلى أخيه عتيبة، ولكن العداوة اشتدت بينه ﷺ وبين عمه أبي لهب، فقد أججتها أم جميل حمالة الحطب وقالت لولديها :

رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد!!!

وتعود الفتاتان أم كلثوم وأختها رقية عذراوين في بيت أبيهما رسول اللَّه ﷺ قبل أن يدخل عليهما أزواجهما عتبة وعتيبة(١)؟!!

ولم يكتف عتيبة بن أبي لهب بأن طلقها، بل ذهب إلى أبيها وأهانه على الملأ، فدعا عليه النبي ﷺ أن يسلط اللَّه عليه كلباً من كلابه، فافترسه الأسد من بين أصحابه وهم نيام حوله(٢).

وهكذا نجت أم كلثوم بهذا الفراق من نكد العيش مع حمالة الحطب، كما نجت أختها رقية التي ما لبثت أن تزوجت من عثمان بن عفان رضي اللَّه عنهما، وهاجرت معه إلى الحبشة.

وبقيت أم كلثوم مع أختها الصغرى فاطمة في بيت أبيها ﷺ بمكة تشاركان أمهما خديجة أم المؤمنين رضي اللَّه عنها عبء الحياة، وتخففان عن أبيهما ما يلقاه من أذى قريش.

مفاوضة سخيفة أشبه ببعض المفاوضات اليوم!!

وبلغ الجهل ذروته بقريش في تعذيب الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين، اشتد ذلك بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب، وكذلك عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنهما، وعندما ضاقت بهم الحيل، عرضوا على بني عبد مناف والذين منهم رسول اللَّه ﷺ دِيَة مضاعفة ويسلمونهم النبي ﷺ فأبوا عليهم ذلك، ثم عرضوا على أبي طالب أن يعطوه سيداً من شبابهم يتبناه ويسلم إليهم ابن أخيه محمد بن عبد اللَّه ﷺ فقال: (عجباً لكم تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟).

فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني عبد المطلب ولدَيْ عبد مناف وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم، فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شِعب أبي طالب، ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب، فإنه كان مع قريش.

وقد عانى المسلمون ومن معهم من بني هاشم في هذه المقاطعة أقصى أنواع

---

(١) راجع بحث السيدة رقية بنت رسول اللَّه ﷺ، فقد ذكر بالتفصيل زواجها وكذلك زواج أختها أم كلثوم من عتبة وعتيبة ابني أبي لهب وكيف تم طلاقهما.

(٢) الروض الأنف (٣/ ٦٨).

الحرمان والضغوط الاقتصادية والاجتماعية، حتى إنهم كانوا يأكلون الخمط وورق الشجر، وقد أقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين لا يصل إليهم شيء من الزاد إلا سراً.

يقول سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه في ذلك(١): لقد جُعت حتى إني وطئت ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي وبَلِعْتُهُ، وما أدري ما هو إلى الآن!!!

وقد حدثوا أن هشام بن عمرو بن ربيعة العامري، كان يأتي ليلاً للبعير قد أوقره طعاماً، حتى إذا بلغ به فم الشعب، خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فيدخل البعير على بني هاشم وبني عبدالمطلب بما يحمل(٢).

وحملت أم كلثوم رضي اللَّه عنها من خلال الحصار أكبر المسؤوليات، فأمها الطَّاهرة رضي اللَّه عنها أنهكها الحصار فرقدت في الحصار في فراشها تعاني المرض الشديد، وأختها الصغيرة فاطمة الزهراء بحاجة إلى رعاية وعناية، ولم يبق سواها لتقوم على تمريض الأم وتُعنى بشؤون أختها الصغيرة، وكذلك تخفف عن أبيها ﷺ آلامه وأحزانه.

أمُّ كلثوم تسحّ الدموع على فقد الغالية السيدة خديجة:

وخرج المسلمون من الحصار وقد زادتهم المحنه إيماناً، وشدَّت التجربة القاسية من عزيمتهم.

وفي بيت النبوة بمكة كانت أمُّ المؤمنين الطاهرة خديجة تجود بأنفاسها الأخيرة، وبناتها الثلاثة (زينب وأم كلثوم وفاطمة) يحطن بها، والزوج الحبيب ﷺ على جانبها يهون عليها سكرات الموت، ويبشرها بما أعدَّ اللَّه سبحانه وتعالى لها من نعيم.

وأخفت أم كلثوم وجهها براحتيها، إنها لا تحتمل رؤية أمها الطاهرة وهي تجود بأنفاسها الأخيرة، وشهقت شهقة وهي في غمرة الأسى، فالتفتت إليها العيون الدامعة، كأنما تنهاها عن ذلك النحيب الذي يؤذي الطاهرة، فانسلت من الغرفة لا يرقأ لها دمع، فإذا بأبيها النبي ﷺ عند باب الغرفة واقف يسح الدموع، فاستشعرت أم كلثوم كأنها ستلفظ روحها مع عَبَراتها.

وأصبحت الدار من بعد موت الطاهرة أم المؤمنين موحشة خلاء، وإن كانت

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٥٠).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٥٢).

أم كلثوم وفاطمة وأم أيمن يذهبن ويجئن في أرجائها، قد أصبحت داراً بلا روح، وسراجاً بلا زيت، وقلباً بلا حب، وقد زاد في وطأة الأحزان أن رسول اللّه ﷺ كان يدخل الدار شارداً يتلفت في أرجائها لكأنما يبحث عن وزيره الذي مضى!!!

وبعد انقضاء زمن يسير على وفاة الطاهرة أم المؤمنين، يصاب الرسول ﷺ بفاجعة مماثلة لوفاة زوجه خديجة، بوفاة عمه أبي طالب الذي كان عضداً على دعوته، وحرزاً له في أمره، ومَنَعَةً وناصراً له على قومه.

فلما مات أبوطالب[١]، نالت قريش من رسول اللّه ﷺ من الأذى مالم تكن تطمع به في حياة أبي طالب.. حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه التراب، فدخل رسول اللّه ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه أم كلثوم، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول اللّه ﷺ يقول لها: (لا تبكي يا بنية!! إن اللّه مانعٌ أباكِ).

قال ابن اسحاق[٢] ثم إن خديجة بنت خويلد، وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول اللّه ﷺ المصائب بهُلْك خديجة، وكانت له وزيرَ صدق على الإسلام يشكو إليها، وبِهُلْك عمه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعةً وناصراً على قومه، وذلك قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين.

وكان الصبر حليف الرسول ﷺ بصحبة بناته ومن آمن باللّه ورسوله ﷺ على تلك الشدائد، حتى أَذن اللّه تعالى لأصحابه بالهجرة إلى يثرب، ثم أذن للرسول ﷺ بالهجرة بعد ذلك.

وتُهاجر السيدة أم كلثوم وتُستقبل بالحفاوة والترحاب:

وخرج رسول اللّه ﷺ من بيته في مكة المكرمة مهاجراً، وقد استخلف أم كلثوم وفاطمة عند زوجه الثانية سودة بنت زمعة التي تزوجها بعد الطاهرة خديجة، وبعد أن وصل ﷺ إلى المدينة واستقر فيها أرسل بعض أصحابه إلى مكة لاصطحاب أهل بيته مع أهل أبي بكر الذين استقبلهم هناك[٣].

وعند وصول بنات النبي ﷺ تصحبهما زوج النبي ﷺ سودة بنت زمعة، ومعهن بنات أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه أسماء وعائشة، استقبلهن نساء الأنصار بالحفاوة والترحاب، واستقبل رسول اللّه ﷺ زوجه وبناته بكل شوق

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤١٦).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤١٦).
(٣) الإصابة لابن حجر (١٣/ ٢٧٦).

وترحاب، وأتى بهن إلى داره التي أعدها لأهله بعد بناء المسجد النبوي الشريف.

وبعد مرور عامين حافلين بالأحداث الجسام بعد الهجرة وانتصار المسلمين بغزوة بدر، كانت الفاجعة الكبيرة بموت رقية التي شغلتهم عن فرحهم بانتصار الحق على الباطل يوم الفرقان.

وتترادف الصور المفجعة في خيال أم كلثوم:

وتترادف الصور المفجعة في خيال أم كلثوم فتخرج من بين شفتيها آهة خافتة كأنما كانت ذوب نفسها، وأسبلت جفنيها على عينيها من ضعف فرأت صورة أمها أم المؤمنين وهي تسلم روحها للباري عزّ وجلّ أثناء الحصار وكذلك أختها رقية وقد رفت روحها على شفتيها وهتافات النصر يوم بدر تدوي في الخارج، وقد انزوت في ركن تسح الدموع الحزينة على فراق أختها رقية، بينما أكبت الزهراء على مضجع أختها تبكي رحيلها، وأبوها الثاكل يدخل الغرفة وفي وجهه آيات الحزن، ويذهب إلى الزهراء ليرفعها من فوق أختها يمسح دموعها بطرف ثوبه.

فإنَّ مع العسر يسراً:

وتمضي الأيام سريعة بهمومها وأحزانها، حتى تدخل أم كلثوم مرحلة عمر جديدة من مراحل أبواب السعادة والبهجة والزفاف.

وكان عندما دخل عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه على رسول اللَّه ﷺ يشكو إليه صاحبيه أبا بكر الصديق وعثمان بن عفان رضي اللَّه عنهما اللذين عرض عليهما الزواج من ابنته حفصة التى توفي عنها زوجها خُنيس بن حذافة، وهو الذي شهد يوم بدر ومات في المدينة، وبعد الانتهاء من عِدتها، حيث رفض أبو بكر الصديق رضي اللَّه عنه الزواج منها وكذلك عثمان بن عفان، وقد كانت خيبةَ أمل للفاروق عمر من صاحبيه أن يرفضا الزواج من ابنته!! ولكنه لم يعلم ما ادخره اللَّه جلّ جلاله له ولابنته حفصة من الشرف العظيم، والمكانة الرفيعة عند رسوله ﷺ. فقال له رسول اللَّه ﷺ: (يتزوج من حفصة من هو خير من عثمان! ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة)[١].

وقد زوج النبي ﷺ ابنته أم كلثوم لعثمان بن عفان رضي اللَّه عنه.

(١) الإصابة لابن حجر (١٢/ ١٩٨) وكذلك أخرجه البخاري في باب النكاح (٦/ ١٣٠).

وقد روت أم عياش مولاة رقية أنها سمعت رسول ﷺ يقول: (مازوجت عثمان إلا بوحي من السماء)[١].

وعن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: (أتاني جبريل فقال: إن اللّه يأمرك أن تزوج عثمان أم كلثوم على مثل صَداق رقية، وعلى مثل صحبتها[٢]).

وتحلّ أم كلثوم زوجة كريمة معززة عند عثمان بن عفان بعد أختها رقية.

ويحظى عثمان رضي اللّه عنه بلقب ذي النورين، حيث كان زوجاً لابنتي رسول اللّه ﷺ على التوالي. وكان ذلك في ربيع الأول سنه ثلاث من الهجرة[٣].

وقد عاشت أم كلثوم عند عثمان بن عفان ست سنوات لم تلد له.

وكانت ساعة الرحيل:

عندما أذَّن بلال رضي اللّه عنه معلناً الصلاة، كان ينسكب صوته في آذان المسلمين، كأنه السحر الحلال، ففتحت أبواب الدور وخرج المسلمون في عماية الصبح إلى مسجد الرسول الحبيب ﷺ، وألقى عثمان بن عفان نظرة إشفاق على زوجه أم كلثوم الممددة على فراش الوداع ثم هبط ليصلي الفجر خلف رسول اللّه ﷺ، كانت أم كلثوم شاحبة اللون قد نال منها الوهن والمرض، فتمددت في فراشها تصيخ السمع، فصوت بلال يداعب أذنيها ويوقظ روحها، فتحاول أن تنهض، لكن الجسد الضعيف لايقوى على النهوض، وبلغ مسامعها تكبير المصلين فاغرورقت عيناها بالدموع، وغابت مع غفوة وهي تحتضر بأنفاسها الأخيرة.

ودخلت عليها أم عياش خادم النبي ﷺ، فألفتها في النزع الأخير، فأرسلت إلى الرجال في المسجد فأسرع زوجها عثمان بن عفان إلى داره فإذا أم كلثوم تعالج سكرات الموت، فراح ذو النورين يناديها في وجد وهو مشفق عليها وعلى نفسه، كان يفزعه أن ينقطع بموتها نسبه برسول اللّه ﷺ.

وجاء رسول اللّه ﷺ وأبوبكر الصديق وعمر وعلي رضي اللّه عنهم ومعهم بعض الصحابة. ودخل ﷺ على ابنته وهي تلتقط آخر أنفاسها فدمعت عيناه ولم يتحرك لسانه بما يغضب اللّه عزّ وجلّ، فقد كان للبشرية أسوة حسنة.

---

(١) الإصابة لابن حجر (١٣/ ٢٧٦).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الإصابة لابن حجر (١٣/ ٢٧٦) وكذلك ترجمة عثمان بن عفان رضي اللّه عنه في الاستيعاب (٣/ ١٠٧٩) وسبب تسميته بذلك.

ودخل عليها أسماء بنت عُميس زوج أبي بكر الصديق وكذلك صفية بنت عبد المطلب رضي اللّه عنه جميعاً وأخذن يجهشن بالبكاء والدموع تسيل على وجناتهن.

وحملتها أم عطية كي تغسلها، فقال لها رسول اللّه ﷺ: (اغسلنها وتراً ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك).

وأعطاهن رسول اللّه ﷺ إزاره لتكفن فيه. وحمل مع الصحابة جثمانها إلى المسجد، فأجهشت نساء رسول اللّه ﷺ بالبكاء، وبكت فاطمة الزهراء على أختها الغالية.

وفي المسجد صلّى عليها رسول اللّه ﷺ ومِن خلفه أصحابهُ يغالبون دموعهم. وحمل جثمانها إلى البقيع ودفنت في قبرها.

ونزل في حفرة الراحلة أم كلثوم علي بن أبي طالب والفضل بن العباس وأسامة بن زيد رضي اللّه عنه. وأراد الناس أن ينزلوا معهم، فقال ﷺ: (لا ينزل في قبرها أحد قارف أهله الليلة، أفيكم أحد لم يقارف أهله الليلة). فقال أبو طلحة: أنا يا رسول اللّه. فقال له ﷺ: (انزل).

وقبرت أم كلثوم، وزوجها عثمان بن عفان غارقٌ في حزنه تجري دموعه على خديه، وعاد الناس من البقيع وقد غشيهم حزن عميق، فرأى رسول اللّه ﷺ عثمان وهو يسير مطرقاً، فدنا منه ﷺ وقال له: (لو كانت عندنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان).

فرضي اللّه عنكِ وأرضاكِ يا ابنة خير الكائنات وأنزل عليك شآبيب رحمته وكرامته وجعلك في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

الطَّاهِرَةُ العَفِيفَةُ

فاطمةُ الزهراءِ رضيَ اللَّهُ عنْها

سيِّدةُ نساءِ أهلِ الجَنَّة

السيدة الزهراء الناسكة الصفية البَضعة الشبيهة بالرسول ﷺ

فاطمة الزهراء، من الناسكات الأصفياء، وصفيات الأتقياء، السيدة البتول، البَضعة الشبيهة بالرسول العظيم ﷺ، ألوط أولاده بقلبه لصوقاً، وأولهم بعد وفاته به لحوقاً.

كانت عن الدنيا ومتعتها عازفةً، وبغوامض عيوب الدنيا وآفاتها عارفة.

قال رسول اللَّه ﷺ لفاطمة: (يا بنية! أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين؟). قالت: يا أبت! فأين مريم بنت عمران؟ قال: (تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمكِ، أما واللَّه زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة).

عندما مرضت فاطمة الزهراء التف حولها أبناؤها الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب وهم يَرْنون إليها في إشفاق وجزع، كانت تذوي وبريق عينيها الجميلتين ينطفىء رويداً رويداً، والموت يزحف إليها لتلحق برسول اللَّه ﷺ أبيها، وكذلك أخواتها زينب ورقية وأم كلثوم رضي اللَّه عنهن، والقاسم وعبد اللَّه رضي اللَّه عنهما.

فاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين، رابعة بنات النبي ﷺ محمد بن عبد اللَّه. وأمها: أم المؤمنين خديجة الكبرى بنت خويلد رضي اللَّه عنها.

المولد الشريف، والنشؤ المبارك:

ولدت السيدة فاطمة الزهراء سنة خمس وثلاثين من مولد الرسول ﷺ[(١)]، وقد شاء اللَّه سبحانه وتعالى أن يقترن مولدها قبل سنوات من المبعث الشريف

---

(١) الإصابة لابن حجر (١٣/ ٧١)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١١٨). وذكر أبو جعفر في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٢/ ٢٦٩) ذلك، وخالفه فيه جعفر بن سليمان إذ قال: (ولدت فاطمة سنة إحدى وأربعين من مولد الرسول ﷺ، وماتت وهي ابنة إحدى وعشرين سنة) واللَّه أعلم.

للنبي ﷺ، فاستبشر أبوها ﷺ بمولدها خيراً، وتوسم فيها البركة واليمن، فسمّاها فاطمة، ولقبها بالزهراء، وكناها بأم أبيها[١]، إذ كانت رضي اللّه عنها شديدة الشبه بأبيها ﷺ.

وترعرعت السيدة فاطمة في بيت نبوي رحيم، يكلؤها بالرعاية والسهر على تربيتها لتأخذ قسطاً وافراً من الأدب والحنان والتوجيه النبوي الرشيد، ومما تتمتع به أمها السيدة خديجة رضي اللّه عنها من صفات زكية وسجايا حميدة.

وبذلك نشأت على العفة الكاملة، وعزة النفس، وحب الخير، وحسن الخلق، متخذةً أباها رسول اللّه ﷺ المثلَ الأعلى لها، والقدوة الحسنة في جميع تصرفاتها، وكذلك كان لها المكانةُ الخاصة عند أبيها الحبيب ﷺ ولها الحب الخاص والحنان الدائم والعطف المستمر.

فقد ذكرت السيدة عائشة رضي اللّه عنها أنه قيل لها: أيُّ الناس كان أحبَّ إلى رسول اللّه ﷺ؟ قالت: فاطمةُ من قبل النساء، ومن الرجال زوجُها[٢].

وقد كانت تملأ البيت مرحاً وحياةً، كان ذهنها صاحياً وعيناها مفتوحتين، تحاول أن تقلد ما تراه، وتقتبس أخلاقها من أخلاق أهل بيتها، فقد كرمها اللّه جلّ جلاله أن خلقها في كنف أسرة كريمة هي نبراس لمكارم الأخلاق، ومن رعاية اللّه عزّ وجلّ وفضله عليها أن وفقها لتتخذ من أبيها ﷺ قدوة حسنة، ولتنهل من نبع عذب رقراق يفيض بالخيرات ويفيء بما أفاء اللّه من كرمه وجوده وحكمته.

فكانت الزهراء أقرب بنات النبي ﷺ شبهاً لأبيها، فقد كانت تشابهه في مِشيتها وفي لفتتها وكذلك في نبرات صوتها وعلاقتها بمن حولها وتصرفاته في جميع الأشياء، لهذا كانت أقرب أهل البيت إلى قلبه، فقد كانت أساريره تتهلل فرحاً كلما رآها، فيدعوها إليه ليحملها ويضمها إلى حنان صدره ورقة قلبه، وليطبع على وجنتيها قبلة حب وعطف ﷺ.

وبدأ التحول الكبير للزهراء في سن الخامسة من عمرها:

وما كادت الزهراء تبلغ الخامسة من عمرها، حتى بدأ التحول الكبير في حياة أبيها ﷺ، وذلك بنزول الوحي عليه، وتكليفه بالدعوة الإسلامية ودين الحق، فانتزعتها من شواغلها الطفولية وأيقظتها من أحلامها، وأُلقي بها في دُوّامة الأحداث العاتية الكبيرة التي أعقبت المبعث.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١١٩).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١٢٥).

هذا وقد خلا البيت بها من أخواتها زينب وأم كلثوم ورقية بعد زواجهن، فوجدت نفسها وحيدة في تقلب الأحداث، تساند أباها ﷺ في دعوته ضد الوثنية العارمة الشديدة، وقد كان يصاحبها في وحدتها ومشاركتها ابن عمها علي بن أبي طالب ربيب رسول اللّه ﷺ وابن عمه رضي اللّه عنه، والذي كان يكبرها بأربع سنوات.

فقد كان علي بن أبي طالب يعيش تحت كنف رسول اللّه ﷺ وتحت رعايته، وذلك منذ أن أصابت قريشاً أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال، فقال رسول اللّه ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت آخر فنكفلهما عنه.

فقال عمه العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنكَ من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه.

فقال لهم أبو طالب: إذا تركتما لي عَقيلاً ـ أحد أولاده ـ فاصنعا ما شئتما. وكان عقيل ضعيف الجسم، سقيم البدن. فأخذ الحبيب محمد ﷺ علياً وهو أصغر أبناء أبي طالب، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، وهو أكبر من علي بعشر سنين.

فلم يزل عليٌّ مع الرسول الكريم ﷺ حتى بعثه اللّه رسولاً نبياً، فاتبعه رضي اللّه عنه، وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

وقد كان علي بن أبي طالب أحدَ الثلاثة الذين سبقوا إلى دين الإسلام ولكم كان يود لو أن أباه أبا طالب شيخ الهاشميين يعلن إسلامه وينطق الشهادة فقد قال له رسول اللّه ﷺ. (وأنت أي عمِّ، أحق من بذلتُ له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه).

ونشأ علي وفاطمة في حِجر النبي ﷺ، ولم يفارقاه أبداً حتى اختار اللّه تعالى رسوله ﷺ إلى جواره.

ففي هذا كان يقول علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه لقومه[1]:

تعلمون موضعي من رسول اللّه ﷺ، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني فراشه، ويمسني جسده، ويُشِمّني عرقَه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خَطَلاً في فعل، وكنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بهذا الاقتداء.

---

(١) علي إمام المتقين للشرقاوي (١/ ١٥).

السيدة الزهراء تشارك أباها ﷺ أفراحه وأتراحه:

كانت فاطمة الزهراء بالرغم من صغر سنها تعيش مع أبيها ﷺ أحداث النبوة، فقد هجرت ملاعب الصبا، وانتبذت من صواحبها مكاناً قريباً من أبيها في قلب قريش.

وكانت تخرج من بيت النبوة تتبع أباها ﷺ وهو يسعى مبشراً بالدعوة الإسلامية، داعياً للدخول في دين الحق والإسلام، وهو يلقى أثناء ذلك ما يلقاه من السخرية والعذاب من الطغاة وأعداء الإسلام، وكانت تشاهد كل ذلك بأم عينيها، وتحترق في قلبها الطفولي الغض.

يوماً كانت هناك وراءه، تراقبه عن بعدٍ، يوم ذهب إلى البيت الحرام ليصلي، بينما هو ساجد، وحوله ناس من مشركي قريش يسخرون من صلاته وتعبده هذا، أتى المتكبر الغليظ عقبة ابن أبي مُعَيط بسَلَى جَزور[1]، وقذفه على ظهر الرسول ﷺ، فلم يرفع رأسه حتى تقدمت ابنته فاطمة، فأخذت السلى ودعت على من فعل هذا، وعندما رفع رأسه ﷺ قال[2]: (اللَّهم عليك الملأ من قريش! اللَّهم عليك أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي مُعيط، وأبَيّ بن خلف).

فخشع المشركون لدعائه، وغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته وانصرف إلى بيته، تصحبه ابنته فاطمة.

وقد استجاب اللَّه عزّ وجلّ لرسوله الكريم ﷺ في دعائه، فجميع الذين دعا عليهم كانوا صرعى يوم بدر.

وعندما نزلت الآية الكريمة على رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

جعل رسول اللَّه ﷺ ينادي في قريش: (يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من اللَّه شيئاً.. يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من اللَّه شيئاً، يا عباسُ بنَ عبد المطلب، لا أغني عنك من اللَّه شيئاً، ويا صفيةُ عمةَ رسول اللَّه، لا أغني عنكِ من اللَّه شيئاً، ويافاطمةُ بنتَ محمد، سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنكِ من اللَّه شيئاً)[3].

---

(١) (سلي جزور): هو ما يخرج من باطن الشاة والمواشي من أمعاءٍ وأحشاءٍ وغيرها.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣١٠).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء، باب (وأنذر عشيرتك الأقربين ٦/ ١٦)، ومسلم في الإيمان، باب قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين برقم/ ٢٠٦).

وقد كانت أثناء ذلك الزهراء بصحبة أبيها فعندما سمعت هذا شعرت بالفخر والاعتزاز إذ خصها رسول اللّٰه ﷺ عن سواها بالسؤال وكرّمها عن باقي أهل بيته، وذلك تأكيدٌ منه بأنه لا يغني من اللّٰه شيئاً عن أعز الناس عنده وأحبهم إليه!!!

هذا وقد شاهدتِ الكثير من مكايد الكفار لأبيها العظيم ﷺ، فكم تمنت لو استطاعت أن تفديَه بحياتها وتمنعه من أذى المشركين، ولكن أنى لها ذلك وهي في عمرها الصغير.

وتقاسي آلامَ الحصار وآلامَ الوفاة:

وقد كان من أشد ما قاسته من آلام في بداية الدعوة ذلك الحصار الشديد الذي حوصر فيه المسلمون مع بني هاشم في شِعب أبي طالب، حتى أثر الحصار والجوع في صحتها فبقيت طوال حياتها تعاني من ضعف البِنية وسقم الجسد!!!

ما كادت الزهراء الصغيرة تخرج من محنة الحصار المهلك، حتى فوجئت بوفاة أمها أم المؤمنين خديجة رضي اللّٰه عنها، فامتلأت نفسها حزناً وألماً وأسى.

يومها! راحت تنادي الأم الحبيبة الطاهرة في لهفةٍ، وهي تذرف الدموع الحيرى عليها، كانت مسجاة على الفراش تعانق سكرات الموت، والزهراء لا تعلم ما هو الموت، لكنها راحت تتلوى من الألم وعبراتها تغسل وجهها.

وشاهدت علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه يدخل على أمها الطاهرة، وقد تمزق قلبه حزناً على موت أبيه، فما إن مدَّ الفتى عينيه إلى أم المؤمنين حتى أحس بقلبه وقد تسارعت ضَرَباته، وراح يتساءل في صمت، أينضُب ينبوع الحنان الذي نهل عنه أنبل المشاعر مذ جاء إلى هذه الدار مع ابن عمه ﷺ؟ أتغيب الطاهرة أم المؤمنين عن هذا الوجود؟ فما إن دار بخَلَده ذلك الخاطر حتى فزِع، وغض، فما كان بقادر على أن يتصور بأن بيت النبوة يمكن أن يخلوَ من سيدته الطاهرة.

وأخذ يبكي في صمت المروءة والشجاعة والألفة والحنان وصدق النية وصلاح السريرة، وراحت الزهراء تمسح ببراءة الطفولة عبراته التي سالت من وجهه كالمطر المنهمر.

لقد فقدت فاطمة الزهراء الأم الطاهرة، وهي أحوج ما تكون لها في سنها هذا، فهي لا تزال في براءة الطفولة، وقد عاشت الدنيا من خلالها، فلم تعد ترى أجمل ولا أحلى أو أبهى من أمها التي ترعرعت على صدرها الحنون.

ومع حزنها الشديد على أمها الطاهرة، كانت تشاهد أباها ﷺ وقد لفه حزن شديد على فراق زوجه الطاهرة، وكذلك وفاة عمه أبي طالب، الذي كان عضدَه في دعوته الإسلامية، وحرزه في أمره، ومانعه من أذى الأشرار من قومه (الكفار) وناصرَه عليهم.

وتمر الأيام مسرعة لتشهد الزهراء ما لاقاه الحبيب ﷺ من أهل الطائف بردودٍ شنيعةٍ على دعوته، ومعاملةٍ فظةٍ لا تحتمل!!

وكذلك تعيش أحداث عودة أبيها من رحلة الإسراء والمعراج، وكيف وقف المشركون ما بين مصدِّقٍ ومكذب، وهامز ولامز بأبيها ﷺ وهو يروي لهم ما شاهده ليلة إسرائه إلى بيت المقدس، فكانت الزهراء في كل ذلك تقف إلى جانب النبي الكريم ﷺ موقف الصابرة الداعية إلى الله التي لم يصبها خَوَرٌ ولا ضعف ولا ملل.

ويأذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة من مكة إلى المدينة، ويهاجر الحبيب ﷺ بعد أن يستمهل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مكة الذي قدم نفسه فداءً للرسول الكريم ﷺ، عندما نام في فراشه تلك الليلة ليوهم شباب قريش الذين أجمعوا ليلتها على قتله وهدر دمه بين العشائر كلها، لكن كانت مفاجأةٌ كبيرة لهم عندما اكتشفوا بأن علي بن أبي طالب هو الذي ينام على الفراش والمصطفى ﷺ قد غادر مكة هو وصحبه!!!

وقد تمهل علي بن أبي طالب في مكة عن رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، ريثما أدى الودائع التي كانت عند النبي ﷺ للناس[١].

وبقيت فاطمة الزهراء وأختها أم كلثوم وبعض النساء في مكة فترة من الزمن إلى أن أرسل رسول الله ﷺ بعض أصحابه لإحضارهن إلى المدينة المنورة، وقد كان ذلك في السنة الثالثة عشرة للبعثة.

وعندما وصلن المدينة المنورة، استقبلهن نساء الأنصار بترحاب كبير وبفرح وسرور، وكان قد استقر المقام بالمهاجرين، واطمأنت قلوبهم، وذهبت عنهم وحشة الاغتراب، وقد آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، واتخذ علياً أخاً له[٢].

الزهراء ترعى والدها وتمسح عن قلبه حزنه الكبير:

كانت فاطمة الزهراء سعيدة في كنف أبويها أثناء طفولتها، فلما ماتت أمها

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٩).

(٢) السيرة الهشامية (٢/ ١٥٠) والاستيعاب (٣/ ١٠٩٨) والمحبر (٧٠).

خديجة الكبرى سيدة نساء قريش، كانت فاطمة ترعى أباها وتحاول أن تمسح عن قلبه حزنه الكبير على من كانت له وزير صدق على الدوام، حتى عرفت وتكنت الزهراء بأم النبي الصغرى.

وعندما هاجرت الزهراء من مكة إلى المدينة، كان النبي ﷺ قد بنى على عائشة بنت أبي بكر رضي اللّه عنهما.. وأسكنها دار النبوة، فأحست الزهراء بإحساسات غَيْرة الابنة ممن أخذت مكان أمها الطاهرة خديجة، وكان عزاؤها بأن أباها ﷺ قد أحب زوجه الجديدة بنت أبي بكر، وقد عرف الناس أنها زوجه الأثيرة عنده، ولم ترتح الزهراء إلى من يقاسمها قلب أبيها وعطفه الكبير، ولكن حبها له يفوق كل غيرة أو خلاف قد يحدث بينها وبين السيدة عائشة، وتيقنت أنه قد آن الأوان لأن تنتقل من بيت أبيها ﷺ راضية غير كارهة وذلك كي تخلي المكان لربته الشابة الحسناء عائشة رضي اللّه عنها.

ويتقدم لخِطبة السيدة كبار الصحابة رضي اللّه عنهم:

وكانت فاطمة الزهراء قد بلغت من العمر ثماني عشرة سنة.

ويتقدم لخطبة الزهراء كبار الصحابة، فقد تقدم أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي اللّه عنهما، ولكن النبي ﷺ اعتذر برفق بالغ من تزويجها لهما[١].

ومن ثَمّ تقدم علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ليخطب إلى رسول اللّه ﷺ ابنته فاطمة الزهراء، فقال رضي اللّه عنه: أردت أن أخطب إلى رسول اللّه ﷺ ابنته فاطمة، فقلت: واللّه مالي من شيء، ثم ذكرت صلته، وعائدته فخطبتها إليه. فقال لي النبي ﷺ: (وهل عندك شيء؟). فقلت: لا يا رسول اللّه!! فقال ﷺ: (فأين درعك الحطميّة التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟). فقلت: هي عندي يا رسول اللّه. فقال ﷺ: (فأعطها إياها)[٢].

وانطلق علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه مسرعاً وجاء بالدرع، فأمره النبي ﷺ أن يبيعها ليجهز بثمنها العروس[٣].

واشترى الدرع عثمان بن عفان رضي اللّه عنه بأربعمِائة وسبعين درهماً، وسلّم علي بن أبي طالب ثمنها لرسول اللّه ﷺ، فدفعها ﷺ إلى بلال ليشتري

---

(١) السيرة الهشامية (٢/ ١٥٠) والاستيعاب (٣/ ١٠٩٨) والمحبر (٧٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١٢). وسنن أبي داود، كتاب النكاح (٣٦)، وأخرجه النسائي (٦/ ١٢٩).
(٣) صحيح البخاري (كتاب البيوع)، ومسند الإمام أحمد (١/ ١٤٢).

ببعضها طيباً وعطراً، ثم يدفع الباقي إلى أم سلمة رضي اللَّه عنها لتشتري جَهاز العروس.

ودعا النبي ﷺ صحابته، فأشهدهم أنه زوَّج ابنته فاطمة من علي بن أبي طالب على أربعمِائة مثقال من فضة على السنة القائمة والفريضة الواجبة، وختم خِطبة الزواج بمباركة العروسين، والدعاء لهما بالذرية الصالحة، ثم قدَّم إلى الصحابة الكرام وعاء فيه تمر[١].

ويحظى بالشرف علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه:

وبعد أن تم عقد زواج الزهراء على فارس الإسلام علي بن أبي طالب كرم اللَّه وجهه، أمر رسول اللَّه ﷺ أم سلمة أن تمضي بالعروسين إلى دارهما وقال لعلي رضي اللَّه عنه: (لا تحدث شيئاً حتى تلقاني).

وذهب ﷺ لصلاة العشاء، وعندما انتهى عاد إلى بيت العروس الزهراء، فَدَعا بماءٍ، فتوضأ منه، ثم أفرغه على فاطمة وعليٍّ، وقال: (اللَّهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك في نسلهما)[٢].

استيقظت أم الفضل (امرأة العباس) من نومها وهي تحس انقباضاً في صدرها، فقد رأت رؤيا أفزعتها، وفكرت في أن تقص رؤياها على رسول اللَّه ﷺ، ولكن كيف وقد رأت عضواً من أعضائه يقطع ويلقى به في بيتها!!!

إن ما رأته يزعجها، فعزمت على ألا تقص خبر رؤياها على النبي ﷺ، وراحت تغدو وتروح وما تزال الرؤيا المفزعة ماثلةً في ذهنها تقلقها وتحيرها، فقد حاولت النسيان، ولكن كيف وهي تحتل كل تفكيرها، فلما لم تطق صبراً، انطلقت إلى رسول اللَّه ﷺ وقالت له: يا رسول اللَّه! رأيت عضواً من أعضائك في بيتي.

وأحست بعض الراحة بعد أن أفضت بما كان يقلقها كتمانُه، ونظرت إلى النبي ﷺ لترى أثر الحديث في وجهه فإذا به يتهلل مبتسماً، ويقول: (خيراً رأيته، تلد فاطمة غلاماً فترضعينه).

وتمّ الزواج الميمون:

ودخل علي على فاطمة والبِشر يترقرق في محيّاه، تملأ نفسه تلك الغبطة

---

(١) الإصابة (٨/ ١٥٨).

(٢) طبقات بن سعد (٨/ ١٥)، الإصابة (٨/ ١٥٨).

التي تملأ كل زوج يرقُب وليده الأول، وأقبل على الزهراء يلاطفها، فنزلت السعادة بالدار الصغيرة التي ما كان بها إلا إهاب كبش كان فراشاً للزوجين، وقطيفة إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رؤوسهما.

وحانت ساعة الولادة والبشرى؟:

وحانت ساعة الولادة فقال ﷺ لأم رومان وأم سلمة: (أحضرا فاطمة).

واستمر الزوج الحبيب علي في قلقه حتى إذا ما وقع ولده واستهل صارخاً، انتشت روحه وسكنت الطمأنينة قلبه، فقد كان يخشى على زوجه التي شَحَب لونها وانتابها هُزال في شهورها الأخيرة من الحمل.

ويأتي المولود الحبيب:

ودخل النبي الكريم ﷺ على ابنته الزهراء، فأُخرج له المولود في خرقة صفراء، فرمى بها وقال: (ألم أنهكم أن تلفوا الولد في خرقة صفراء؟).

وأمر أن يلف في خرقة بيضاء، فلفوه وجاؤوا به إلى رسول اللَّه ﷺ، فقطع سُرَّه، وقال له: (اللَّهم إني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم).

وفي اليوم السابع جاء رسول اللَّه ﷺ، وقال: (أروني ابني، ما سميتموه؟). فقال علي كرم اللَّه وجهه: حرباً. فقال رسول اللَّه ﷺ: (بل هو حسن). ونحر كبشاً وأعطى القابلة فخذاً وديناراً وقال: (يا فاطمة احلقي رأسه وتصدقي بزنة شعره فضة).

وأُثلِج صدر الزوج الكريم أبي الحسن رضي اللَّه عنه، فقد وهبه اللَّه عز وجل هبة عظمى، وهبه ذرية من نسل رسول اللَّه ﷺ وكذلك انشرح صدر الزوجة الزهراء فاطمة، بوليدها فراحت ترقصه وهي فرحة مسرورة به، وتنشد:

أشبه أباك يا حسن
واخلع عن الحق الرسن
وأعبد إلهاً ذا منن
ولا توالي ذا الإحن

السيدة الزهراء مجاهدة في يوم أحد!!

وكان يوم أحد، فخرجت الزهراء مع من خرجت من النساء، وهُرعت إلى أبيها ﷺ وإلى زوجها، وقد رأت الذي بوجه أبيها من الدم والجروح، فأراد علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه أن يذهب ليأتي بماء يغسل به الدم عن وجه رسول اللَّه ﷺ، فقال لفاطمة:

أفاطم هاء السيف غير ذميم ... فلست بِرِعديد ولا بلئيم

لَعَمْري لقد جاهدت في نصر أحمد وطـاعـة رب بـالـعـبـاد رحـيـم

فنظر إليه رسول اللّه ﷺ وهو مختضبٌ بالدم، وقال: (لئن كنتُ أحسنت بالقتال اليوم، فلقد أحسن عاصم بن ثابت، والحارث بن الصِّمة، وسهل بن حُنيف، وسيف بن دُحانة، غير مذموم).

وما إنِ انقضى شهر حتى حملت فاطمة ثانية، فكانت أم الفضل ترضع الحسن، وفي ذات يوم جاءت به إلى النبي ﷺ، فوضعته في حجره، فبال، فضربت كتفه، فنظر إليها النبي ﷺ وقال: (أوجعت ابني، رحمكِ اللّه).

وما إن بلغ الحسن من العمر ما يقارب العام حتى ولد (الحسين) في شهر شعبان سنة أربع من الهجرة[١].

وعندما نزلت الآية الكريمة: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

كان النبي ﷺ عند زوجه أم سلمة رضي اللّه عنها، فدعا علياً وفاطمة والحسن والحسين فغطاهم بكساء، ثم قال: (اللّهم هؤلاء أهل بيتي، اللّهم فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً). قال ذلك ثلاث مرات، ثم قال: (اللّهم اجعل صلواتكَ وبركاتِكَ على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنكَ حميد مجيد)[٢].

وجاء المولود الثالث (زينب):

وتتابع الثمر المبارك الطيب من ذرية طيبةٍ، فولدت الزهراء في العام الخامس للهجرة طفلة أسماها جدها ﷺ: (زينب). وبعد عامين من مولد زينب وضعت طفلة أخرى اختار لها جدها رسول اللّه ﷺ اسم (أم كلثوم) وذلك تخليداً لبناته ﷺ اللائي فارقن الحياة الدنيا واحدة تلو الأخرى.

وبذلك آثر اللّه جلّ جلاله فاطمة الزهراء عن سواها بالنعمة الكبرى، إذ حصر في ذريتها سُلالة النبي ﷺ، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية.

سيد الكائنات ﷺ يقوم للزهراء ويقبلها!!

كان رسول اللّه ﷺ يحب ابنته فاطمة من جوامع الفؤاد، كانت إذا دخلت عليه

---

(١) راجع ترجمة الحسن والحسين في كتاب المناقب في صحيح البخاري، والفضائل من صحيح مسلم.

(٢) راجع صحيح مسلم باب فضل أهل بيت النبي ﷺ رقم (٢٤٢٤).

قام إليها وقبلها وأجلسها مكانه[١]، ولكن ذلك الحب لم يثنه يوماً عن أن يحيد عن تبليغ رسالته، وأن يرضى لأهله أن يعيشوا عِيشة الترف، بينما سائر المسلمين فقراء.

فقد جاءته الزهراء ذات يوم تشكو من آلام الرحى، وقد جرحت يداها من حمل الماء، فطلبت إلى رسول اللّٰه ﷺ أن يمنحها خادماً من الأسرى، فأبى ذلك وقال: (كيف تطمعون في شيء من هذا وأهل الصُفّة على ما هم عليه من الفقر؟).

ودخل رسول اللّٰه ﷺ يوماً على فاطمة، فوجد في يدها سلسلة من ذهب، وهي تقول لامرأة عندها: هذه أهداها لي أبو الحسن. فقال رسول اللّٰه ﷺ: (يا فاطمة، أيسرك أن يقول الناس ابنة رسول اللّٰه في يدها سلسلة من نار؟). ثم خرج ولم يقعد، فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها، واشترت بثمنها عبداً فأعتقته لوجه اللّٰه سبحانه وتعالى، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (الحمد اللّٰه الذي نجى فاطمة من النار)[٢].

كانت السعادة تغمر دار فاطمة الزهراء، فهي سعيدة بزوجها البطل الذي يُجَدِّل أعداء الإسلام، وكذلك هو سعيد ببنت رسول اللّٰه ﷺ.

حبيبه وقُدوته وأمله في الحياة والممات، ولكن كان يعود أحياناً إلى بيته وهو منحرف المِزاج من شيء ما، فكانت تذهب إلى أبيها رسول اللّٰه ﷺ تشكو إليه ما لقيت من ابن أبي طالب، فكان رضي اللّٰه عنه يصلح بينهما ويؤلف قلبيهما على الحب والمودة والصبر[٣].

وقد رئي ﷺ ذات مساء وهو يسعى إلى دار ابنته الزهراء ووجهه باسر، فأمضى وقتاً هناك، ثم خرج ووجهه يفيض بالبشر، فقال قائل من أصحابه: يا رسول اللّٰه دخلت وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك؟!.

فقال رسول اللّٰه ﷺ: (وما يمنعني، وقد أصلحت بين أحب اثنين إليَّ)؟.

الحبيب ﷺ لا يرضى الضرّة للزهراء!!

وعندما أسلمت بنت عمرو بن هشام بن المغيرة (أبي جهل) ورأى أهلها الذين أسلموا من قبل أن ليس لها كفء بين المسلمين غير علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه، فعرضوا على علي الزواج منها، وذاع الخبر في المدينة حتى بلغ زوجه الزهراء، فذهبت إلى أبيها تخبره والدموع في عينيها!

---

(١) أخرجه أبو داود في باب الأدب برقم (٥٢١٧)، والترمذي في المناقب باب مناقب فاطمة الزهراء برقم (٣٨٧١)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٥٤) وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه النسائي في باب الزينة (٨/ ١٥٨)، والحاكم (٣/ ١٥٢ ـ ١٥٣).
(٣) الإصابة (٨/ ١٦٠)، طبقات ابن سعد (٨/ ١٦).

فإذا به يغضب لابنته، أيجمع علي بن أبي طالب بنت رسول اللّه وبنت عدو اللّه؟ إن هذا لن يكون!!!

وبدأ بنو هشام بن المغيرة يستأذنونه في تزويج بنتهم من زوج فاطمة، فإذا بوجهه يظهر فيه ضيق، وعجب بنو المغيرة، فما كان الإسلام ليحول بين علي وزواجه من أخرى وقد تزوج رسول اللّه ﷺ أكثر من امرأة، ولكن ﷺ ظل وفياً لأول زوجة خفق بحبها قلبه، ظل وفياً لخديجة لم يُثِر غيرتها بزوجة أخرى حتى رحلت من الدنيا، فما بال علي يريد أن يجمع بين ابنته وبين بنت عدوه، وثارت بشريته ﷺ، فصعِد إلى المنبر وقال: (إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكح ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم أبداً، ثم لا آذن لهم، اللّهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإن فاطمة بَضعة مني يَريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها، وإني أتخوف أن تفتن في دينها)[١].

إنه ﷺ بَشَرٌ، وقد عبر عن بشريته بقوله: إنما فاطمة بَضعة مني يَريبني ما رابها، ولم يحرم حلالاً ولا أحل حراماً، وقد رد الأمر إلى ابن عمه وربيبه ليختار، وقد اختار علي رضي اللّه عنه بنت رسول اللّه ﷺ.

وعادت المودة والصفاء إلى بيت الزوجية التي هبت عليها ريح قاسية أرهقت كل من فيها، وراحت فاطمة ترقّص طفلها وهي تقول مداعبة للزوج الذي فكر يوماً في أن يجيء لها بضرة:

وبأبي شبه النبي لست شبيهاً بعلي

ودنا علي رضي اللّه عنه من زوجه الزهراء، يقول لها في رقة: واللّه لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً[٢]؟!!!

ودخل رسول اللّه ﷺ بيت الزهراء وزوجها فقال لهما: (ألا أخبركما بخير ما سألتماني؟) وكانا قد سألاه إعانةً، فقالا: بلى يا رسول اللّه، فقال رسول اللّه ﷺ: (كلمات علمنيهن جبريل، تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمَدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما، تسبحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان أربعاً وثلاثين، وتكبران ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من كل شيء).

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب فاطمة (٤/ ٢١٩) ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل بنت النبي ﷺ (٢٤٤٩).

(٢) الإصابة (٨/ ١٦٠) وطبقات ابن سعد (٨/ ١٦).

فقال علي رضي اللَّه عنه: ما تركتهن منذ علمنيهن، فسأله رجل من أصحابه: ولا ليلة صِفِّين؟ فقال: ولا ليلة صفين[١].

الزهراء والفاجعة العظمى:

لقد مرت السيدة فاطمة الزهراء رضي اللَّه عنها بأحداث كثيرة متشابكة وقاسية للغاية، وذلك منذ نعومة أظفارها، حيث شهدت وفاة أمها الطاهرة وهي لا تزال فتاة صغيرة لا تعرف ما هو الموت، وكذلك شهدت وفاة أختها رقية بعد عودتها من هجرة الحبشة، ومن ثَمَّ تلتها في السنة الثامنة للهجرة وفاة أختها زينب الكبرى، وفي السنة التاسعة للهجرة توفى اللَّه جلّ جلاله أختها ورفيقتها في هجرتها أم كلثوم.

واحتملت كذلك حياة التقشف والفقر، وكابدت من ذلك الشيء الكثير الذي نادراً ما نجد فتاةً قد تتحمل ذلك!!!

ولكن الطاهرة الزهراء التي رباها رسول اللَّه ﷺ وجعلها كأمه الصغرى، وحضنها بعطفه وحنانه وحبه، لم تكن لتستسلم للأحزان، أو اليأس، بل كانت مثالاً للفتاة الصابرة المرابطة الداعية إلى اللَّه عزّ وجلّ.

ولكن الامتحان في هذه المرحلة الأخيرة كان صعباً جداً، قد هز مشاعرها، وأثر على نفسها وجسمها وآمالها وأحلامها.

فقد ألمَّ برسول اللَّه ﷺ مرض عصيب، وكان ذلك في ليالٍ بقين من صَفَر الخير في السنة الحادية عشرة للهجرة، فظن آل بيته والمسلمون أنها وعكةٌ طارئةٌ لا تلبث أن تزول، ولكن الانتظار قد طال، وبقي رسول اللَّه ﷺ أسير مرضه لا يغادر فراشه.

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي اللَّه عنها[٢]: كُنّا أزواجَ النبي ﷺ اجتمعن عنده، فلم يغادر منهن واحدة، فجاءت فاطمة تمشي، ما تخطىء مِشيتها مشية رسول اللَّه ﷺ، فلما رآها، رحَّب بها، وقال: (مرحباً يا بنيتي)!! ثم أقعدها عن يمينه، أو عن يساره، ثم سارَّها، فبكت، ثم سارَّها الثانية، فضحكت!! فلما قامت من جانبه، قلت لها: أيْ فاطمةُ: خصك رسول اللَّه ﷺ بالسر وأنت تبكين،

---

(١) راجع صحيح مسلم ذكر بألفاظ متفاوتة في كتاب الذكر والدعاء برقم (٢٧٢٧ و٢٧٢٨). وفي الإصابة (٨/ ١٥٩).

(٢) في الإصابة لابن حجر (١٣/ ٧٤ ـ ٧٥)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١٣٠)، والبخاري في كتاب الأنبياء باب علامات النبوة، ومسلم في فضل الصحابة باب فضل فاطمة.

عزمت عليك بما لي عليك من حق لَمّا أخبرتني ممَّ ضحكت؟ ومما بكيت.

قالت فاطمة: ما كنت لأفشيَ سر رسول اللَّه ﷺ!! فلما تُوفي رسول اللَّه ﷺ قلت لها: عزمت عليك بما لي عليكِ من حق لما أخبرتني؟

قالت فاطمة: أما الآن فنعم!! في المرة الأولى حدثني فقال: (إن جبريل كان يعارضني بالقرآن كلَّ سنة مرة، وإنه عارضني العام في هذه السنة مرتين! وإني لا أحسبُ ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي اللَّه واصبري، فنعم السَّلفُ لك أنا). فبكيت، فلما رأى جزعي قال: (أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين)؟ قالت: فضحكت[1].

وبقيت الزهراء بجانب أبيها (لا تفارقه في بيت السيدة عائشة، وكان قد أثقله المرض، فكانت تخدُمه وتسهر عليه السيدة عائشة رضي اللَّه عنها، وتتجمل بالصبر على قضاء اللَّه وقدره، وهي تدعو اللَّه سبحانه وتعالى أن يعافيَ رسول اللَّه ﷺ ويخفف عنه آلامه.

ولما ثقل المرض برسول اللَّه ﷺ وجعل يتغشاه، راحت فاطمة الزهراء تصيح وتندب أباها قائلة: وَاكرْب أبتاه!! فقال ﷺ: (ليس على أبيك كرب بعد اليوم)[2].

وعن السيدة عائشة رضي اللَّه عنها تقول يوم فارق رسول اللَّه ﷺ روحه الطاهرة:

رجع إلي رسول اللَّه ﷺ في ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجري، ووجدت رسول اللَّه ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شَخَص، وهو يقول: (اللّهم الرفيقَ الأعلى). فقلت: خُيّرتَ فاخترت والذي بعثك بالحق!! قالت[3]: وقبض رسول اللَّه ﷺ، ولما ثقل النبي ﷺ.. كانت فاطمة رضي اللَّه عنها حاضرة عنده، ترى ما نزل به من أمر اللَّه تعالى الذي لا مرد له، فتأخذها العبرات حزناً ولوعةً على أبيها وهي تراه يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: (لا إله إلا اللَّه إن للموت سكراتٍ)[4].

---

(١) وفي رواية لابن أبي شيبة بسند حسن في (كنز العمال (١٣/ ٦٧٥)): أن فاطمة قالت لعائشة: أرأيت حين أكبيت على رسول اللَّه ﷺ فبكيت؟ ثم أكبيت عليه فضحكت؟ قالت: أخبرني أنه ميت من وجعه فبكيت، ثم أخبرني أنني أسرع أهله به لحوقاً؛ وقال: (أنتِ سيدة نساء أهل الجنة، إلا مريم بنت عمران)، فضحكت.

(٢) من حديث عن أنس بن مالك. راجع صحيح البخاري، باب مرض رسول اللَّه ﷺ ووفاته.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥) وصحيح البخاري: آخر ما تكلم به الرسول ﷺ، باب مرضه.

(٤) صحيح البخاري: باب مرض رسول اللَّه ﷺ ووفاته.

وأخذت فاطمة الزهراء تصيح بأعلى صوتها من شدة حزنها وفراقها، تندب رسول اللّه ﷺ:

يا أبتاه، أجاب رباً دعاهُ! يا أبتاه! مَن جنة الفردوس مأواه، إلى جبريل ننعاه!!

ومات رسول اللّه ﷺ بين سُحْر عائشة ونحرها، فمن حداثة سنها وضعت رأسه الشريف على وسادة، فلم يلبث أن خرج العباس إلى الناس، فنعى رسول اللّه ﷺ فقال القوم له: يا عباس: ما أدركت منه ﷺ؟ فقال: أدركته وهو يقول: (جلال ربي الرفيع قد بلغت).

فلما دفن ﷺ قالت الزهراء لأنس: يا أنس: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول اللّه التراب[1]؟!!

وبكت الزهراء أمُّ أبيها، وبكى المسلمون جميعاً نبيهم ورسولهم وحبيبهم وقائدهم محمداً ﷺ وهم يذكرون قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[الأنبياء: ٣٤].

الزهراء وقضية الميراث:

وبعد مرور أيام على وفاة أبيها ﷺ تعلقت آمالها بميراثه، فقد كانت تطلب الزهراء ميراثها من أرض فدكٍ وسهمه من خيبر، وجاءت تطلب ذلك من أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه فحدثها أنه سمع النبي ﷺ يقول: (لا نورث ما تركناه صدقةٌ) ولكنني أعول من كان رسول اللّه يعول، وأنفق على من كان رسول اللّه ينفق. لكن الزهراء وَجَدت عليه وغضبت..

واعتذر إليها أبو بكر رضي اللّه عنه فقال: (يا حبيبة رسول اللّه!! واللّه إن قرابة رسول اللّه أحبُّ إليَّ من قرابتي، وإنكِ لأحبُّ إليَّ من عائشة، ولوددت يوم مات أبوك أني متُّ ولا أبقى بعده! أفتراني أعرفكِ، وأعرف فضلكِ وشرفكِ؟ وأمنعكِ حقكِ وميراثكِ من رسول اللّه؟ إلا أني سمعته ﷺ يقول: (لا نورث ما تركناه صدقة)[2].

السيدة تستعدُّ للقاء الحبيب جلّ جلاله:

وما إن مرت الشهور القليلة على وفاة أبيها ﷺ، حتى بدأت الزهراء تفكر

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٥/ ١٣٧).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١٢٠ ـ ١٢١).

بلحظات الرحيل، والاستعداد ليوم الممات، فقد بشرها ﷺ بأنها أول أهله لحوقاً به، فكانت كثيراً ما تفكر بالموت وتتحدث عنه، حتى قرب أجلها[١].

السيدة فاطمة الزهراء، لم تدخل الفرحة أو السرور إلى قلبها برهة من الزمن فقد مات أبوها ﷺ، إنها تذوب كل يوم حزناً عليه وشوقاً إليه، ومرضت فراح الحسن والحسين وأم كلثوم يرنون إلى أمهم في إشفاق وجزع، إنها تذوي وبريق عينيها الجميلتين ينطفىء رويداً رويداً، والموت يزحف إليها لتلحق بالحبيب رسول اللّه ﷺ وبإخوتها الأحبة زينب ورقية وأم كلثوم.

إن أمها الطاهرة خديجة، قد رقدت هناك في مكة، ودفنت زينب ورقية وأم كلثوم وأم أيمن هنا في البقيع، وقبر أبوها حيث قبض في بيت عائشة، إنهم ماتوا جميعاً، ولكنها كأنها تراهم عند سريرها ينتظرونها لتنطلق معهم إلى حيث ذهب أبوها، إلى الرفيق الأعلى.

كان الموت يطلبها حثيثاً، وإنها لتترك الدنيا غيرَ آسفة على فراقها، فما تنافست في عزها وفخرها، وما بهرتها زينتها ونعيمها، وما جزِعت من ضرائها وبؤسها، إنها عما قليل ستصبح ميتةً تُبكى، وستخلف من ورائها دنيا لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى.

وفتحت عينين واهنتين، فرأت أبا الحسن والهاً حزيناً، والحسن والحسين وفي أعينهما دموع، وأم كلثوم تكاد تموت من الأسى والحزن على أمها الزهراء، فأرادت أن تواسيهم ولكن الكلماتِ ماتت على شفتيها، ولم تجد الكلام الذي يعبر عما تعتمل به نفسها.

تقول أمُّ رافع[٢]: مرضت فاطمة، فلما كان اليوم الذي توفيت فيه، قالت لي:

(يا أمة: اسكبي لي غسلاً، فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل، ثم لبست ثياباً لها جدداً، ثم قالت: اجعلي فراشي وسط البيت، فاضطجعت عليه، واستقبلت القبلة، وقالت: يا أمة: إني مقبوضة الساعة! فماتت، رضي اللّه عنها، فجاء علي بن أبي طالب، فأخبرته، فغسلها ودفنها بعد ذلك، ومن ثَمَّ صلَّى عليها هو والعباس رضي اللّه عنهم جميعاً.

وفي ليلة الثلاثاء، لثلاثِ خلون من شهر رمضان المبارك سنة إحدى عشرة من الهجرة..

---

(١) طبقات ابن سعد (٦٣٣)، وعن تراجم سيدات بيت النبوة ببعض التصرف.

(٢) الإصابة لابن حجر (١٣/ ٧٥).

فاضت الروح الطاهرة المطمئنة ورجعت إلى ربها راضية مرضية، فأجهش أبو الحسن بالبكاء، وراح الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب يذرفون الدموع على أعظم أم في الوجود، سيدة نساء أهل الجنة.

وقام علي وأسماء بنت عميس وسلمى أم رافع رضي اللّه عنهم يجهزون الجسد الطاهر للدفن والعيون الفجيعة تسح الدموع، واجتمع الناس في المسجد وقد نزل بقلوبهم حزن ثقيل، فقد جدد موت الزهراء أحزانهم على فراق أبيها نبي الرحمة ورسول رب العالمين ﷺ.

وقد صلّى عليها زوجها علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه وعمه العباس رضي اللّه عنه. وفي سكون الليل، وعلى أضواء المشاعل خرجت الجنازة إلى البقيع وقد غامت أعين الرجال بالدموع، وارتفع نشيج النساء من الدور عزاءً للزهراء الراحلة.

الكرّار عليٌّ رضي اللّه عنه يرثي الزهراء ويناجي حبيبه محمداً ﷺ:

وشعر علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه بنار الحزن تلسع فؤاده، فلم يقدر أن يكتم ما به من حزن، فوقف يناجي رسول اللّه ﷺ، ويرثي زهراءه:

السلام عليك يا رسول اللّه، عني وعن ابنتك النازلة إلى جوارك والسريعة اللحاق بك. قلّ يا رسول اللّه عن صفيتك صبري، ورقَّ عنها تجلدي، إلا أن لي في التآسي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك، موضع تعز، ولقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك.

إنا للّه وإنا إليه راجعون، لقد استرجعت الوديعة، وأُخذت الرهينة، أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، إلى أن يختار اللّه إلى دارك التي أنت بها مقيم، فأحفها السؤال واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذكر، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئمٍ، فإن أنصرف فلاعَنْ مَلالة، وإن أُقِم فلا عَنْ سوء ظن بما وعد اللّه الصابرين.

فرحم اللّه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، أمَّ أبيها، سيدة نساء أهل الجنة، ريحانة سيد ولد آدم، وزوج سيد الفرسان، وأم الحسن والحسين أبي الشهداء، وأم زينب بطلة كربلاء والتقية أم كلثوم رضي اللّه عنهم جميعاً.

القسم الخامس

مؤمناتٌ عظيماتٌ لهنّ في جَبِيْنِ التاريخِ بصماتٌ مِنْ نورٍ؟!

السَّيدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ أسماءُ بنتُ عُميسٍ رضيَ اللَّهُ عنها

الصَّحَابيّة أمُّ عَمَارة رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ أمُّ سُليم بنتُ مِلحان رضي اللَّه عنها

السَّيدةُ أمُّ حَرَام بنتُ مِلحان رضيَ اللَّهُ عنها

الصَّحابيَّةُ خَوْلَةُ بنتُ ثَعْلَبَة رضيَ اللَّهُ عنها

السَّيدةُ الخَنْسَاءُ رضي اللَّهُ عنها

السَّيدةُ
أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ
رضيَ اللّٰهُ عنْهما
ذاتُ النِّطاقَيْنِ

وسام شرف من سيد الكائنات محمد ﷺ لأسماء:

لما أراد رسول اللّٰه ﷺ الخروج إلى المدينة، صنعت سفرته في بيت أبي بكر، فقال أبو بكر: ابغيني معلاقاً لسفرة رسول اللّٰه ﷺ وعِصاماً لقربته، فقلت: ما أجد إلا نطاقي قال: فهاتيه. قالت: فقطعته باثنين، فجعل إحداهما للسفرة والأخرى للقربة، فلذلك سميت ذات النطاقين، وقال رسول اللّٰه ﷺ: (أبدلك اللّٰه بنطاقِكِ هذا نطاقين في الجنة)!!

الصادقة الصابرة، التوابة الذاكرة، الشاقة نطاقها لسفرة رسول اللّٰه ﷺ.

أسماء بنت أبي بكر: صاحبة المكانة الرفيعة، وعزة النفس والشجاعة الفائقة، الشاعرة الناثرة ذات منطق وبيان فصيح.

بنت المسلم الأول بعد رسول اللّٰه ﷺ، شيخ الإسلام أبي بكر الصديق رضي اللّٰه عنه، وأمها قَتيلة بنت عبد العزى بن عبد أسعد بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر العامرية.

وأم الصحابي الجليل عبد اللّٰه بن الزبير رضي اللّٰه عنه.
وأخت أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي اللّٰه عنها.
وأسماء بنت أبي بكر آخر المهاجرات وفاةً.

أسلمت أسماء بنت الصديق بعد إسلام سبعة عشر إنساناً قد أنار اللّٰه قلوبهم بالإيمان، وبايعت النبي ﷺ وآمنت باللّٰه ورسوله الأعظم ﷺ إيماناً قوياً.

لم تستقبل أمها الكافرة حتى تستشير النبي ﷺ!!!

ومن حسن إسلامها أن أمها (قتيلة) قد طلقها والدها الصديق في الجاهلية، فيذكر أن (قتيلة) قدمت على ابنتها أسماء بنت الصديق ذات يوم لزيارتها، تحمل

لها هدية وكانت قتيلة راغبةً عن الإسلام متشبثة بدين قومها، وكان معها ابنها الحارث ابن المدرك بن عمر بن مخزوم، فأبت أسماء أن تقبل هديتها حتى تسأل رسول اللّه ﷺ، فسألته فأنزل اللّه عزّ وجلّ على نبيه الكريم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فأدخلتها أسماء بنت الصديق وقبلت هديتها، بعد أن سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (نعم صِلِي أمك)[١].

ولقد شهدت ذات النطاقين عهديْ ما قبل البَعثة وما بعدها، وعاشت أحداثها يوماً بعد يوم، فقد كانت ابنة الصدّيق، صاحبٌ ورفيق وملازمُ رسول اللّه ﷺ الذي كان له شرف السبق إلى الإسلام وتصديق الرسول الكريم ﷺ في دعوته.

قد كان أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه الداعيةَ الأكبر بعد رسول اللّه ﷺ وشيخ الإسلامِ الأول، وكان لجهوده العظيمة في الدعوة لدين الإسلام وعلى الإقناع، الفضلُ في هداية وإسلام كثير من الصحابة منهم عثمان بن عفان، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن الزبير وغيرهم كثر رضي اللّه عنهم جميعاً. فيما عدا آل بيته الكرام الذين ابتدأ دعوته فيهم فآمنت زوجه أم رومان رضي اللّه عنها وكذلك بناته[٢].

الحبيب ﷺ كان يُؤمِّنها على سرّ الدعوة:

وكان لأسماء الدور الأكبر في مساعدة أبيها ومشاركته بأعباء الدعوة الإسلامية إلى اللّه جلّ جلاله، ونصرة رسوله الكريم ﷺ.

وقد كان للنبي ﷺ الثقة الكبيرة في أبي بكر الصديق وابنتيه أسماء وعائشة وذلك حين أطلعهم على سرِّ الهجرة التي أذن اللّه تعالى بها لرسوله الكريم ﷺ.

تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها[٣]: كان لا يخطئ رسول اللّه ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرةً، وإما عشية، حتى إذا كان في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه؛ أتانا رسول اللّه ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها!!

فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول اللّه ﷺ هذه الساعة إلا لأمرٍ حدث..

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة، باب الهدية للمشركين، وقول اللّه تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ برقم (٣/ ١٤٢) وأخرجه مسلم في الزكاة برقم (١٠٠٣).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٥٠).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

فلما دخل ﷺ تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول اللّه ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول اللّه ﷺ: (أَخرجْ عني مَن عِنْدَك). فقال أبو بكر: يا رسول اللّه، إنما هما أهلك، وما ذاك؟ فداك أبي وأمي. فقال ﷺ: (إن اللّه قد أذِنَ لي في الخروج و الهجرة). فقال أبو بكر: الصحبةَ يا رسول اللّه!! قال رسول اللّه ﷺ: (الصحبة)! تقول السيدة عائشة رضي اللّه عنها: فواللّه ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم أنَّ أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ[١].

وكانت هجرة المصطفى الكريم ﷺ بصحبة الصديق رضي اللّه عنه إلى أن وصلا إلى غارٍ بجبل ثَور، فدخلاه وكان لأسماء وأخيها عبد اللّه الدور الكبير في إيصال المعلومات والمؤن كل ليلة، فكان عبد اللّه يزود رسول اللّه ﷺ بالأخبار عن قريش وتحركاتهم، وأما أسماء فكانت تزوده ﷺ وأباها بالطعام والشراب.

دور أسماء المشرّف في الهجرة النبوية الشريفة:

تقول أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنهما[٢]: لما خرج رسول اللّه ﷺ، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم. فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقالت أسماء: لا أدري واللّه أين أبي، فقالت: رفع أبو جهل ـ فرعون هذه الأمة ـ يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدي لطمة خرَّ منه قُرطي.

أسماء تقنع جدّها أبا قحافة بحكمتها العظيمة!

ولما توجه رسول اللّه ﷺ من مكة إلى المدينة معه أبو بكر، حمل أبو بكر معه جميع ماله خمسة آلاف أو ستة آلاف، فأتاني جدي أبو قحافة، وقد ذهب بعيره، فقال: إن هذا واللّه فد فجعكم بماله مع نفسه، فقلت: كلا يا أباه! قد ترك لنا خيراً كثيراً، فعمَدتُ إلى حجارة فجعلتهن في كوة من البيت، كان أبو بكر يجعل ماله فيها، وغطيت على الأحجار بثوب ثم جئت به فأخذت يده فوضعتها على الثوب، فقلت: ترك لنا هذا.. فجعل يلتمس الحجارة من وراء الثوب، أما إذا ترك لكم هذا فنعم.

لا واللّه ما ترك لنا إلا قليلاً[٣].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

(٣) تاريخ مختصر دمشق لابن عساكر (٥/ ١٣٩) والسيرة النبوية الهشامية (١/ ٤٨٨). ونقله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٨) حيث أشار الشيخ شعيب الأرناؤوط إلى صحة الإسناد هناك.

وهكذا نرى بأن السيدة أسماء بنت أبي بكر قد تعرضت للأذى والاضطهاد والعذاب من قبل قريش والكفار جميعاً، وذلك في سبيل التستر على هجرة رسول اللّه ﷺ ومن كان معه.

وكذلك بحكمتها العظيمة استطاعت أن تقنع جدها بأن أباها قد ترك لهم المال الوفير، في سبيل العيش دون أن يشعر بأي شيء!!!

السيدة العظيمة أسماء تروي لنا قصة زواجها من الزبير:

تزوجت أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنها الزبير بن العوام في مكة، وقد أقامت معه على كفاف العيش، وفي هذا تروي لنا قائلة[١]: تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، قالت: فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته، وأسوسه، وأدقُّ النوى الناضحة وأعلفه[٢]. وأستقي الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، فكان يخبز لي جارات من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير الذي أقطعه رسول اللّه ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ. قالت: فجئت يوماً والنوى على رأسي، فلقيت رسول اللّه ﷺ ومعه نفر من الصحابة، فدعاني فقال ﷺ: (إخْ إخْ)[٣]. ليحملني خلفه، قالت: فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت غَيرة الزبير، وكان أغير الناس. فعرف رسول اللّه أني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير وقلت له: لقيني رسول اللّه ﷺ وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب فاستحييت مراعاة لغَيْرتك. فقال الزبير: واللّه لحملك النوى كان أشد عليَّ من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادمٍ فكفاني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني[٤].

وعن عكرمة: إن أسماء كانت تحت الزبير بن العوام وكان شديداً عليها، فأتت أباها فشكت ذلك إليه، فقال: يا بنية اصبري، فإن المرأة إن كان لها زوج صالح ثم مات عنها فلم تتزوج بعده جُمع بينهما في الجنة[٥].

ولم تمضِ فترة طويلة على هجرة رسول اللّه ﷺ إلى المدينة مع أصحابه،

---

(١) الإصابة لابن حجر (١٢/ ١١٤)، ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٤٠).

(٢) الناضح، الدابة أو الثور الذي يُستقى علية الماء.

(٣) قوله: إخ إخ: اركبي اركبي.

(٤) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٠ ـ ٢٥١) وحلية الأولياء (٢/ ٥٦) وأخرجه البخاري باب الغيرة في النكاح (٦/ ١٥٦) ومسلم في النبلاء رقم (٢١٨٢).

(٥) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٠ ـ ٢٥١)، مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٤٠).

حتى لحقت أسماء بموكب الهجرة، وهناك وضعت ابنها عبد اللّٰه بن الزبير، وكان أولَ مولود في الإسلام بعد الهجرة.

وقد سجلت لنا ذات النطاقين نموذجاً حياً طيباً في الصبر على شظف الحياة والحرمان الشديد، وكذلك الحرص على طاعة الزوج والتحري في مرضاته. إلى أن أذن اللّٰه سبحانه وتعالى لهذا الصبر بالنتيجة، فكانت العاقبة أن أكرمها اللّٰه جلّ جلاله وزوجها بالنعم والغنى، لكنها لم تبطر بما آتاها اللّٰه من غنى في المال والنفس، بل كانت سخية كريمة لا تدخر شيئاً لغد، فكانت إذا مرضت تنتظر حتى تنشط فتعتق كل مولىً لها، وتقول لبناتها وأهلها: أنفقوا وتصدقوا ولا تنتظروا الفضل[١].

وبقيت أسماء رضي اللّٰه عنها ملتزمة وصية أبيها في الصبر إلى أن كَبِر ابنها عبد اللّٰه بن الزبير، وأصبح شاباً يافعاً يدافع عن دين الحق والإسلام، ويدافع عن أمه الطاهرة من كل شائبة.

وأقامت رضي اللّٰه عنها ذات النطاقين عند ابنها عبد اللّٰه بن الزبير معززةً مكرمةً. تحت أنظار رسول اللّٰه ﷺ. يرعاها ويعطف عليها من علمه ودينه، ولا ينساها من دعواته المباركة، وذلك أنها أصيبت في يوم بورم في عنقها فجعل النبي ﷺ يشير إلى العنق ويقول: (اللّٰهم عافها من فحشه وأذاهُ)[٢]، فشفيت بإذن اللّٰه عزّ وجلّ.

السيدة ذات النطاقين تشهد وفاة رسول اللّٰه ﷺ وأبي بكر الصديق رضي اللّٰه عنه:

وتمر السنون بالمؤمنة أسماء ذات النطاقين لتشهد موت رسول اللّٰه ﷺ وموت أبيها الصديق رضي اللّٰه عنه، وهي لا تزال تعيش مع ولدها صائل الحق وقائل الصدق، المحنك بريق النبوة، صاحب السيف الصارم والرأي الحازم، عبد اللّٰه بن الزبير رضي اللّٰه عنه وهي لا تزال تعلمه من فيض النبوة الذي أخذته عن رسول اللّٰه ﷺ وترعاه برعاية الأم المؤمنة الشجاعة التي لا تخشى في اللّٰه لومة لائم إلى أن كانت الفجيعة الكبرى بموت ولدها.

فعن هشام بن عروة قال: إن يزيد بن معاوية كتب إلى عبد اللّٰه بن الزبير، إني قد بعثت بسلسلة من فضة وقيدين من ذهب، وجامعة من فضة، وحلفت باللّٰه لتأتيني في ذلك، فألقى عبد اللّٰه بن الزبير الكتاب ولم يمتثل لطاعته!! وكان يزيد بن معاوية قد تسلم زمام الحكم بعد أبيه معاوية، فتثاقل عبد اللّٰه عن طاعته وأظهر عداوته له، فبلغ ذلك يوماً يزيد بن معاوية فأقسم لا يؤتى به إلا مغلولاً وإلا أرسل إليه.

---

(١) طبقات ابن سعد(٨/ ٢٥١).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥١).

فقيل لعبد اللَّه بن الزبير: ألا نصنع لك غُلاً من فضة تلبس عليه الثوب وتبر قسمه، فالصلح أجمل بك.

قال: لا أبر واللَّهِ قسمه، ثم قال:

ولا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

ثم قال: واللَّه لضربة بسيف في عز أحبُّ إليَّ من ضربة بسوط ذل!!!

ثم دعا إلى نفسه وأظهر الخلاف ليزيد بن معاوية، فبعث إليه يزيد (حصين ابن نمير الكندي) وقال له: يا ابن برذعة الحمار!! احذر خدائع قريش ولا تعاملهم إلا بالنفاق ثم القطاف، فورد حصين مكة فقاتل بها الزبير وأحرق الكعبة، ثم بلغه موت يزيد بن معاوية فهرب.

ولما مات يزيد بن معاوية دعا مروان بن الحكم إلى نفسه، ثم قال: مات مروان، فدعا عبد الملك إلى نفسه، فعقد الحجاج في جيش إلى مكة، وعندما وصل مكة نصب على جبل أبي قبيس المنجنيق يرمي به ابن الزبير ومن معه في المسجد.

فخرج ابن الزبير يستشير أمه ذات النطاقين بالأمر الذي عقد عليه الحجاج، وهي يومئذ ابنة مِائة سنة، لم يسقط لها سن ولم يفسد لها بصر!!! فقالت: يا عبد اللَّه ما فعلت في حربك؟ قال: بلغوا مكان كذا وكذا وضحك وقال: إن في الموت لراحة. فقالت أسماء رضي اللَّه عنها: يابني لعلك تتمناه لي، ما أحب أن تموت حتى آتي في أحد طرفيك، إما أن تملك فتقر بذلك عيني، وإما أن تقتل فأحتسبَك ثم ودعها، فقالت: يا بني إياك أن تعطي خصلة من دينك مخافة القتل.

وخرج عنها، فدخل المسجد فقيل له: ألا تكلمهم في الصلح؟ فقال: أو حين الصلح هذا واللَّه لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم! ثم أنشأ يقول:

ولست بمبتاع الحياة بذلة ولا مرتق من خشية الموت سلَّما

وبقي عبد اللَّه بن الزبير يقاتل في المسجد حتى قتل.

يقول ابن إسحاق: أنا حاضر قتل الزبير يوم قتل في المسجد الحرام، جعلت الجيوش تدخل من أبواب المسجد، فكلما دخل قوم من باب، حمل عليهم وحده حتى يخرجهم، فبينما هو على تلك الحالة إذ جاءت شرفة من شرفات المسجد، فوقعت على رأسه فصرعته وهو يمتثل بهذه الأبيات يقول:

أسماء إن قتلت لا تبكي

لم يبقَ إلا حسبي وديني

وصارم لانت به يميني

أمٌّ عظيمة والعظماء قليل!!

وقتل عبد اللّٰه بن الزبير رضي اللّٰه عنه وهو يتمثل أمام عينيه قول أمه ذات النطاقين عندما جاء يقول لها: يا أمه إنني أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني!!

فأجابته أمه رضي اللّٰه عنها: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ بعد الذبح فامض على بصيرتك واستعن باللّٰه.

ودخل الحجاج بن يوسف عليها بعد أن قتل ولدها، وصلبه على باب المدينة، فقالت له أسماء رضي اللّٰه عنها: لست لك بأم، لكني أم المصلوب على رأس الثنية، ومالي من حاجة ولكن أنتظر حتى أحدثك ما سمعت من رسول اللّٰه ﷺ، إني سمعته يقول: (يخرج من ثقيف كذاب ومُبير)!! فأما الكذاب فقد رأيناه ـ تعني المختار ـ وأما المبير، فأنت. فقال لها الحجاج: مبير المنافقين.

وقد روى يعلى التيمي، قال: دخلت مكة بعد أن قتل الزبير، فرأيته مصلوباً، ورأيت أمه أسماء عجوزاً طوالة مكفوفة، فدخلت حتى وقفت على الحجاج. فقالت: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ وفي رواية: أما آن لهذا الفارس أن يترجل. فقال الحجاج: المنافق؟ قالت: واللّٰه ما كان منافقاً!! وقد كان صواماً قواماً. فقال الحجاج: إذهبي!! فإنك عجوز قد خرفت!!! فقالت له أسماء: لا واللّٰه ما خرِفت.

ودخل ابن عمر المسجد، بعد أن صلب ابن الزبير، فقيل له: إن أسماء ابنة أبي بكر في ناحية المسجد فذهب إليها وقال: إن هذه الجثث ليست بشيء، أما الأرواح عند اللّٰه فاتقي اللّٰه وعليك بالصبر. فقالت له: وما يمنعني وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل!!!!

وقال ابن أبي مليكة: دخلت على أسماء بعدما أصيب ابن الزبير، فقالت: بلغني أن الرجل صلب عبد اللّٰه ولدي، اللّٰهم لا تمتني حتى أتولى أمره فأحنطه وأكفنه.

وعندما أمر الحجاج مسرف القتل، وقاتل التابعين، وعلى رأسهم سعيد بن جبير ـ رضي اللّٰه عنهم أجمعين ـ بإنزال عبد اللّٰه بن الزبير وتسليمه لأمه أخذت أمه جثمانه، وراحت تحنطه بيدها وتكفنه بعدما ذهب بصرها!! وكذلك صلّت عليه وقد شيعته إلى مثواه ما قبل الأخير.

وتحين ساعة اللقاء بالحبيب جلّ جلاله:

ولم يمض على الطاهرة أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين بضعة أيام بعد دفن ولدها حتى سلمت روحها للباري عزّ وجلّ بعد أن أوصت تقول: إذا أنا مت

فاغسلوني وكفنوني وحنطوني ولا تذروا على كفني حَنوطاً، ولا تدفنوني ليلاً، ولا تتبعوني بنار.

فرحم اللّه الصحابية الجليلة أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ورضي اللّه تعالى عنهما وأسكنهما فسيح جنانه، وجعلنا ووالديها على يمين أبي الزهراء سيدنا محمد ﷺ يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى اللّه بقلب سليم. آمين.

السَّيّدةُ
أَسْماءُ بنتُ عُميسٍ
رضيَ اللَّهُ عنْها
صَاحبَةُ الهِجْرَتينِ

الحاصلة على وسام الإيمان من رسول اللَّه ﷺ حين قال: (الأخوات الأربع مؤمنات: ميمونة، وأم الفضل، وسلمى، وأسماء).

ودخل رسول اللَّه ﷺ على أسماء فقال لها: (يا أسماء! أين بنو جعفر)؟ وجاءت بهم إليه، فضمَّهم وشمَّهم؟ ثم ذرفت عيناهُ بالدموع وهو يبكي بكاءً شديداً. . فقد قتل جعفر ذو الجناحين.

أسماء بنت عميس، العالمة العاقلة، الصابرة المتعبدة، صاحبة البصيرة في تأويل الرؤيا.

أسماء بنت عميس بن معد بن الحارث بن تميم بن كعب بن مالك الخثعمية، إحدى الأخوات الأربع المؤمنات اللائي حصلن على وسام الإيمان من رسول اللَّه ﷺ. وتكنى بأم عبد اللَّه.

زوج جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين وابن عم رسول اللَّه ﷺ.

تزوجت شيخ الإسلام أبابكر ثم علي بن أبي طالب بعد جعفر رضي اللَّه عنهم جميعاً:

تزوجت من أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه شيخ الإسلام. وكذلك تزوجت من ربيب رسول اللَّه ﷺ علي بن أبي طالب كرم اللَّه وجهه بعد وفاة فاطمة الزهراء.

صاحبة الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة بصحبة زوجها جعفر بن أبي طالب رضي اللَّه عنه.

أسلمت السيدة أسماء رضي اللَّه عنها مع من أسلم في بداية الدعوة إلى دين الحق والإيمان، وقبل أن يدخل رسول اللَّه ﷺ دار الأرقم بمكة.

كانت رضي اللّه عنها مع من أسلم في بداية الدعوة إلى دين الحق والإسلام، والذي كان يلقبه رسول اللّه ﷺ بـ: (ذو الجناحين).

وقد هاجرت أسماء بصحبة زوجها جعفر بن أبي طالب مع من هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، التي كانت بعد المقاطعة التي أجمعت عليها قريش لكل من دخل في دين الإسلام، أو آزر مسلماً، فكان من جملة الذين قصدوا في هذه المقاطعة الجائرة آلُ أبي طالب، وآل هاشم.

السيدة أسماء معينة لزوجها في إبلاغ الدعوة في الحبشة:

وخرج جعفر رضي اللّه عنه بزوجه أسماء إلى أرض الحبشة، فأقامت معه في منزل متواضع تتحمل معه مرارة الغربة القاسية ولوعتها، وتساهم مع زوجها الكريم خطيبِ المسلمين أمام ملك الحبشة أعباء الدعوة الإسلامية ونشر دين الحق والإسلام.

وفي أرض الغربة ولدت لزوجها جعفر أبناءه الثلاثة: (عبد اللّه، ومحمداً، وعوفاً) وكان ولدها عبد اللّه شبيهاً بأبيه جعفر، وأبوه شبيهاً لرسول اللّه ﷺ، فكان ذلك يسعدها، ويحرك مشاعر الشوق عندها لرؤية النبي الكريم ﷺ، فقد كان ﷺ يقول لجعفر: (أشبهت خَلْقي وخُلُقي)[١].

وعندما طلب ملك الحبشة (النجاشي) مقابلة المسلمين المهاجرين إلى بلاده، ليطلع على حقيقة أمرهم، بعد أن وفد إليه بعض من آل قريش يطلبون إليه ردّ المسلمين الفارين إليه، بقولهم:

قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم.

فيتقدم جعفر بن أبي طالب رضي اللّه عنه ليكلم الملك النجاشي فيقول: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، ونعبد الأصنام، حتى بعث اللّه جلّ جلاله إلينا رسولاً منا، فدعانا إلى اللّه لنوحده ونعبده ونخلع الأوثان، وأمرنا أن نعبد اللّه وحده، ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والصيام والزكاة.

وراح جعفر بن أبي طالب يسمعه شيئاً من آيات اللّه عزّ وجلّ من سورة مريم، فلما سمع النجاشي آيات اللّه سبحانه وتعالى بكى حتى اخضلت لحيته، بكت معه أساقفته حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب جعفر بن أبي طالب (٤/ ٢٠٩).

به عيسى ليخرج من مشكاة واحدةٍ، انطلقا، فلا واللَّه لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون[١].

وكان لجعفر بن أبي طالب رضي اللَّه عنه الفضل في هداية ملك الحبشة النجاشي إلى دين الإسلام، وبدأ الملك النجاشي يدعو ويبايع إلى الإسلام فكان له الفضل في مبايعة عمرو بن العاص ودخوله دين الإسلام والحق، وقد كان رئيس وفد قريش له ليرد له المسلمين المهاجرين.

وقد كانت الصحابية أسماء ومن معها من المهاجرات، داعياتٍ إلى اللَّه جلّ جلاله، قولاً وعملاً، وسلوكاً، وتلك هي نتائج هجرة الحبشة وآثارها ومعطياتها وبركاتها.

عودتها من أرض الحبشة مسرورة سعيدة:

وتعود أسماء بصحبة زوجها وأبنائها وقد زادتها هجرتها إلى أرض الحبشة إيماناً فوق أيمانها وطاعة لرب العباد عزّ وجلّ، وتكون هذه بشرى من رسول اللَّه ﷺ أن اسماها: (هجرةً بعد هجرةٍ)، وذلك عندما ذهبت أسماء إلى رسول اللَّه ﷺ تشكو إليه مقالة عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه لها، عندما قال: يا حبشية سبقناكم بالهجرة.

فقالت له أسماء بنت عميس: أي لعمري لقد صدقت، كنتم مع رسول اللَّه ﷺ يطعم جائعكم، ويعلم جاهلكم، وكُنّا البعداءَ الطرداء، أمَا واللَّه لآتين رسول اللَّه ﷺ فلأذكرن ذلك له.

فلما ذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ. قال لها ﷺ: (للناس هجرة واحدة، ولكم هجرتان، هاجرتم إلى النجاشي وهاجرتم إليّ)[٢].

وفي رواية: إن رسول اللَّه ﷺ قال لها: (ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان)[٣].

وغمرت السعادة قلب أسماء بشهادة النبي الأكرم عليه صلوات اللَّه وسلامه،

---

(١) السيرة النبوية الهشامية (١/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧). وكان وفد قريش إلى النجاشي عبد اللَّه بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٨١) وأسد الغابة لابن الأثير (٥/ ٣٩٦) والإصابة لابن حجر (١٢/ ١١٧).

(٣) رواه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر (٥/ ٨٠)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل جعفر بن أبي طالب، وأسماء بنت عميس رقم (٢٥٠٣) وكلاهما من حديث أبي موسى رضي اللَّه عنه.

وشاع الخبر بحديث رسول الله ﷺ بين الناس، وبدأ مَن كان بصحبتها في الهجرة يفد عليها ليستوضح منها قول النبي ﷺ بهذا الشأن، فتقول أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتون أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال عنهم النبي ﷺ، ورأيت أبا موسى وإنه ليستعيد مني هذا الحديث: (ولكم الهجرة هجرتان هاجرتم إلى النجاشي وهاجرتم إليّ)[١].

وبعد عودة المهاجرين إلى أرض المدينة المنورة، يسعى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لملازمة ومصاحبة رسول الله ﷺ، ويشهد معه الغزوات ضد الوثنية، إلى أن يكتب الله له الشهادة في مؤتة أرض الشام مقبلاً غير مدبر، مجاهداً للروم في حياة سيد الأنام رسول الله ﷺ سنة ثمان للهجرة في جُمادى الأولى.

ويذكر لنا ذلك ابن عمر قال: كنت معهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفراً، فوجدنا فيما أقبل من جسمه بضعاً وتسعين بين طعنة ورمية.

الزوج الوفية تروي لنا قصة وفاة زوجها:

وتروي لنا الطاهرة أسماء بنت عميس عن وفاته، فتقول: أصبحت في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه رضي الله عنه، فأتاني رسول الله ﷺ، ولقد هنأت، أي: (دبغت أربعين إهاباً من أَدَم)، وعجنت عجيني، وأخذت بني فغسلت وجوههم ودهنتهم، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: (يا أسماء: أين بنو جعفر)؟ فجئت بهم إليه، فضمَّهم وشمَّهُم، ثم ذرفت عيناه فبكى، فقلت: أي رسول الله! لعله بلغك عن جعفر شيءٌ؟ فقال ﷺ: (نعم، قُتِلَ جعفر اليوم)!!! فقامت أسماء تصيح، فاجتمع إليها النساء يهدّئنَ من رَوْعها وجزعها على خبر نعي زوجها، فجعل رسول الله ﷺ يقول: (يا أسماءُ لا تقولي هُجراً ولا تضربي صدراً)[٢].

ثم خرج رسول الله ﷺ حتى دخل على فاطمة ابنته، وهي تقول: واعَمّاهُ! فقال رسول الله ﷺ: (على مِثْلِ جعفرٍ فلتبكِ الباكيةُ)، ثم قال ﷺ: (اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم)[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال[٤]: (بينما رسول الله ﷺ جالس،

---

(١) المصدر السابق وراجع حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٢/ ٧٤ ـ ٧٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٨٢). والسيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي في الجنائز (٩٩٨)، وأبو داود باب صنعة الطعام (٣١٣٢) وقال ابن عبسي: هذا حديث حسن وصحيح.

(٤) الإصابة لابن حجر (٢/ ٨٧).

وأسماء بنت عميس قريبة منه، إذ قال لها: (يا أسماء! هذا جعفر بن أبي طالب قد مَرّ مع جبريلَ وميكالَ). فردّ عليه السلام، ثم قال ﷺ: (فعوضَهُ اللَّهُ من يديه جناحينِ يطير بهما حيث شاء).

فرحم اللَّه جعفر بن أبي طالب، ورضي عن زوجه أسماء، وأرضاهما برحمته تعالى.

وتتفرغ الأم الصالحة الصابرة على تربية أطفالها!!

وتنكبُّ الأم الصالحة أسماء الصابرة بعد مقتل زوجها على تربية أطفالها الثلاثة، وتنشئتهم على الاقتداء بسيرة رسول اللَّه ﷺ، وحياة أبيهم الشهيد الطيار، وتعليمهم مبادىءَ الإيمان.

وما إن مضت أيام عِدتها حتى يتقدم إليها أبو بكر الصديق رضي اللَّه عنه شيخ الإسلام، خاطباً لأسماء بنت عميس، وكان ذلك بعد وفاة زوجه أم رومان رضي اللَّه عنها في حنين.

ولم يكن لأسماءَ أن ترفض مثل الصديق رضي اللَّه عنه، فتقبل زواجه وتنتقل معه إلى بيته لتستلهم منه المزيد من نور الحق والإيمان، ولتضفيَ على بيته الحب والوفاء.

وبعد فترة من هذا الزواج المبارك منَّ اللَّه عزّ وجلّ عليهما، بأن رزقهما ولداً مباركاً: (محمد بن أبي بكر) وهي بذي الحُليفة، وكانوا يريدون حِجة الوداع، فأمرها أبوبكر أن تغتسل ثم تهلَّ في الحج وذلك بعد أن سأل رسول اللَّه ﷺ عن ذلك فرخص به(١).

وتأتيها المصائب تترى، لكنها صامدة صابرة!!

وتشهد بعد ذلك الصحابية الجليلة أسماء بنت عُميس الأحداث الكبيرة، وقد كان من أشدها وفاةُ سيد ولد آدم عليه السلام وانقطاع الوحي من السماء، واستلام زوجها أبي بكر رضي اللَّه عنه منصب خليفة المسلمين، وهو يواجه أعضل المشكلات يومئذ كقتال المرتدين ومانعي الزكاة، وبعثِ جيش أسامة، وكيف وقف صامداً قوياً لا يتزحزح ولا يتزعزع إيمانه عن قول الحق، وهي تسهر معه جنباً إلى جنبٍ على راحته، وتعيش معه بكل جوارحها ومشاعرها حاملة معه عبءَ الأمة الكبير.

---

(١) إسناده صحيح. . وذكره ابن سعد في طبقاته (٨/ ٢٨٢).

ولكن ذلك لم يدم طويلاً فقد مرض الخليفة الصديق، واشتد عليه المرض، وأخذ العرق يتصبب من جبينه، فأحس بشعور المؤمن الصادق بدنو أجله، وكانت وصيته أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس رضي اللّه عنها، كما عزم عليها أن تفطر إن كانت صائمة يوم وفاته قائلاً لها: (هو أقوى لكِ)(١).

وعندما شعرت الصحابية الجليلة بدنو أجل زوجها الصديق، أخذته على صدرها بحنان الزوجة المؤمنة، وأصبحت تُسمعه شيئاً من القرآن الكريم، وهي لا تميل بنظرها عن وجهه الذي بدا كالنور يشع من خلال ثناياه، وقد علاه الذبول عندما أسلم الروح الطاهرة إلى بارئها عزّ وجلّ، فدمعت العين، وخشع القلب ولكنها لم تقل إلا ما يرضي اللّه تبارك وتعالى، فصبرت على قضائه واحتسبت للّه جلّ جلاله.

وبعدها قامت بتنفيذ وصية المرحوم الصدّيق رضي اللّه عنه أمير المؤمنين وخليفة رسول اللّه ﷺ، حيث كانت محلَ ثقته، فبدأت بتغسيله وقد أضناها الهم والحزن، فنسيت وصيته الثانية إذ أنها كانت يوم تغسيله صائمةً، فراحت تسأل من حضر من المهاجرين والصحابة قائلة: إني صائمة، وهذا يوم شديد البرد، فهل عليّ من غسل؟ فقالوا لها: لا، ليس عليك من غسل(٢).

وبعد أن توارى الجثمان الطاهر رضي اللّه عنه بجوار رسول اللّه ﷺ، راحت في أخذ ورد، فما هي إلا فترة قصيرة وتغيب الشمس ويفطر الصائم، فهل تنفذ وصية زوجها الصديق رضي اللّه عنه وتفطر أم تبقى صائمة؟؟ خيار صعب وُضعت أمامه!!

إن الوفاء للزوج أبى عليها أن ترد عزيمة زوجها الراحل رضي اللّه عنه، فدعت بماء وشربت، وقالت: واللّه لا أتبعه اليوم حنثاً(٣).

وعادت من جديد الصحابية الجليلة إلى بيتها لترعى فيه أبناءها من زوجها الأول جعفر بن أبي طالب رضي اللّه عنه، وكذلك ولدها من أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه، وتحدب عليهم دائمة، سائلة اللّه جلّ جلاله أن يصلحهم، ويصلح بينهم، ويجعلهم للمتقين إماماً، وهذه غاية ما كانت ترجوه من دنياها غير عالمة بما يفاجئها القدر المكنون في علم اللّه سبحانه وتعالى.

---

(١) راجع خبر أن أسماء غسلت زوجها أبا بكر الصديق رضي اللّه عنه في طبقات ابن سعد (٨/ ٢٨٢)، وأخرجه الإمام مالك في الموطأ (١/ ٢٢) أما خبر عزمه عليها بالإفطار ففي الطبقات (٨/ ٢٨٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٨٤)، وكذلك أخرجه الإمام مالك في الموطأ (١/ ٢٢٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٤٨ ـ ٢٨٥).

الإمام عليّ رضي اللّه عنه يتقدم لخِطبة السيدة أسماء:

وها هو علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ربيب رسول اللّه ﷺ وصهره لابنته الراحلة فاطمة الزهراء، وشقيق جعفر الطيار ذي الجناحين، ينتظر مدة انقضاء عِدتها ليتقدم للزواج منها وفاءً لأخيه الحبيب جعفر ولصديقه الصدّيق رضي اللّه عنهم جميعاً!!!

وبعد أن تمَّ الزواج الميمون من علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه تنتقل معه إلى بيته بصحبة أبنائها، فكانت له خير زوجة صالحة، وكان لها رضي اللّه عنه خيرَ زوج في حسن المعاشرة.

وراحت تسمو وترتفع رضي اللّه عنها في عين علي كرم اللّه وجهه حتى أصبح يردد في كل مكان:

كذبتكم من النساء الحارقة، فما ثبتت منهن امرأة إلا أسماء بنت عميس[١].

ويكرمها اللّه بكرمه، إذ يرزقها من عليّ بن أبي طالب كرم اللّه وجهه الذرية الصالحة، فأنجبت له (يحيى وعوناً)[٢].

واختار المسلمون علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه خليفة بعد عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، لتصبح أسماء بنت عميس للمرة الثانية زوجاً لأمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشدين رضي اللّه عنهم جميعاً.

ويروي ابن سعد في طبقاته: أن علياً رضي اللّه عنه شاهد موقفاً غريباً، إذ إن ولداً لأخيه جعفر يتشاجر مع محمد بن أبي بكر، وكل منهما يتفاخر على الآخر ويقول: (أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك).

فلم يدرِ الزوج الحاكم ماذا يقول لهما، وكيف يصلح بينهما بحيث يرضي عواطفهما معاً، فما كان منه إلا أن استدعى أمهما أسماء رضي اللّه عنها وقال لها: اقضي بينهما!! وبفكر حاضر وحكمة بالغة من الأم الحنون قالت: ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر، ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر!!!

وانتهت المشاجرة بين الصغيرين ليعودا إلى العناق واللعب معاً، ولكن زوجها علياً رضي اللّه عنه، المعجب بحسن القضاء بين الأولاد نظر في وجه زوجه العاقلة قائلاً: ما تركت لنا شيئاً يا أسماء!!

وبذكاء حاد وشجاعة نادرة وأدب جم، قالت: إنّ ثلاثة أنت أخسهم خيار،

---

(١) انظر الإصابة لابن حجر (٨/ ٩) وطبقات ابن سعد (٨/ ٢٨٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٨٥).

ولم يستغرب عليٌّ كرم اللّٰه وجهه مقالة زوجه العاقلة الراشدة، فقال لها: لو قلت غير ذلك لمقتكِ(١)!!!

وكانت أسماء على مستوى المسؤولية زوجة لخليفة المسلمين أمام الأحداث الجسام التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية، فدفعت بولديها عبد اللّٰه بن جعفر، ومحمد بن أبي بكر رضي اللّٰه عنهما إلى جانب زوجها علي رضي اللّٰه عنه لنصرة الحق.

وما لبثت طويلاً حتى فجعت بولدها محمد بن أبي بكر رضي اللّٰه عنه، وكان أثر هذا المصاب عليها عظيماً، ولكن أسماء الأم المؤمنة بقضاء اللّٰه وقدره جلّ جلاله لا يمكن لها أن تخالف تعاليم دينها لتصرخ وتندب فما كان منها إلا أن تجلدت بالصبر واستعانت بالصلاة على ما ألمَّ بها، وراحت تكتم غيظها حتى شَخَب ثدياها دماً(٢).

الفاجعة الكبرى في حياتها:

ولم يمضِ وقت طويل لها كزوج للخليفة علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه حتى أصيبت بالفاجعة الكبيرة في حياتها وهي مقتل زوجها الخليفة علي غدراً، فلم يعد لديها إلا الصبر على احتمال المصائب والفواجع فآثرت على نفسها وكتمت أحزانها، وطوت آلامها لنفسها لتتفرغ ثانية لتربية أبنائها الصغار والكبار ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً حتى وقعت صريعة المرض، تتلوى من شدة آلامها على فراق أزواجها الصحابة الطاهرين وولدها الجليل محمد بن أبي بكر رضي اللّٰه عنهم جميعاً.

إلى أن أسلمت روحها الطاهرة لبارئها عزّ وجلّ، راضية بما آتاها اللّٰه سبحانه وتعالى من آلام وامتحان، فرضي اللّٰه تعالى عن الطاهرة المؤمنة المتعبدة، الأم الرؤوم الحنون، أسماء بنت عميس صاحبة الهجرتين..

وحشرها ربي تعالى مع الكرام البررة، الذين هم أهل اللّٰه وخاصته، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٨٥) والإصابة لابن حجر (٨/ ٩).
(٢) نفس المصدر السابق.

الصَّحابيّةُ أمُّ عمَارة
رضيَ اللَّهُ عنْها
الفِدائيّةُ المُجَاهِدةُ

يقول سيد الأنام محمد ﷺ في يوم أحد عنها: (ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني)!!!

أم عمارة: الصحابية الجليلة، الفدائية المجاهدة الصابرة، المحتسبة المبايعة في العقبة الثانية، من دعا لها رسول اللَّه ﷺ ولأبنائها، فقال: (اللّهم اجعلهم رفقائي في الجنة).

أم عمارة: نَسيبة بنت كعب بن عمر بن عوف بن مبذول الخزرجية النجارية الأنصارية المازنية المدنية.

أمُّ المجاهدَيْن الفاضلَيْن عبد اللَّه، وحبيب، ابنا زيد بن عاصم بن عمر رضي اللَّه عنه[١].

أمُّ عمارة من أوائل النساء اللواتي سارعن إلى الإسلام:

وهي من أوائل نساء المدينة اللواتي سارعن إلى دين الإسلام ونصرة رسول اللَّه ﷺ، فقد كانت إحدى اثنتين ممن كنّ مع الأنصار إلى مكة حيث كانت المبايعة للنبي ﷺ[٢].

كانت متزوجة في الجاهلية من (زيد بن عاصم بن عمر) وأنجبت منه ذرية طيبة صالحة هما: (عبد اللَّه وحبيب ابنا زيد بن عاصم) وبعد أن رحل عنها، تزوجها المجاهد المؤمن باللَّه ورسوله ﷺ: (غزية بن عمرو)[٣].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٦٦).

(٢) السيرة النبوية الهشامية (٢/ ٤٦٦) الاستيعاب (٥/ ٥٥٠) والإصابة (١٣/ ١٥١ ـ ٥٥٠) وكذلك في طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٢). وقد شهد (غزية بن عمر) مع زوجه أم عمارة بيعة العقبة الثانية، راجع كذلك الإصابة لابن حجر (٨/ ٥٥ ـ ٥٦).

فأسلمت، وتخلقت بأخلاق المسلمين، وملأ الإيمان قلبها، فنذرت نفسها وكذلك زوجها لهذا الدين القيّم، فكانت من أول النهار تحمل قربة الماء لتسقي منها الجرحى في أحد فلم تستطع أن ترى جيوش المسلمين تنهزم، وذلك عندما خالفت تعاليم قائدها النبي ﷺ، فنزلت ساحة القتال، وقاتلت الكفار وأبلت بذلك البلاء الحسن، وجُرحت اثني عشر جرحاً، بين طعنة برمح أو ضربة بسيف، فكانت أم سعيد بنت سعد بن ربيع، تقول[١]: دخلت على أم عمارة، فقلت لها: حدثيني خبرك يوم أُحد، فقالت أم عمارة رضي اللّه عنها: خرجت أول النهار إلى أحد وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاءٌ فيه ماء، فانتهيت إلى رسول اللّه ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح إلى المسلمين (أي: النصر والغلبة للمسلمين) فلما انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول اللّه ﷺ، فجعلت أباشر القتال، وأذبُّ عن رسول اللّه ﷺ بالسيف، وأرمي بالقوس، حتى خَلَصت إليّ الجراحُ!! فقالت أم سعيد: فرأيت على عاتقها جرحاً له غور أجوف، فقلت: يا أم عمارة: من أصابك هذا؟ قالت أم عمارة رضي اللّه عنها: أقبل ابن قميئة، وقد ولى الناس عن رسول اللّه ﷺ يصيح: دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا، فاعترض له مصعب بن عمير رضي اللّه عنه، وناس معه، فكنت فيهم، فضربني هذه الضربة!! ولقد ضربته على ذلك ضَرَباتٍ!! ولكن عدو اللّه كان له درعان.

إمرأة بطلة تدافع بنفسها عن القائد الأعظم محمد ﷺ!!

وحدثنا ضُمرة بن سعيد المازني عن جدته، قال: وكانت قد شهدت أحداً تسقي الماء، قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (لمقام نَسيبة بنتِ كعب اليوم خيرٌ من مقام فلانٍ وفلان).

وقد كانت رضي اللّه عنها تقاتل أشد القتال النابع من الإيمان والحق، وتدافع عن رسول اللّه ﷺ، وهي حاجزة ثوبها على وسطها، حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحاً، وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها، وكان أعظمَ جرح فَداوتهُ سنة.

وتدخل المعركة ثانية!!!

وينادي منادي رسول اللّه ﷺ ثانية إلى حمراء الأسد[٢]، فلم تستطع الصبر

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٢ ـ ٤١٣). والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧).

(٢) حمراء الأسد: وهي الغزوة التي أعقبت أحداً، والتي طارد فيها رسول اللّه ﷺ المشركين لئلا يكروا على المسلمين ثانيةً..

ولا الراحة، فشدت عليها ثيابها ثانية، فلم تستطع من نزف الدم المتساقط من جسدها من أثر جراحها، وقد مكثت الليلة كلها تضمد الجراح حتى أصبح الصباح[١].

وكان سرور رسول اللَّه ﷺ عظيماً بسلامتها، وذلك عندما أرسل عبد اللَّه بن كعب المازني، ليطمئن عليها، ويسأل عنها[٢].

وكذلك تروي لنا أم عُمارة ما أصابها يوم أحد، تقول[٣]: قد رأيتني وانكشف الناس عن رسول اللَّه ﷺ فما بقي إلا في نفير ما يتمون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه نَذُبُّ عنه ﷺ والناس يمرون به منهزمين، ورآني رسول اللَّه لا ترس معي، فرأى رجلاً مولياً معه ترس، فقال لصاحب الترس: (ألقِ تُرسَكَ إلى من يُقاتل). فألقى ترسه، فأخذته، فجعلت أتترس به عن رسول اللَّه ﷺ، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل[٤]، لو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم إن شاء اللَّه فيقبل رجلٌ على فرس، فوقع على ظهره، فجعل النبي ﷺ يصيح: (يا ابن أُم عُمارة! أُمّك، أمّك). فعاونني عليه ولدي حتى أوردتُه شَعُوبَ[٥].

وعن عبد اللَّه بن زيد فيما روى ابن سعد في طبقاته[٦]: جرحت يومئذٍ جرحاً في عضدي اليسرى، ضربني رجل كأنه الرقل ـ النخلة الطويلة ـ ولم يعرج عليَّ، ومضى عني، وجعل الدم لا يرقأ، فقال رسول اللَّه ﷺ: (اعصبْ جُرحَك).

فتقبل أمي إليّ ومعها عصائب في حقويها، قد أعدتها للجراح، فربطت جُرحي، والنبي ﷺ واقف ينظر إليَّ ثم قالت: انهض بني فضارب القوم!!

فجعل النبي ﷺ يقول: (ومَنْ يطيقُ ما تطيقينَ يا أمَّ عُمارة)؟؟! قالت: وأقبل الرجل الذي ضرب ابني، فقال رسول اللَّه ﷺ: (هذا ضارب ابنك)! قالت: فأعترضُ له، فأضرِبُ ساقهُ، فبرك فرأيت رسول اللَّه ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجذه، وقال: (استقدتِ يا أُمَّ عُمارة). ثم أقبلنا نضربه بالسلاح حتى أتينا على نفسه، فقال النبي ﷺ: (الحمد للَّه الذي ظفَّرك وأقر عينكِ من عدوكِ، وأراكِ ثأركِ بعينكِ)[٧].

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٣). (٢) نفس المصدر.

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤).

(٤) الذين خرجوا إلى الرماة المتبقين على الجبل، فقتلوهم، ثم هووا على المسلمين من خلفهم فقد حصل ما نعرفه من أحد.

(٥) شعوب: اسم من أسماء المنية (الموت). (٦) الطبقات لابن سعد (٨/ ٤١٤).

(٧) نفس المصدر السابق.

وروى ابن سعد في طبقاته أيضاً بإسناده عن الحارث بن عبد اللّه قال[١]: سمعت عبد اللّه بن زيد بن عاصم قال: شهدت أحداً مع رسول اللّه ﷺ، فلما تفرق الناس عنه، دنوت منه أنا وأمي نذب عنه، فقال ﷺ: (يا ابن أمّ عمارة)؟ قلت: نعم يا رسول اللّه. قال: (ارْم). (أُمك.. أُمك.. اعصب جرحها، بارك اللّه عليكما من أهل البيت!! مَقام أُمِّكَ خيرٌ من مقام فلان وفلان، رحمكم اللّه أهلَ البيت). فقالت أُمي، أم عمارة: ادْعُ اللّه أن نرافقكَ في الجنة. فقال ﷺ: (اللّهم اجعلهم رُفَقَائي في الجنة). فقالت: ما أُبالي ما أصابني من الدنيا.

وتمضي الأيام، وتظل الفدائية تخدُم الإسلام:

وتمضي الأيام، وتظل الفدائية المؤمنة المجاهدة أم عمارة تخدم الإسلام وتؤدي واجبها في الحرب والسلام، فشهدت مع رسول اللّه ﷺ بَيعة الرضوان في الحديبية، وهي بيعة المعاهدة على الشهادة في سبيل اللّه جلّ جلاله، كما شهدت معه يوم حُنين، وكان لها الدور العظيم في كل ما تستطيع المرأة المؤمنة المسلمة التي تغار على دينها ورسولها ﷺ.

فكانت رضي اللّه عنها محببة إلى رسول اللّه ﷺ وصحبه رضي اللّه عنهم أجمعين، لما رأوا فيها من إيمان صادق واعتمادٍ وجِد واجتهاد وجهاد وصوم ونسك واعتماد على اللّه سبحانه وتعالى، فكان رسول اللّه ﷺ كثيراً ما يزورها ليمضي عندها بعض الوقت، فقد زارها يوماً، فقربت له بعض الطعام كي يأكل، فدعاها رسول اللّه ﷺ لتأكل، فقالت له: إني صائمة يا رسول اللّه، فقال لها ﷺ: (إذا أُكِلَ عندَ الصائمِ الطعامُ صلتْ عليه الملائكةُ)[٢].

ولما انتقل رسول اللّه ﷺ إلى الرفيق الأعلى ارتدت بعض القبائل عن الإسلام، وعلى رأسهم مُسيلمِة الكذاب، وما إن اتخذ الخليفة الصدِّيق رضي اللّه عنه قراره الحاسم بمحاربة أهل الردة حتى سارعت أم عمارة إلى أبي بكر الصدِّيق رضي اللّه عنه تستأذنه في الالتحاق بهذا الجيش، لمحاربة المرتدين عن الإسلام، فيقول لها الصديق رضي اللّه عنه: لقد عرفنا بلاءك في الحرب، فاخرجي على اسم اللّه، فخرجت تحارب ومعها ابنها حبيب بن زيد بن عاصم، وأبلت أم عمارة في

(١) نفس المصدر السابق (٨/ ٤١٤ ـ ٤١٥).

(٢) رواه الترمذي وأحمد والبيهقي بلفظ: (إن الصائم إذا أُكل عنده لم تزل تصلّي عليه الملائكة حتى يُفرغ من طعامه).

هذه المعركة ضد المرتدين عن دين الإسلام البلاء الحسن، وتعرضت للكثير من المخاطر والعذاب وهي ثابتة مقدامة لا يزعزعها شيء، تمني نفسها في كل لحظة بنعمة الاستشهاد في سبيل اللَّه عزّ وجلّ.

ويقع ولدها حبيب أسيراً في يد المجرم المرتد مسيلمة الكذاب من بني حَنيفة، صاحب اليمامة، ويذيقه أشد العذاب من أجل أن يؤمن بنبوته، ولكن!! أنّى لابن أم عمارة الذي نشأ وتربى على الصبر والمصابرة عند اللقاء وعلى الإيمان وحب اللَّه ورسوله الكريم ﷺ، وكذلك حب الموت في سبيل اللَّه جلّ جلاله، أن يخضع لتهديد مرتدٍ آثم عندما يسأله: أتشهد أن محمداً رسول اللَّه؟ فيقول: نعم أشهد. فيقول له مسيلِمة الكذاب: أتشهد أني رسول اللَّه؟. فيقول: لا أشهد، فجعل المرتد الكافر يقطع أعضاء ولد أم عمارة عضواً عضواً وهو يعيد عليه السؤال دون أن يتراجع، حتى مات وقد قُطِع إرْباً إرْباً بين يديه!! لا يزيد على ذلك شيئاً، إذا ذُكر رسول اللَّه ﷺ آمن به وصلى عليه، وإذا ذكر له مسيلِمةُ عدو اللَّه قال: لا أشهد.

وتخرج أمّ عمارة إلى معركة اليمامة طالبة الثأر لولدها:

وتخرج أم عمارة إلى معركة اليمامة بصحبة ولدها الثاني عبد اللَّه، وكذلك المجاهدون كافة في حملة ضد مسيلمة الكذاب وأعوانه المرتدين، طالبة الثأر من قاتل ولدها حبيب ولنصرة الحق والإسلام، وكانت معركة قاسية قد أظهرت فيها أم عمارة الفدائية المجاهدة ما يذهل أعظم الرجال من فنون في القتال والحرب، وقد كانت حريصة أن تقتل عدو اللَّه المرتد مسيلمة بيدها، ولكن يشاء اللَّه عزّ وجلّ أن يقاتل ولدها عبد الرحمن ذاك المرتد ويقتله قصاصاً لأخيه حبيب وليريح منه الإسلام والناس أجمعين[١].

وما إن علمت أم عمارة بمقتل المرتد مسيلِمة حتى سجدت متوجهة للكعبة الشريفة شاكرة اللَّه عزّ وجلّ على قضائه وجهاد ولديها عبد اللَّه وحبيب الشهيد.

وتمر بها السنون، لتكبرَ أم عمارة وتبقى في دارها مركز زيارة الصحابة الكرام رضي اللَّه عنهم وذلك تقديراً لها ولشجاعتها وتقدير رسول اللَّه ﷺ.

ويذكر لنا موسى بن ضمرة بن سعيد عن أبيه قال[٢]: أتى عمر بن الخطاب

---

(١) ولكن المشهور: أن قاتل مسيلمة هو: الصحابي وحشي رضي اللَّه عنه.
(٢) الطبقات لابن سعد (٨/ ٤١٥).

رضي اللّه عنه بمروطٍ[١]، فكان فيها مرطٌ جيد واسع، فقال بعضهم: إن هذا المرط لثمن كذا وكذا، فلو أرسلت به إلى زوجة عبد اللّه بن عمر[٢]، فقال: وذلك حدثان ما دخلت على ابن عمر. قال: ابعث به إلى من هي أحقُّ به منها، أم عمارة نَسيبةَ بنت كعب، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول يوم أُحد: (ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتلُ دوني).

وتحين ساعة الفراق:

وتمضي أم عمارة رضي اللّه تعالى عنها وأرضاها أيامها الأخيرة في منزلها ناسكة متعبدة للّه عزّ وجلّ راضية اللّه ورسوله الكريم ﷺ فيما جاهدت به مع ولديها لإعلاء دين الإسلام ونصرة رسوله الكريم ﷺ.

إلى أن أسلمت روحها الطاهرة الطيبة لبارئها جلّ جلاله، وذلك بعد أن ضربت لنا المثل الأعلى في الجهاد والتضحية في سبيل اللّه وسبيل نصرة رسوله الحبيب ﷺ، فكانت المثال الصادق للمؤمنة الصادقة المحاربة التي أنشأت أبناءً مؤمنين صادقين صالحين، مجاهدين في سبيل اللّه تعالى.

فرحمك اللّه أيتها الصحابية الجليلة المبايعة لرسول اللّه ﷺ ليلة العقبة الثانية، وأعزّ اللّه صبركِ على المحن وجهادك في سبيل اللّه واحتسابك له وحده جلّ جلاله.

---

(١) مروط: جمع مرط، بالكسر: أكسية من صوف أوخز يؤتزرُ بها (اللسان).

(٢) هي صفية بنت أبي عبيد.

السَّيِّدةُ
أمُّ سُليم بنتُ مِلحانَ
الرَّمَيْصاءُ

قال اللَّه جلّ جلاله في كتابه العزيز: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٥٩].

وعن أنس بن مالكٍ عن النبي ﷺ قال: (دخلت الجنة، فسمعتُ خَشْفةً بين يدي، فإذا أنا بالرُّميصاء، أمّ سُلَيم بنتِ مِلحانْ)؟!!

الرُّميصاء: أم سليم بنت مِلحان: الصحابية الجليلة، الزوجة الصالحة الناصحة، الداعية الحكيمة، الخلوقة الكريمة.

هي الرميصاء(١)، وتكنى بأم سليم بنت ملحان بن خالد، بن زيد، بن حرام، ابن النجار الأنصارية الخزرجية رضي اللَّه عنها.

صاحبة الذكاء النادر تُخْطَبُ لابن عمها:

أمَّ سليم، صاحبةُ الأنوثة والجمال، والسداد في الرأي، والذكاء النادر، والخلق الكريم، لقد غَدَوْتِ حديث مكة بصفاتكِ الحميدة، والثناء عليكِ على كلِ لسانٍ.

لتلك الصفات الحميدة التي كانت تتمتع بها أم سُليم، فقد تسارع إليها الخُطاب كي يحظَوا بشرف نسبها، وقد تقدم لها ابن عمها مالك بن النضر وتمت خِطبتها عليه والزواج منه، وقد أنجبت له: (أنس ابن مالك) رضي اللَّه عنه، وكان ذلك في الجاهلية قبل ظهور الإسلام، والدعوة النبوية.

وما إن بزغ نور النبوة المحمدية، في الهداية إلى دين الإسلام، حتى سارعت أم سليم لمبايعة رسول اللَّه ﷺ على دين الحق والتوحيد باللَّه سبحانه وتعالى، فقد كانت من أوائل النسوة المبايعات للدخول في دين الإسلام، وهي غير مبالية بما قد

(١) وردت في بعض المصادر: الرُّميصاء، والرُميضاء، والغُميضاء..

يصيبها من أذى المشركين الكفار، أو ما قد تلقاه من زوجها مالك بن النضر من هجرٍ أو تعذيب!!

وعندما علم زوجها مالك بدخولها دين الإسلام، واتباعها للدعوة النبوية، غضب وثار عليها وهو يهددها ويتوعدها!! فقال لها[١]: (أصبوتِ؟). فقالت له وكلها ثبات ويقين بما آمنت به:

ما صبوت، ولكني آمنتُ!!.

وجعلت تلقن طفلها الصغير: (أنساً) الشهادة باللّه عزّ وجلّ: قل: لا إله إلا اللّه. قل: أشهد أن محمداً رسول اللّه.

فيعترضها زوجها مالك بقوله: لا تفسدي عليَّ ابني!! فتقول له أم سليم: لا أفسده، بل أعلمه وأهذبه.

وعندما لم يجد زوجها مالك بن النضر سبيلاً لردها عن دينها الجديد، أعلمها بقراره أنه سوف يخرج من البيت مهاجراً في سبيل الشيطان دون عودة إلى أرض الشام، ويهجرها وولدها!!!

وقد كان ذلك، فقد خرج من منزله هائماً على وجهه، لا يدري أي طريق يسلك، حتى لقيه أحد أعدائه فقتله!!!

وعندما علمت الزوجة الوفية بمقتل زوجها، حزنت عليه ـ لأنه مات كافراً، وكانت تتمنى إيمانه ـ وقالت: لا جرم، لا أفطم أنساً حتى يدع الثدي، ولا أتزوج حتى يأمرني أنس[٢].

وهكذا عملت أم سليم على تربية ولدها الوحيد على تعاليم الإيمان والإسلام إلى أن أصبح فتى يعتمد عليه، فأخذته وذهبت به إلى الحبيب المصطفى ﷺ في استحياء، وعرضت عليه أن يكون فِلْذة كبدها ووحيدها أنس بن مالك خادماً عنده، ليخدمه وينهل منه تعاليم سنته النبوية الشريفة، فما كان من رسول اللّه ﷺ إلا أن رحب وأقر عينها بما طلبت.

ويتقدم الصحابي أبو طلحة لخِطبتها بعد وفاة زوجها:

ويهفو قلب أبي طلحة بما سمعه عن أم سليم وولدها أنس بن مالك، فيتقدم لخِطبتها والزواج منها، إلا أن المفاجأة الكبرى أذهلته واعتقلت لسانه عندما رفضت المؤمنة الصالحة طلبه بعزة وكبرياء وهي تقول: إنه لا ينبغي أن أتزوج مشركاً، أما

---

(١) عن رواية إسحاق بن عبد اللّه وإسناد ابن سعد في طبقاته (٨/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).
(٢) راجع طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٦).

تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان، وأنكم لو أشعلتم فيها ناراً لاحترقت[١]؟!!!

عروس مهرها الإسلام!!

وعن أم سُليم بنت مِلحان في رواية لابن سعد أنها قالت[٢]: يا أبا طلحة ألست تعلمُ أن إلهكَ الذي تعبد إنما هو شجرة تنبت من الأرض؟! وإنما نجرها حبشي بني فلان، قال: بلى، قالت: أما تستحي، تسجد لخشبة تنبت من الأرض، نجرها حبشي بني فلان؟!! قالت: فهل لكَ أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه، وأزوجك نفسي!! لا أريد منكَ صَداقاً غيره!! قال لها: دعيني حتى أنظر.

قالت: فذهب فنظر، ثم جاء، فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه. وتم الزواج على هذا المهر المبارك.

أم سليم: الداعية المؤمنة الوفية، حيث الجاه والمال والشباب الذي تراقص أمام عينيها، فترفضه بكل عز وفخر وهي تشعر بأن الإسلام في قلبها هو أقوى من كل نعيم هذه الدنيا الفانية، استطاعت أن تأخذ مهرها من أبي طلحة بكل أدب واحترام حيث قالت له: ما مثلك يردُ يا أبا طلحة، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا تصلح لي أن أتزوجك، فقال لها: ما ذاك دهركِ؟ قالت له بكل ثقة: وما دهري؟ فقال لها يحاول أن يغريها بنعيم الدنيا: الصفراء والبيضاء!! فقالت له: فإني لا أريد الصفراء ولا البيضاء، أريد منك الإسلام!!! فقال لها أبو طلحة: فمن لي بذلك؟ فقالت له أم سليم فرحة مستبشرة: لكَ بذلك رسول اللَّه ﷺ. وانطلق أبو طلحة إلى رسول اللَّه ﷺ وكان جالساً بين أصحابه، فلما رآه رسول اللَّه ﷺ، قال: (جاءكم أبو طلحة وغرة الإسلام في عينيه) فجاء فأخبر النبي ﷺ بما طلبته أم سليم بنت ملحان، وأعلن إسلامه على الملأ وتزوجها على سنة اللَّه ورسوله ﷺ بصداق لا يعادله مال وهو الإسلام[٣].

---

(١) في طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٦) ونحوه في الإصابة لابن حجر (٨/ ٢٤٣)، وكذا في الحلية لأبي نعيم (٢/ ٥٩).

(٢) في طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٧). ونحوه في روايات متشابهة عن أنس بن مالك.. نفس المصدر السابق.

(٣) انظر النسائي (٦/ ١١٤) وسنده صحيح، ونحوه بطرق متعددة في الإصابة (٨/ ٢٤٣)، والحلية (٢/ ٥٩ - ٦٠).

وبذلك روي عن أنس بن مالك قال: ما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهراً من أم سليم، كان مهرَها الإسلامُ[١]!!

وهكذا عاشت أم سليم الصحابية المؤمنة الجليلة مع أبي طلحة الحياة الزوجية الهنيئة التي تقوم على أسمى المعاني الإسلامية، وكذلك كانت مثالاً للزوجة الصالحة التي تقوم على حقوق الزوج المؤمن كأحسن قيام، ومثالاً للأم الرؤوم الصالحة والمربية الفاضلة الداعية لأبنائها.

حبّ أبي طلحة للّه ورسوله ﷺ:

ويقول أنس بن مالك رضي اللّه عنه وهو يروي لنا حبَّ أبي طلحة للإسلام ورسوله الكريم ﷺ، قائلاً: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحبَّ أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول اللّه ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٣].

قام أبو طلحة رضي اللّه عنه إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: يا رسول اللّه، إن اللّه عزّ وجلّ يقول في كتابه العزيز: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٣] وإن أحب أموالي إليَّ (بيرحاء) وإنها صدقة للّه أرجو برها وذخرها عند اللّه، فضعها يا رسول اللّه حيث شئت. فقال رسول اللّه ﷺ: (بخ بخ.. ذلك مال رابح، وذلك مال رابح، قد سمعتُ ما قلتَ فيها وإني أرى أنْ تجعلها في الأقربين). فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[٢].

ويرزق اللّه عزّ وجلّ هذين الزوجين ولداً ذكراً جميلاً قد سمياه: عمر، وسمّاه النبي ﷺ: (أبا عمير)، ليصبح قرة عين لهما ويأنسا به وبحركاته، وقد اتخذوا لهذا الطفل طائراً يلعب به، فمات الطائر فحزن عليه الطفل وبكى من أجله، فمر رسول اللّه ﷺ به فقال له مداعباً ومواسياً: (يا أبا عمير ما فعل النُّغير)[٣]؟!

---

(١) في سنن النسائي (٦/ ١١٤) من طريق جعفر بن سليمان، عن ثابت عن أنس.

(٢) رواه البخاري في الزكاة، باب الزكاة على الأقارب (٢/ ١٢٦)، و مسلم في الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين.

(٣) رواه البخاري في الأدب، (٧/ ١٠٩) ومسلم في الأدب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته برقم (٢١٥٠)، وأبو داود برقم (٤٩٦٩) في الأدب، ما جاء في الرجل يتكنى والنغير: تصغير النُّغر وهو طائر صغير كالعصفور.

عظمة أم سليم في مصابها بولدها وتصبير زوجها:

ويشاء اللَّه جلّ جلاله أن يمتحن أمَّ سُليم وزوجها أبا طلحة بولدهما الجميل المحبوب لهما، فيمرض الطفل المدلل ويُشغلُ أبواه به، وكان من عادة أبيه أنه كلما عاد من عمله أو صلاته ودخل أهله يلقي تحية الإسلام ـ السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته ـ ويسأل عن صحة ولده ولا يطمئن حتى يشاهده.

وخرج أبو طلحة مرة في بعض عمله، فقبض الصبي، وتلقت الأم المؤمنة الصابرة وفاة ولدها بنفس راضية طيبة، فقامت وغسلته وكفنته وحنطته وسَجَّتْ عليه ثوباً في فراشه وهي تذكر اللَّه سبحانه وتعالى قائلة: إنا للَّه وإنا إليه راجعون ـ إنا للَّه وإنا إليه راجعون ـ.

والتفتت إلى مَن حولها وقالت لهم: لا يكون أحدٌ يخبر أبا طلحة حتى أكون أنا التي أخبره!!!!

وعندما عاد زوجها الحبيب من عمله كانت أم سليم قد جففت دموع الحزن والرحمة من عينيها، وتصنعت لاستقبال زوجها!! وجاءت بعَشاء، فقال لها: ما فعل أبو عمير؟ فقالت له والسكون على وجهها: هو أسكن ما يكون!!!!! فظن أن اللَّه عزّ وجلّ قد منَّ على الطفل المدلل بالشفاء!! وفرح لسكون الطفل وراحته وهو نائم، ولم يدن منه كي لا يعكر عليه نومه، ثم قربت إليه زوجه العشاء، فأكل وشرب وحمِد اللَّه جلّ جلاله على ذلك، وكانت أم سليم قد تطيبت له ولبست أجمل ثيابها وتزينت واقتربت منه، فأصاب منها ما يصيب الرجل من أهله!!

هل في الدنيا امرأة مثل أم سليم؟؟!!

وعندما شاهدت أم سليم بأن زوجها قد أكل وشرب وأصاب منها، وقد هدأت نفسه على ولده، حمدت اللَّه أنها لم تفجعه وتعكر عليه طعامه وسروره، وتركته وقتاً يغط في نوم عميق، فلما كان من آخر الليل، قالت أم سليم له: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريَّتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم فهل لهم أن يمنعوها عنهم؟ قال: لا.

قالت: فما تقول إذا شق عليهم أن تطلب هذه العارية منهم بعد أن انتفعوا بها؟ قال: ما أنصفوا، قالت: فإن ابنك كان عارية من اللَّه تعالى فقبضه، فاحتسب ابنك!! ولم يتمالك أبو طلحة أعصابه، فردَّ عليها غاضباً: تركتني حتى إذا تلطخت، أخبرتني بابني؟! واللَّه لأذكرن ذلك إلى رسول اللَّه ﷺ!!

فلما أصبح الصباح، غدا إلى رسول اللَّه ﷺ، وأخبره بما كان بينه وبين

زوجه أم سليم، فقال رسول اللَّه ﷺ: بارك اللَّه لكما في ليلتكما.

فكانت تلك الليلة، حملها بعبد اللَّه بن أبي طلحة، وعندما وضعته ليلاً أرسلت به مع ولدها أنس بن مالك رضي اللَّه عنه إلى رسول اللَّه ﷺ، وقالت له: اذهب بهذا الصبي وهذا المكتل ـ وفيه شيء من تمرٍ ـ إلى رسول اللَّه ﷺ، حتى يكون هو الذي يحنّكُهُ ويسميه.

قال أنس بن مالك رضي اللَّه عنه: فأتيت به النبي ﷺ، فمدَّ النبي ﷺ رجليه وأضجعه، وأخذ تمرةً فلاكها، ثم مجها في الصبي، فجعل الصبي يتلمظها، فقال النبي ﷺ: أبَتِ الأنصارُ إلا حُبَّ التمر. فقال أنس بن مالك: سَمِّهِ يا رسول اللَّه: فقال ﷺ: هو عبد اللَّه[١].

الجزاء من جنس العمل:

فلما شبَّ عبد اللَّه بن أبي طلحة تزوج، وأنجب ذرية صالحة، ورزق أولاداً، قرأ القرآن منهم عشرة كُمّلاً[٢].

أمُّ سُليم داعية كبيرة للَّه تعالى، وبطلة في ميادين الجهاد:

وقد كان لأم سليم بنت ملحان الصحابية الجليلة، الدور الكبير في نشر الدعوة الإسلامية، وكذلك مشاركة المجاهدين المسلمين في جهادهم ضد الأعداء الكفار!!

وقد كان لها يوم حنين الموقف البطولي الذي يشيد بشجاعتها، ودورها البطولي في تذكية نار الحماسة في صدور المجاهدين، ومداواة الجرحى، وسقاية المرضى منهم، بل كانت على استعداد للدفاع عن نفسها ومواجهة من يقترب منها!! وهي لا تزال حاملاً بعبد اللَّه بن أبي طلحة، وقد شوهدت أثناء المعركة وهي تتسلح بخنجر قد حزمته على وسطها!! فقال زوجها أبو طلحة: يا رسول اللَّه! هذه أم سليم اتخذت خنجراً!! فقالت: يا رسول اللَّه! أتخذهُ إن دنا مني أحدٌ من المشركين بقرت به بطنه!! فتبسم رسول اللَّه ﷺ، وقال: (يا أم سليم: إن اللَّه قد كفى وأحسن)[٣].

---

(١) انظر خبر وفاة (أبي عمير) في طرق متعددة في طبقات ابن سعد (٨/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) وفي الإصابة لابن حجر (١٣/ ٢٢٨) وفي حلية الأولياء (٢/ ٥٩).
وكذلك أخرجه البخاري في أول العقيقة برقم (٦/ ٢١٥). ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي طلحة برقم (٢١٤٤)، وكذلك أخرجه الإمام أحمد برقم (٣/ ١٩٦) ورقم (٣/ ٢٨٧).

(٢) من الإصابة لابن حجر (١٣/ ٢٢٨)، وقد أخرجه ابن سعد في الطبقات برقم (٨/ ٤٣٤) ورجاله ثقات بأن أحد رجال السند وهو عباية قال: رأيت لذلك الغلام سبع بنين كلهم قد ختموا القرآن.

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٥) وحلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٦٠).

سيد الكائنات محمد ﷺ يبشرها بالجنة:

وكان لأم سليم رضي اللّه عنها المنزلة العالية عند رسول اللّه ﷺ، إذ أنه لم يكن يدخل بيتاً غير بيت أم سليم[١]، سوى أهله، وقد بشرها ﷺ بالجنة حين قال: (دخلت الجنة فسمعت خَشْفة، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذه الرميصاء بنت ملحان، أم أنس بن مالك)[٢].

وكان رسول اللّه ﷺ، يجلها ويكرمها، وكان يزورها ويصلي في بيتها. وقد روى ابن سعد بإسناده عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال: كان النبي ﷺ يزور أم سليم أحياناً، فتدركه الصلاة فيصلي على بساط لنا وهو حصير ينضحه بالماء[٣].

جواز التبرك بآثار المصطفى ﷺ:

وروى ابن سعد بإسناده عن محمد بن سيرين عن أم سليم أنها قالت[٤]: كان رسول اللّه ﷺ يَقيلُ[٥] في بيتي، فكنت أبسط له نطعاً، فيقيل عليه فيعرق، فكنت آخذ سُكّاً[٦] فأعجنه بعرقه.

وروى كذلك عن البراء بن زيد[٧]: أن النبي ﷺ قَالَ[٨] في بيت أم سليم على نطع، فعرق فاستيقظ رسول اللّه ﷺ وأم سليم تمسح العرق، فقال ﷺ: (يا أم سليم.. ما تصنعين؟). فقالت: آخذ هذا للبركة التي تخرج منك، فلم ينكر عليها فعلها ﷺ. وروى ابن سعد بإسناده عن البراء بن زيد عن أنس بن مالك أنه قال: إن النبي ﷺ دخل على أم سليم بيتها، وفي البيت قربة معلقة، فيها ماء فتناولها ﷺ فشرب مِنْ فِيها وهو قائم، فأخذتها أم سليم فقطعت فمها فأمسكته عندها. وقالت أم سليم رضي اللّه عنها: وكان ﷺ يجيء يَقيل عندي على نطع، وكان معراقاً!! قالت: فجاء ذات يوم، فجعلت أجمع العرق فأجعله في قارورةٍ لَي، فاستيقظ النبي

---

(١) ذكر النووي رحمه اللّه في شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٠) أن أم سليم وأختها أم حرام رضي اللّه عنهما كانتا خالتين لرسول اللّه ﷺ محرمين إما من الرضاع وإما من النسب فتحل له الخلوة بهما، وكان يدخل عليهما، وقال جمهور العلماء: ففيه جواز دخول المحرم على محرمه، وفيه إشارة إلى منع دخول الرجل على الأجنبية وإن كان صالحاً.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، وكذلك أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أم سليم برقم (٤٤٥٦).

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٧).

(٤) الطبقات لابن سعد (٨/ ٤٢٨).

(٥) يقيل: من القيلولة عند الظهيرة من حر الشمس.

(٦) سُكّاً: أي: طيباً.

(٧) الطبقات لابن سعد (٨/ ٤٢٨).

(٨) قَالَ: من القيلولة.

ﷺ، فقال: (ما تجعلين يا أم سليم؟). فقلت: باقي عرقك، أريد أن أدوِّف به طيبي!!

وروى ابن سعد بإسناده عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه: أن النبي ﷺ لما أراد أن يحلق رأسه بمنى أخذ أبو طلحة شِقَّ شعرهِ، فحلق الحجام، فجاء به إلى أم سليم، فكانت أم سليم تجعله في سُكِّها.

وقد حجّت أم سليم رضي اللَّه عنها مع النبي ﷺ، ودفنت مع نسائه، وكان النبي ﷺ يوصي بها في الطريق.

وقد ذكر لنا ابن عباس رضي اللَّه عنه أن أم سليم قالت: يا رسول اللَّه: إن أبا طلحة وابنه حَجَّا على ناضحهما وتركاني!، فقال رسول اللَّه ﷺ: (عمرةٌ في رمضان تجزيك من حجة معي)(١).

حياة إسلامية رائعة لهذه الصحابية الجليلة:

وهكذا عاشت الصحابية الجليلة أم سليم بنت ملحان حياة إسلامية رائعة بالقرب من رسول اللَّه ﷺ وهي تنهل من نبع النبوة الصافي وتأخذ من تعاليم الإيمان الصحيح، كزوجة صالحة ناصحة وداعية حكيمة، ومجاهدة شجاعة، وأم مربية واعية.

فرضي اللَّه تعالى عنك أيتها المبشرة بالجنة من رسول اللَّه ﷺ، ورضي جلّ جلاله عن زوجك أبي طلحة العظيم، وعن ابنك أنس بن مالك الذي دخل في أعظم مدرسة عرفتها الدنيا هي مدرسة النبوة، ولم يبلغ العاشرة من العمر، وقد غدا علماً من أعلام الإسلام على مرِّ العصور وكرِّ الدهور.

فرضي اللَّه عنهم جميعاً وأرضاهم وأسكنهم فسيح جناته، وجعلنا معهم بجوار رب كريم عظيم إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) نفس المصدر السابق.

السَّيدةُ
أمُّ حَرَامٍ بنتُ مِلحان
رضيَ اللَّهُ عنْها
شَهيدةُ البَحْر

قال رسول اللَّه ﷺ: (أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا). فسألته أم حرام: يارسول اللَّه أنا فيهم؟ قال: (أنتِ فيهم). أم حرام بنت ملحان، الصحابية الجليلة، شهيدة البحر، المشتاقة لرؤية جنان الخلد.

أم حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام، بن جندب، بن عامر، الأنصارية البخارية.

شقيقة أم سليم بنت ملحان الصحابية الجليلة، وخالة أنس بن مالك خادم رسول اللَّه ﷺ، وزوجة الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي اللَّه عنه[١].

كانت رضي اللَّه عنها من عِلْية قومها في الحسب والنسب والمال، وعند بزوغ الدعوة النبوية لدين اللَّه عزّ وجلّ سارعت للإسلام ومبايعة رسول اللَّه ﷺ، وقد حَسُنَ إسلامها، ودافعت عنه بكل إرادتها، وقد هاجرت مع من هاجرن.

وحفظت عن النبي ﷺ الأحاديث الكثيرة وروت عنه، وحدث عنها أنس بن مالك وغيره.

حبُّ الحبيب ﷺ لها:

كان حبيب اللَّه ﷺ يكرمها ويزورها في بيتها، ويَقيل عندها، فقد كانت هي وأختها أم سليم خالتين لرسول اللَّه ﷺ، إما من رضاع، وإما من النسب، لذا تحل له الخلوه بهما[٢].

---

(١) انظر أسد الغابة لابن الأثير (٥/ ٥٧٤) والإصابة لابن حجر (١٣/ ١٩٣)، وكذلك في الطبقات لابن سعد (٨/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

(٢) انظر قول النووي رحمه اللَّه في شرح الإمام مسلم (١٦/ ١٠) سبق.

بشارة الحبيب الأعظم ﷺ لها بالغزو في سبيل اللَّه عزّ وجلّ:

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من طريق الموطأ لمالك، عن إسحاق بن أبي طلحة عن أنس بن مالك أنه قد روى(١): أن النبي ﷺ، كان إذا ذهب إلى قباء يدخل على أم حرام بنت ملحان، فتطعمه، فدخل عليها فأطعمته، ثم نام رسول اللَّه ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك!!

فقالت أم حرام: ما يضحكُك يا رسول اللَّه؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: (ناس من أمتي عرضو عليَّ غزاة في سبيل اللَّه، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأَسرّة أو مثل الملوك على الأسرة)!!! فقالت أم حرام رضي اللَّه عنها: يارسول اللَّه، ادع اللَّه أن يجعلني منهم!! فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ، وهو يضحك. فسألته أم حرام: يارسول اللَّه ما يضحكك؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: (عُرِضَ عليّ ناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة)!! فقالت: يا رسول اللَّه، ادع اللَّه أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: (أنت من الأولين)!!

نالت وسام شرف الشهادة في سبيل اللَّه سبحانه وتعالى في البحر:

يقول أنس بن مالك رضي اللَّه عنه: فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت رضي اللَّه عنه، فلما جاز البحر، ركبت دابة وصرعتها فقتلتها، وكانت تلك الغزوة: (غزوة قبرص) فدفنت بقبرص، وكان أميرَ ذلك الجيش معاويةُ بن أبي سفيان في خلافة عثمان رضي اللَّه عنهم جميعاً(٢). وقد كان ذلك في سنة سبع وعشرين للهجرة(٣).

ومما حدث به بعض التابعين(٤): أنه أتى عبادة بن الصامت رضي اللَّه عنه وهو بساحل حمص وهو في بناء له ومعه امرأته أم حرام. قال عمير: فحدثتنا أم حرام تسأل أنها سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: (أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا). قالت أم حرام تسأل رسول اللَّه ﷺ: يا رسول اللَّه أنا فيهم؟ قال ﷺ: (أنت فيهم).

يقول ثور: سمعتها تحدث به وهي في البحر.

---

(١) الإصابة لابن حجر (٣/ ١٩٣) وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥) وأسد الغابه لابن الأثير (٥/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥) وحلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٦١ ـ ٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في التعبير، باب رؤيا النهار (٨/ ٧٢) ومسلم في الإمارة، باب فضل الغزو في البحر برقم (١٩١٢).

(٣) الإصابة لابن حجر (٨/ ٢٢٣).

(٤) حلية الأولياء لأبي نُعيم (٢/ ٦٢).

ويقول هشام: رأيت قبرها ووقفت عليه بالساحل بقاقيس.

وعن هشام بن الغاز، قال[1]: قبر أم حرام بن ملحان بقبرص، وهم يقولون هذا قبر المرأة الصالحة.

فرحم اللّه الصحابية الجليلة شهيدة البحر أم حرام بنت ملحان ورضي جلّ جلاله عنها وأرضاها وأسكنها فسيح جناته، وجعل روحها في الخالدين، وجعل ربي عزّ وجلّ نساء المسلمين اليوم يحتذين حذوها، وينتهجن نهجها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) حلية الأولياء لأبي نُعيم (٢/ ٦٢). والإصابة لابن حجر (١٣/ ١٩٣) وأسد الغابة لابن الأثير (٥/ ٥٧).

المرأةُ التي سَمِعَ اللّهُ شكواها!!

الصَّحابيَّةُ خَوْلةُ بنتُ ثَعْلَبة

رضيَ اللّهُ عنْها

ورفعت يدها إلى السماء، وفي قلبها حزن وأسىً، وفي عينيها دموع وحسرة، واتجهت إلى من لا يخيّب مَن دعاه قائلة: اللّهم إني أشكو إليك ما نزل فيَّ!!

فأنزل اللّه عزّ وجلّ آياتهِ الكريمةَ بشأنها!! إذ قال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

خولة بنت ثعلبة، الصحابية الجليلة، المبايعة المؤمنة، الداعية الشاكية الباكية، قد سمع اللّه شكواها من فوق سبع سموات، فأنزل بحقها آيات كريمة!!

خولة بنت ثعلبة بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف.

من ربات الحسن والجمال والفصاحة والبلاغة وصاحبة النسب الرفيع، قد قدمت إلى حبيب اللّه ﷺ وبايعته على الإيمان باللّه عزّ وجلّ وشهادة أن لا إله إلا اللّه وأنه رسول اللّه ﷺ، وقد أسلمت وحسن إسلامها، وقد كانت متزوجة من الصحابي الجليل: أوس بن الصامت بن قيس، أخو عبادة بن الصامت رضي اللّه عنهما، وهو من شهد بدراً وأحداً، وأغلب الغزوات مع سيد الأنام محمد ﷺ، وقد أنجبت منه زوجه خولة ولدهما: (الربيع بن أوس).

توضيح حكم الظِّهار في الإسلام:

ومما يُروى[١] عن خولة بنت ثعلبة أنها قد راجعت زوجها: (أوس بن الصامت الواقفي) بشيء ما، فاختلفا على أثر ذلك، وغضب منها زوجها أوس، فقال في عصبية وغضب: أنتِ عليَّ كظهر أمي!!

فقالت له زوجه خولة والدموع تنهلّ من عينيها لشدة ما سمعت منه: واللّه لقد تكلمت بكلام عظيم، ما أدري مبلغهُ.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٨، ٣٧٨).

خرج عنها زوجها والغضب يشع من عينيه وغادر المنزل إلى نادٍ يجتمع به القوم للتشاور ببعض أمورهم.

موقف مشرِّف يكتب على جبين التاريخ بحروف من نور:

وعندما عاد زوجها إلى المنزل مساءً دخل على زوجه، يراودها عن نفسها، ولكن يقظة الضمير وكبير إيمانها، وكذلك حساسية الشعور عندها أبت أن توافقه حتى تعلم حكم اللَّه عزّ وجلّ في مثل قول زوجها الذي يحدث لأول مرة في تاريخ الإسلام!!!!

فقالت له وفي قلبها خوف من اللَّه جلّ جلاله وحسرة على زوجها: كلا!! والذي نفس خولة بيده، لاتخلصن إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم اللَّه ورسوله ﷺ فينا حكمه!!!

وخرجت خولة حتى جاءت رسول اللَّه ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت من زوجها، وهي بذلك تريد أن تستفتيه وتجادله في الأمر، فقالت له: يا رسول اللَّه! إن أوساً مَنْ قد عرفت، أبو ولدي، وابن عمي، وأحب الناس إليَّ، وقد عرفت ما يصيبه من اللَّممِ، وعجزَ مقدرته، وضَعف قوته، وعيَّ لسانه، وأحقُّ من عاد عليه أنا بشيء إن وجَدته، وأحق من عاد علي بشيء إن وجده هو، وقد قال كلمة، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، قال: أنت علي كظهر أمي!! فقال رسول اللَّه ﷺ: (ما أراكِ إلا قد حَرُمتِ عليه).

وراحت المرأة المؤمنة الصالحة تعيد الكلام على رسول اللَّه ﷺ، وهي في كل مرة تشرح لرسول اللَّه ﷺ ما ذكر لها زوجها، إلا أن النبي ﷺ في كل مرة كان يقول لها: (ما أراك إلا قد حرمت عليه).

وأزاحت الصحابية الجليلة المؤمنة الصابرة نفسها واتجهت نحو الكعبة المشرفة، ورفعت يديها إلى السماء، وفي قلبها حزن وأسى، وفي عينيها دموع وحسرة، وناجت من لا يخيب للمؤمن دعاءه، فقالت: اللَّهم إني أشكو إليك شدة وجدي، وما شقَّ علي من فراقه، اللَّهم أنزل على لسان نبيك ﷺ ما يكون لنا فيه فَرَج.

السماء تعلن حالة الطوارىء من أجل امرأة!!

تقول السيدة عائشة رضي اللَّه عنها وهي تصف لنا حالة خولة: فلقد بكيت وبكى من كان معي من أهل البيت رحمةً لها ورقة عليها!!

فبينما هي كذلك بين يدي رسول اللَّه ﷺ تكلمه، وكان رسول اللَّه ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يغطُّ في رأسه، ويتبرد وجهه، ويجد برداً في ثناياه، ويعرق حتى

ينحدر منه مثل الجُمان، قالت عائشة: إنه لينزل عليه ما هو إلا فيك!! فقالت خولة: اللّهم خيراً، فإني لا أبغي من نبيك إلا خيراً.

قالت السيدة عائشة رضي اللّه عنها: فما سُرّي عن رسول اللّه ﷺ حتى ظننت أن نفسها تخرج فَرَقاً من أن تنزل الفُرقة، فسُرّي عن رسول اللّه ﷺ وهو يبتسم فقال: (يا خولة)!! قالت: لبيك، ونهضت قائمة فرحة بتبسم رسول اللّه ﷺ، ثم قال: (قد أنزل اللّه فيك وفيه). ثم تلا عليها رسول اللّه ﷺ الآيات الكريمة:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١ ـ ٤].

وأخذ رسول اللّه ﷺ يبين لها كفارة الظهار، فقال لها: (مريه أن يعتق رقبةً). فقالت له: وأي رقبة؟ واللّه ما يجد رقبةً وماله خادم غيري!!! ثم قال ﷺ: (مُرِيهِ فليصم شهرين متتابعين)، فقالت له: واللّه يا رسول اللّه ما يقدر على ذلك، إنه ليشرب في اليوم كذا وكذا مرة، قد ذهب بصره مع ضعف بدنه، وإنما هو كالخرشافة[١].

فقال رسول اللّه ﷺ: (فمريه.. فليطعم ستين مسكيناً)، قالت: وأنى له هذا؟ وإنما هي وجبة. قال ﷺ: (فمريه فليأتِ أمَّ المنذر بنت قيس، فليأخذ منها شطرَ وسقٍ تمراً، فيتصدق به على ستين مسكيناً).

ونهضت خولة رضي اللّه عنها، لتعود إلى زوجها، فتجدَه جالساً جانب الباب ينتظرها، فقال لها: يا خولة ما وراءك؟ فقالت له والفرحة على وجهها: خيراً، وأنت دميم، فقد أمرك رسول اللّه ﷺ أن تأتي أمَّ المنذر بنت قيس، فتأخذ منها شطرَ وسقٍ تمراً فتصدق به على ستين مسكيناً!!

فذهب زوجها أوس من عندها وهو يعدو إلى أمِّ المنذر حتى جاء بالتمر على ظهره، فجعل يطعم مُدَّين من التمر لكل مسكين.

وقد قالت في هذا السيدة عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها: الحمد للّه الذي وسع سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى رسول اللّه ﷺ، تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل اللّه عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى

---

(١) الخرشافة: هي تشبيه بالأرض الغليظة الجافة القاسية.

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

وقوفها أمام عملاق الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واعظة ناصحة داعية!!

فرضي اللَّه عنك أيتها الصحابية الجليلة المؤمنة، التي ربّاك الإسلام على الإيمان باللَّه جلّ جلاله وحبّ رسوله الكريم ﷺ، لنجدك تقفين أمام الخليفة عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه واعظه ناصحة داعية، تذكرينه بدين الإسلام والمعاملة الإسلامية الصحيحة، وذلك عندما قلت له: يا عمر! عهدتكَ وأنتَ تسمى عميراً في سوق عكاظ ترعى الأغنام بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمرَ، ثم تذهب الأيام حتى سميت أميرَ المؤمنين!! فاتقِ اللَّهِ في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب!!!

أمير المؤمنين عمر رضي اللَّه عنه يقف أمامها بأدب وتواضع ويسمع لها!!

وعمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي اللَّه عنه، واقف أمامها، يسمع كلامها في إمعان وقد أحنى إليها رأسه صاغياً إليها!! وقد كان برُفقته أحد مرافقيه وهو الجارود العبدي، فلم يستطع صبراً لما قالته خولة لأمير المؤمنين، فقال لها في غضب: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين.

فقال عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه: دعها!! أما تعرفها؟ هذه خولة التي سمع اللَّه قولها من فوق سبع سماوات، وعمر أحق واللَّهِ أن يسمع لها.

وفي رواية إنه قال أيضاً رضي اللَّه عنه: واللَّه لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليّها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها!!!!

فرضي اللَّه تعالى عنك أيتها الصحابية الجليلة المؤمنة الداعية التي خشيتِ اللَّه سبحانه وتعالى من ظهار زوجك وقد أثبتِ قوله ﷺ أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى أكرمك اللَّه عزّ وجلّ وأنزل بحقكِ على رسوله الكريم ﷺ سورة المجادَلة.

فقد كنتِ خير امرأة مجادلة لحبيب اللَّه ﷺ في سبيل الحفاظ على زوجك وبيتكِ!!

وكنتِ خير ناصحة واعظة داعية لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه!!

فرحمك اللَّه تعالى ورضي عنك، وأسكنك فسيح جنانه[1]، وجعل قبرك روضة من رياض الجنة، وأنزل عليه شآبيب رحماته وسجال عفوه. آميـن.

(١) لم نتأكد من تثبيت سنة وفاتها ومدفِنها، وذلك لإغفاله في أغلب كتب السيرة.

السَّيِّدةُ الخَنْسَاءُ
رضيَ اللَّهُ عنها
أمُّ الشُّهَداءِ

كان رسول اللّه ﷺ يستنشدها ويعجبه شِعرها، وكانت تنشده وهو يقول لها: (هيه يا خُناسُ، ويومي بيده)!!

تقول الخنساء لأبنائها ناصحة: يا أبنائي: إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وإنكم لبنو أبٍ واحد، وأمٍّ واحدة، ما هجّنت آباؤكم، ولا فَضحتُ أخوالكم!!

الخنساء: الصحابية الجليلة، الأم المؤمنة الصابرة، أم الشهداء، شاعرة المراثي، وصاحبة البطولة والوفاء.

الخنساء هي: تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رباح.

وينتهي نسبها إلى قبيلة مضر الشهيرة، والتي كان يعتبرها رسول اللّه ﷺ حصن القبائل العربية.

وقد سُميت تماضر لشدة بياض لونها، وغلب عليها لقب الخنساء (وهو مؤنث أخنس) وهي صفة تعني تأخر الأنف عن الوجه، أو انخفاض قصبته.

إمرأة جمعت المروءة والبطولة والإخلاص والتربية:

قلما تجتمع الصفات الكثيرة التي جمعتها الخنساء في شخصيتها بإمرأة واحدة، فقد جمعت المروءة والشهامة والإخلاص والبطولة، إلى جانب أنها الأم الحنون التي رعت أولادها على حب الإيمان باللّه عزّ وجلّ وحب الجهاد في سبيله جلّ جلاله، وطاعة رسول اللّه ﷺ.

وقد كانت شاعرةُ المراثي، ذاتَ جمالٍ بارع قلَّ مثيله بين نساء قومها، لذا أصبحت محطَّ أنظار سادات وفرسان العرب كلهم، إلى أن تقدم لخطبتها رواحة بن عبد العزيز السلمي، وتزوجها وأنجبت منه أبناءً فرساناً كانوا محطَّ أنظار

قومهم في الجاهلية، ومثال فخر العرب والإسلام بعد الدعوة الإسلامية.

وقد تفجر شعر الرِثاء لدى الخنساء عندما قتل أخواها في الجاهلية قبل ظهور الدعوة الإسلامية: (معاوية وصخر) فحزنت عليهما حزناً عميقاً ورثتهما رثاءاً مؤثراً، إلى أن أصبحت أشهر شاعرة للرثاء على مر العصور والأيام.

ومن أجمل ما قالته ترثي به أخاها صخراً، قصيدة مطلعها:

يذكرني طلوع الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ومن أجمل ما قالته فيه أيضاً:

أعينيَّ جودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيدا

لذا اتفق شعراء عصرها على أنه لم يكن هناك امرأةٌ أجزل شعراً من الخنساء، كما أجمعوا على أن النساء يظهرن الضعف في أشعارهن، إلا أن الخنساء قد فاقت الرجال في قول الشعر، وخاصة الرِثاءَ منه!!

وقد قيل لجرير مرة: من أشعر الناس؟ فقال: أنا، لولا الخنساء!!

وسئلت الخنساء مرة بعد مقتل أخويها: صفي لنا أخويك صخراً ومعاوية. قالت: كان صخر واللَّه جنةَ الزمان الأغبر، زعاف الخميس الأحمر!! وكان واللَّه معاوية القائلَ الفاعل. فقيل لها: فأيهما كان أسنى وأفخر؟ قالت الخنساء: أما صخر: فحرُّ الشتاء، وأما معاوية فبرد الهواء!! فقيل لها: فأيهما أوجع وأفجع؟ فقالت: أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد!!

وأنشدت تقول:

أسدان محمرا المخالب نجده ... بحران في الزمن الغضوب الأنمر

وتُسلم الخنساء، ويُعجب النبيَّ ﷺ شعرُها!!!

وعند ظهور الدعوة الإسلامية، سارعت الخنساء إلى رسول اللَّه ﷺ مع بعض قومها من بني سليم، وقد بايعت رسول اللَّه ﷺ على الإيمان باللَّه سبحانه وتعالى وسنة رسوله الكريم ﷺ، وأعلنت إسلامها

وتبنيها لعقيدة التوحيد، وحَسُن إسلامها حتى أصبحت رمزاً متألقاً من رموز البسالة، وعزة النفس، وعنواناً مشرفاً للأمومة المسلمة!!

وكان رسول اللَّه ﷺ يستنشدها ويعجبه شعرها، وكانت تنشده، وهو يقول: (هيه يا خناس) ويومي بيده إليها[١] !!

ويروى أنه حينَ قَدِمَ عَدي بن حاتِم مع أخته سفَّانة إلى النبي ﷺ ودخلا في دين الإسلام، قال عدي لرسول اللَّه ﷺ: يا رسول اللَّه! إن فينا أشعر الناس، وأسخى الناس، وأفرس الناس. فقال ﷺ له: (سمهم). فقال عدي: أما أشعر الناس: فامرؤ القيس بن حجر، وأما أسخى الناس: فحاتم بن سعد الطائي يعني: أباه، وأما أفرس الناس: فعمرو بن معد يكرب.

فقال رسول اللَّه ﷺ: (ليس كما قلت يا عدي!! أما أشعر الناس: فالخنساء بنت عمرو، وأما أسخى الناس فمحمد ﷺ ـ يعني: نفسه ـ وأما أفرس الناس: فعلي بن أبي طالب).

الإسلام يغيّر من كيماويات النفس البشرية:

ففي جاهلية الخنساء رثت إخوتها وخاصة صخراً بشعر رثائي وصل صداه إلى الجوزاء والثريا، فملأت العالم ضجيجاً حزناً عليهما، فلما تذوقت حلاوة الإيمان وتغرغرت بحلاوة الإسلام تبدل موقفها، فحين وصلها خبرُ استشهاد أولادها الأربعة وهم بَضعَات منها، قالت كلماتٍ مضيئة خلدتها في بطون صفحات التاريخ: الحمد للَّه الذي شرفني باستشهادهم وأسأل اللَّه أن يجمعني بهم بمستقر رحمته.

فمن خاصية الإسلام: التبديل والتغيير والانقلاب الجذري، لأنه دين سماوي صحيح.

وتدخل الخنساء امتحانها الثاني بأغلى شيء عندها!!

ويشاء اللَّه سبحانه وتعالى أن تمتحن الخنساء للمرة الثانية في أولادها الأربعة!! فنراها تضرب لنا المثال الرائع للأم الشجاعة المؤمنة باللَّه عزّ وجلّ، وذلك عندما توجه المثنى بن حارثة الشيباني إلى القادسية وكان ذلك في عهد خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه، وكانت الخنساء ومعها أولادها الأربعة في رفقة هذا الجيش.

وفي أرض المعركة وليلة التمام الصناديد بعضهم ببعض جمعت الخنساء أولادها الفرسان الأربعة، لتوجههم وتحرضهم على القتال، وعدم الفرار من العدو، وتحبب إليهم الاستشهاد في سبيل اللَّه عزّ وجلّ!!!

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٨/٦٦).

كلمات من نور تعجز عباقرة الكون عن قول مثلها!!!

فقالت لهم كلمات كلها إيمان وشجاعة، لا تزال تذكر إلى يومنا هذا قالت: أيا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عزّ وجلّ:

﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وجللت ناراً على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عن احتدام خميسها، تظفَروا بالغنم والكرامة في الخلد والمقامة!!!

أبطال أربعة تبيعهم الخنساء لله سبحانه وتعالى!!

وأخذ أولادها الأربعة نصيحة أمهم المؤمنة الشجاعة، بكل إيمان وحماس، وخرجوا من عندها قابلين لنصحها عازمين على قولها، متوكلين على الله جلّ جلاله، فلما أصبح عليهم الصباح، سارع كل منهم إلى مركزه مندفعين إلى لقاء العدو بكل إيمان وحماس وهم يرتجزون!!! فقال أولهم:

يا إخوتي إنّ العَجوزَ النّاصحة ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
بمقالة ذاتِ بيانٍ واضحة ... وإنما تَلْقوْن عندَ الصابحة
من آل ساسان كلاباً نابحة[1] ... قَدْ أيقنوا منكم بوقع الجائحة
وأنتم بين حياةٍ صالحة ... أو ميتةٍ تورث غُنماً رابحة[2]

شعراء وأبطال يستعذبون الموت في سبيل الله عزّ وجلّ!!

وتقدم ولدها الأول وقاتل بشجاعة باسلة حتى استشهد رحمه الله تعالى.. ويتقدم أخوه الثاني لساحة القتال وهو يرتجز، قائلاً:

إنّ العجوزَ ذاتُ حَزم وجَلَدْ ... والنظرِ الأوفقِ والرأي السَّدَدْ
وقدْ أمَرتْنا بالسَّدَادِ والرَّشَدْ ... نصيحةً منها وبَرّاً بالولدْ

---

(١) الإصابة لابن حجر (١٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٧) آل ساسان: هم الفرس.

(٢) من هامش الإصابة في الاستيعاب لابن عبد البر (١٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧).

فباكروا الحربَ حُماةً في العَدَدْ ... إمّا لفوزٍ باردٍ على الكَبَدْ
أو ميتةٍ تُورثُكُمْ عِزَّ الأَبَدْ ... في جنّةِ الفردوسِ والعَيشِ الرَّغَدْ

وقاتل رحمه اللّه حتى استشهد في ساحة المعركة.

ويتقدم الثالث وسط القتال مرتجزاً:

واللهِ لا نَعصي العَجُوزَ حَرْفَا ... قَدْ أمَرَتْنَا حَدَباً وعَطْفَا
نُصْحاً وبِراً صَادقاً ولُطفا ... فَبَادِروا الحربَ الضَّروسَ زَحْفَا
حتى تَلُفُّوا آلَ كِسْرى لَفَّا ... أو تكشفوهم عن حِمَاكم كُشْفا
إنا نرى التقصِيرَ منكُمْ ضعْفَا ... والقتلَ فيكُمْ نجدةً وزُلْفى

ويقاتل وسط القتال حتى يموت في سبيل اللّه تعالى شهيداً!!!

ويتقدم رابعهم بكل شجاعة وعزم ويقاتل مرتجزاً يقول:

لَسْتُ لخنساءَ ولا للأخْزَم ... ولا لعَمْرٍ وذي السَّعاءِ الأقْدَم
إنْ لم أردْ في الجيشِ الأعْجَم ... ماضٍ على الهَوْلِ خِضَمٌ خِضْرِمِ
إمّا لِفَوزٍ عَاجِلٍ مَغْنَم ... أو لِوَفاةٍ في سَبيلِ الأكْرَم

فقاتل رحمه اللّه قتالاً مريراً، حتى استشهد في سبيل اللّه سبحانه وتعالى.

هل في التاريخ صبرٌ مثل هذا الصبر؟؟!!

ولما بلغ الخنساءَ، الأم المؤمنة الصابرة، خبرُ مقتل أبنائها الأربعة، لم تجزع ولم تندب، بل كانت مثالاً للأم المؤمنة المجاهدة في سبيل اللّه عزّ وجلّ!! بل قالت كلماتٍ مشهورةً، بقي التاريخ يرددها وسيرددها إلى ما شاء اللّه: (الحمد للّه الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته)!!!!!

وكان الخليفة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يعرف فضل الصحابية المجاهدة الخنساء وكذلك فضل أولادها، فما زال يعطيها أرزاق أولادها لكل واحدٍ مِائتي درهم، حتى قبض رضي اللّه عنه[1].

وتودّع الدنيا لتلتقي روحها بأرواح أولادها الأبطال في مستقر رحمة اللّه عزّ وجلّ.

وبعد أن تسلّم عثمان بن عفان رضي اللّه عنه الخلافة، رحلت الخنساء إلى

---

(١) من هامش الإصابة في الاستيعاب لابن عبد البر (١٢/ ٢٩٨).

البادية لتعيش كداعية للدين والإيمان، وتعلم وتهذب الناس من تعاليم الرسول الكريم ﷺ إلى أن قبضت روحها الطاهرة في عام ٢٤ للهجرة[1]، بعد أن كانت مثالاً للمرأة المجاهدة المؤمنة الشاعرة الفصيحة الناصحة.

فرحمها اللّه تعالى ورضي عنها، وأرضاها، وأسكنها فسيح جنانه، وجعلها في الخالدين، أسوة حسنة تنهل نساؤنا من سيرة حياتها.

(١) من الإصابة لابن حجر (٨/ ٦٦ ـ ٦٧).

خُلاصَةٌ وَخاتِمَةٌ

الحمد اللّه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام الهدى، وقائد أهل التقى وعلى آله وصحبه، ومَنْ سلك مسلكه إلى يوم الدين وبعد:

هذا، وقد تمّ بحمد اللّه وتوفيقه، جمع كتاب: (مؤمنات أحبَّهنَّ اللّهُ ورسولُهُ ﷺ)، وذلك من فضل اللّه عزّ وجلّ عليَّ في صبيحة يوم الإثنين ١٠ محرم الحرام ١٤٢٥ من هجرة سيد الكائنات محمد ﷺ الموافق لـ ١ فبراير ٢٠٠٤م من ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

في مدينة أبوظبي، دولة الامارات العربية المتحدة ـ نشر اللّه عليها كنفه ـ فلك الحمد ربي على عونك وتوفيقك في إتمام هذه الفصول.

وإني لأرجو منه جلّ جلاله أن يتم نعمته، ويديم فضله ومدده، وأبتهل إليه سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة أن ينتشل بقية آثاري العلمية، ويخرجها من عالم المخطوطات إلى عالم النور والمطبوعات.

تلك هي طاقتي القاصرة، وجهدي المتواضع، فما هو الصواب، فمن عنده عزّ وجلّ، وما كان من غير ذلك مما لا يرضاه فمني، وأستغفر اللّه منه، وأبرأ إليه منه، فإنه لا عصمة إلا لكتابه العظيم، ورحم اللّه امرءاً رأى فيه نقصاً أو خطأً أو زللاً، فنبهني إليها وأرشدني إلى صوابه نصحاً وإهداءً وحباً في الحق، لا تعصباً وهوى.

لقد كان حديثنا عن هؤلاء المؤمنات القانتات ـ حديثاً يتسم بحبهن وإكبارهن والإعجاب بهن؛ بوصفهن الصفوة المختارة من خير النساء، ولكونهن قدوة لكل مؤمنة ترجو اللّه واليوم الآخر، وتبغي من دنياها رضا اللّه تبارك وتعالى، وتجعل منها مزرعة للحياة الباقية.

وقد بذلت جهدي في تحرّي الصواب في أخبارهن والحكم لهن بحسن التأسّي واتّباع المنهج القويم في أقوالهن وأفعالهن وأحوالهن مع اللّه سبحانه وتعالى، فلم يدفعني حبهن والإعجاب بهن إلى المبالغة في الثناء والإطراء؛ فهن

كما وصفتهن في كتابي هذا وأكثر. وإني أشهد على نفسي بأن ما جهلته من محاسنهن ومكارمهن ـ أكثر بكثير مما علمته عنهن؛ لأن كتب التواريخ والسير لا تذكر كل شيء، وهن لشدة ورعهن وزهدهن وعظيم إخلاصهن للّه جلّ جلاله ـ لا يظهرن الكثير من أعمالهن الصالحات؛ خوفاً من الرياء والخيلاء، ورغبة منهن في المحافظة على الحب الصافي للّه العلي العظيم.

لقد تجلت لنا في الصفحات السابقة سيرة مؤمنات طاهرات أحبهن اللّه ورسوله ﷺ، اللائي فضلهن اللّه عزّ وجلّ على النساء، وأراد أن يكنّ قدوة صالحة لجميع النساء، ومعلماتٍ للمؤمنات، ومُثُلاً حية في الإيمان والتقوى، والعلم والحكمة، ومعالي الأمور ومكارم الأخلاق، فكنّ كما أراد اللّه سبحانه وتعالى لهن قدوة طيبة في التقوى.

ولقد استبان لنا كيف فضلهن اللّه تعالى، وأنزل في إعظامهن قرآناً يتلى على مسامع المسلمين إلى يوم القيامة، منذ خمسة عشر قرناً وإلى قيام الساعة.

وأظهرت لنا بعض الفصول السابقة كيف أن بيوت أمهات المؤمنين ظلت مهبِط الوحي والرحمة والهدى على مدى حياته ﷺ، فلما انتقل إلى جوار ربه بقيت هذه البيوت مثابة للناس، يقصدونها متعلمين ومستفتين أو ملتجئين مستغيثين. فكان فيها هداية الحائر، وعلم الجاهل، وظل الناس جميعاً على اختلافهم، الخلفاءُ فَمَنْ دونهم يرجعون إليهن ويخضعون لهن خضوع الأبرار لأمهاتهم، وكان من فضل اللّه على هذه الأمة أن طالت أعمارهن بعد رسول اللّه ﷺ، فنقلن لأمته كثيراً من سنته، وبخاصة فيما لا يطلع عليه إلا النساء، فعن طريقهن عرفت الأمة أحوال النبي ﷺ الخاصة، وعنهن رُوي الكثير من السنة، ولولاهن لضاعت أحاديثُ وأحكامٌ ما كنا لنطلع عليها من غيرهن، ولا سيما أحكام الأسرة الخاصة.

لقد كان لأمهات المؤمنين رضي اللّه عنهن فضل كبير في تبليغ أحكام الدين ونشر السنن بين نساء المسلمين، لا سيما ما كان من عائشة رضي اللّه عنها التي كانت على مقدار عظيم من الفطنة والفهم، فقد كانت تسأله ﷺ، وتناقشه في بعض المسائل التي قد تخفى عليها، وتستوضح كثيراً من آيات القرآن، فقد روى البخاري في كتاب العلم عن ابن أبي مُليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه[1].

ولقد كانت نساء النبي ﷺ ـ أيضاً ـ على جانب عظيم من العلم والرواية،

---

(١) البخاري في العلم ١/ ٢٣٧ (١٠٣).

ومن رجع إلى أُمَّات كتب الحديث ودواوين السنة وبخاصة المسانيد منها، لهاله كثرة ما رُوي عنهن، إذ كانت بيوتهن ـ كما قلنا ـ مدارس لنشر الفقه والحديث والتفسير والسيرة، لقد تهافت الرواة من كل جانب، وتنافسوا في الأخذ عنهن كل التنافس، فإذا كان ما روي عن عائشة رضي اللّه عنها وحدها ربعَ الشريعة، فما روي عنهن جميعاً شيء عظيم غزير.

وفي النهاية نهيب بالمسلمات أن يتأسين بهؤلاء المؤمنات اللاتي أحببن اللّه ورسوله ﷺ في علمهن وأخلاقهن وبعبادتهن.. ففي ذلك سعادة الدارين، إن شاء اللّه عزّ وجلّ.

والأمل معقود على المرأة المسلمة في أداء رسالتها والنهوض بأمتها، وتنشئة أجيال تفهم الإسلام فهماً صحيحاً.

أسأل اللّه عزّ وجلّ أن يجعل عملي في هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، وأن يغفر لي ما قصرت فيه، ويبارك فيما أحسنت فيه، إنه سبحانه وتعالى أعظم مأمول وأكرم مسؤول، وسبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وكتب

الراجي عفو ربه الصمد

محمود عبد الحميد الأحمد

أبو ظبي ـ الإمارات العربية المتحدة

الإثنين ١٠ محرم الحرام ١٤٢٥هـ الموافق لـ ١ ـ فبراير ـ ٢٠٠٣م

أهمُّ مَصَادِرِ ومَراجعِ الكتابِ العلميَّة

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ تفاسير القرآن الكريم — للسادة المفسرين رضي اللّه عنهم جميعاً
٣ ـ الإتقان في علوم القرآن — السيوطي
٤ ـ الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة — الزركشي
٥ ـ صحيح البخاري — الإمام البخاري
٦ ـ صحيح مسلم — الإمام مسلم
٧ ـ سنن أبي داود — أبو داود
٨ ـ سنن ابن ماجه — ابن ماجه
٩ ـ سنن الترمذي — الترمذي
١٠ ـ سنن النَّسائي — النَّسائي
١١ ـ البداية والنهاية — ابن كثير
١٢ ـ تاريخ الطبري — الطبري
١٣ ـ الإصابة في تمييز الصحابة رضي اللّه عنهم — ابن حجر العسقلاني
١٤ ـ الطبقات الكبرى — ابن سعد
١٥ ـ أحكام القرآن — أبو بكر بن العربي
١٦ ـ أحكام النساء — ابن الجوزي
١٧ ـ أخبار مكة — الأزرقي
١٨ ـ إرواء الغليل — الألباني
١٩ ـ الأساس في السنة (السيرة النبوية) — سعيد حوّى
٢٠ ـ الاستيعاب (بهامش الإصابة) — ابن عبد البَر
٢١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة — ابن الأثير
٢٢ ـ الإصابة في تمييز الصحابة — ابن حَجَر العسقلاني
٢٣ ـ الأعلام — خير الدين الزِركلي
٢٤ ـ أعلام النساء — عمر رضا كحالة
٢٥ ـ أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد — إبراهيم الجمل
٢٦ ـ خديجة أمُّ المؤمنين — عبد الحميد الزَّهراوي
٢٧ ـ البداية والنهاية — ابن كثير

٢٨ ـ تأملات في السيرة النبوية — الدكتور محمود محمد عمارة
٢٩ ـ التاريخ الإسلامي مواقف وعبر — د. عبد العزيز بن عبد اللّٰه الحميدي
٣٠ ـ تاريخ الأمم والملوك — الطبري
٣١ ـ تاريخ بغداد — الخطيب البغدادي
٣٢ ـ تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) — ابن عساكر
٣٣ ـ تحرير المرأة في عصر الرسالة — عبد الحليم أبو شقة
٣٤ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي — المباركفوري
٣٥ ـ تراجم سيدات بيت النبوة — د. عائشة عبد الرحمن
٣٦ ـ تهذيب التهذيب — ابن حجر العسقلاني
٣٧ ـ التمهيد — ابن عبد البر
٣٨ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ — ابن الأثير
٣٩ ـ جامع العلوم والحكم — ابن رجب الحنبلي
٤٠ ـ الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ﷺ — السيوطي
٤١ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه — عباس محمود العقاد
٤٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء — لأبي نُعيم الأصبهاني
٤٣ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة — البيهقي
٤٤ ـ دلائل النبوة — الأصبهاني
٤٥ ـ الروض الأُنُف — السهيلي
٤٦ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد — ابن قيم الجوزية
٤٧ ـ زوجات النبي ﷺ الطاهرات وحكمة تعددهن — الصواف
٤٨ ـ السِّمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين — المحب الطبري
٤٩ ـ سبل الهدى والرشاد — الصالحي
٥٠ ـ سير أعلام النبلاء — الذهبي
٥١ ـ السيرة الحلبية — علي بن برهان الدين الحلبي
٥٢ ـ السيرة النبوية — ابن هشام
٥٣ ـ السيرة النبوية (دراسة تحليلية) — د. محمد عبد القادر أبو فارس
٥٤ ـ السيرة النبوية دروس وعبر — د. مصطفى السباعي
٥٥ ـ سيرة آل بيت النبي ﷺ — الشيخ عبد الحفيظ فرغلي
٥٦ ـ شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة — د. محمد علي الهاشمي
٥٧ ـ شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة — د. محمد علي الهاشمي
٥٨ ـ شذَرات الذهب في أخبار من ذهب — ابن العماد الحنبلي
٥٩ ـ شرح السنة — البغوي
٦٠ ـ الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ — القاضي عِياض
٦١ ـ الصدِّيقة بنت الصديق — عباس محمود العقاد

الكتاب	المؤلف
٦٢ ـ صفوة الصفوة	ابن الجوزي
٦٣ ـ الطبقات الكبرى	ابن سعد
٦٤ ـ العِقد الفريد	ابن عبد ربه الأندلسي
٦٥ ـ العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ	أبوبكر بن العربي
٦٦ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني
٦٧ ـ فقه السيرة النبوية	د. محمد سعيد رمضان البوطي
٦٨ ـ القاموس المحيط	الفيروز آبادي
٦٩ ـ الكامل في التاريخ	ابن الأثير
٧٠ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس	العجلوني
٧١ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة	الهيثمي
٧٢ ـ كنز العمال	علاء الدين علي الهندي
٧٣ ـ لباب النقول في أسباب النزول	السيوطي
٧٤ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	الهيثمي
٧٥ ـ محمد رسول اللّٰه ﷺ	محمد الصادق إبراهيم عرجون
٧٦ ـ المرأة المسلمة الداعية في التربية	محمد حسين بريغش
٧٧ ـ المستدرك على الصحيحين	الحاكم النيسابوري
٧٨ ـ المستطرَف في كل فن مستظرف	الأبشيهي
٧٩ ـ المعجم الكبير	الطبراني
٨٠ ـ مفتريات على الإسلام	أحمد محمد جمال
٨١ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية	ابن حجر العسقلاني
٨٢ ـ مسند أبي يعلى الموصلي	تحقيق حسين سليم أسد
٨٣ ـ المسند	الإمام أحمد بن حنبل
٨٤ ـ المصنف	عبد الرزاق الصنعاني
٨٥ ـ المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية القيادية)	منير الغضبان
٨٦ ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان	الهيثمي
٨٧ ـ النساء الداعيات	د. توفيق يوسف الواعي
٨٨ ـ شعب الإيمان	البيهقي
٨٩ ـ الرحيق المختوم	المباركفوري
٩٠ ـ حياة الصحابة	الكاندهلوي
٩١ ـ كواكب حول الرسول ﷺ	عبد الحليم خفاجي
٩٢ ـ المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة	د. عبد الكريم زيدان
٩٣ ـ أحكام القرآن	ابن العربي
٩٤ ـ أخلاق النبي ﷺ وآدابه	أبو الشيخ ابن حيّان
٩٥ ـ الأذكار النووية	الإمام النووي

٩٦ ـ الأربعون في مناقب أمهات المؤمنين — ابن عساكر أبو منصور
٩٧ ـ الأم — الإمام الشافعي
٩٨ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة — القفطي
٩٩ ـ أنساب الأشراف — البلاذري
١٠٠ ـ الأنوار في شمائل النبي المختار — البغوي
١٠١ ـ الأوائل — العسكري
١٠٢ ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون — البغدادي
١٠٣ ـ البدر الطالع — الشوكاني
١٠٤ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب — الآلوسي
١٠٥ ـ بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني — البنا
١٠٦ ـ تحفة الأشراف — الحافظ المِزّي
١٠٧ ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة — للسخاوي
١٠٨ ـ تذكرة الحفاظ — الذهبي
١٠٩ ـ التذكرة في الأحاديث المشتهرة — الزركشي
١١٠ ـ تسمية أزواج النبي ﷺ وأولاده — أبي عبيدة معمر بن المثنى
١١١ ـ تقريب التهذيب — ابن حجر العسقلاني
١١٢ ـ تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير — ابن الجوزي
١١٣ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد — ابن عبد البر
١١٤ ـ تهذيب الأسماء واللغات — الإمام النووي
١١٥ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ — ابن الأثير
١١٦ ـ الجرح والتعديل — الرازي
١١٧ ـ جِلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ﷺ — ابن القيم
١١٨ ـ الجليس الصالح الكافي — النهراوي
١١٩ ـ جوامع السيرة — ابن حزم
١٢٠ ـ حلية الأولياء — أبو نُعيم
١٢١ ـ الخصائص الكبرى — السيوطي
١٢٢ ـ الدرر في المغازي والسير — ابن عبد البر
١٢٣ ـ الدرر الكامنة — ابن حجر العسقلاني
١٢٤ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور — السيوطي
١٢٥ ـ الذرية الطاهرة — الدولابي
١٢٦ ـ روضة الطالبين — الإمام النووي
١٢٧ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد — ابن قيم الجوزية
١٢٨ ـ السيرة النبوية — شرح الخشني
١٢٩ ـ شرح معاني الآثار — الطحاوي

١٣٠ ـ الشمائل المحمدية	الترمذي
١٣١ ـ الطبقات الكبرى	ابن سعد
١٣٢ ـ العبر في خبر من غبر	الذهبي
١٣٣ ـ عِشرة النساء	النَّسائي
١٣٤ ـ الفائق	الزمخشري
١٣٥ ـ الفردوس بمأثور الخطاب	الديلمي
١٣٦ ـ الفصل في الملل والنحل	ابن حزم
١٣٧ ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ	ابن كثير
١٣٨ ـ فضائل الصحابة رضي اللّه عنهم	الإمام أحمد
١٣٩ ـ فِهْرِس الفهارس	الكَتاني
١٤٠ ـ القاموس المحيط	الفيروز أبادي
١٤١ ـ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ﷺ	السخاوي
١٤٢ ـ الكاشف	الذهبي
١٤٣ ـ الكامل في ضعفاء الرجال	ابن عدي
١٤٤ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل	الزمخشري
١٤٥ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون	حاجي خليفة
١٤٦ ـ لسان العرب	ابن منظور
١٤٧ ـ لسان الميزان	ابن حجر
١٤٨ ـ المجروحين	ابن حبان
١٤٩ ـ مجمع الزوائد	الهيثمي
١٥٠ ـ مجمل اللغة	ابن فارس
١٥١ ـ المجموع شرح المهذب	الإمام النووي
١٥٢ ـ مرشد المحتار إلى خصائص المختار ﷺ	ابن طولون
١٥٣ ـ المستدرك على الصحيحين	الحاكم
١٥٤ ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار	القاضي عياض
١٥٥ ـ مصباح الزجاجة في زوائدابن ماجه	البوصيري
١٥٦ ـ المطالب العالية	ابن حجر العسقلاني
١٥٧ ـ المعارف	ابن قتيبة
١٥٨ ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي
١٥٩ ـ المعجم الصغير	الطبراني مع الروض الداني
١٦٠ ـ المعجم الكبير	الطبراني
١٦١ ـ معجم المؤلفين	كحالة
١٦٢ ـ المعرفة والتاريخ	البسوي
١٦٣ ـ المغازي	الواقدي
١٦٤ ـ المغني	ابن قُدامة

١٦٥ ـ منال الطالب في شرح طوال الغرائب	ابن الأثير
١٦٦ ـ ميزان الاعتدال	الذهبي
١٦٧ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر	ابن الأثير
١٦٨ ـ نيل الأوطار	الشَوكاني
١٦٩ ـ هدية العارفين	البغدادي
١٧٠ ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ	السمهودي
١٧١ ـ الوفا بأحوال المصطفى ﷺ	ابن الجوزي
١٧٢ ـ تجريد أسماء الصحابة	الذهبي
١٧٣ ـ المحبَّر	ابن حبيب
١٧٤ ـ الإستيعاب	ابن عبد البر
١٧٥ ـ جمهرة أنساب العرب	ابن حزم
١٧٦ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر	ابن منظور الإفريقي (صاحب لسان العرب)
١٧٧ ـ أعلام النساء	عمر رضا كحالة
١٧٨ ـ نسب قريش من جمهرة أنساب العرب	ابن الكلبي
١٧٩ ـ محمد رسول الله والذين معه	عبد الحميد السحار
١٨٠ ـ سيدات بيت النبوة	د. عائشة عبد الرحمن
١٨١ ـ علي إمام المتقين رضي الله عنه	الشرقاوي
١٨٢ ـ الترجمة العربية لكتاب الرسول ﷺ	بودلي
١٨٣ ـ حياة صحابيات الرسول ﷺ	الشيخ خالد عبدالرحمن العك
١٨٤ ـ المِائة الأوائل من النساء	سليمان البواب

كُتُبٌ للمصنِّفِ
غفرَ اللَّهُ لهُ ولوالديهِ وللمُسْلمين

١ ـ مع اللَّه في ملكوته.

٢ ـ مع الأنبياء وجهادهم ـ طبع على نفقة صاحبة السمو الشيخة فاطمة بنت مبارك قرينة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة ـ حفظهما اللَّه ورعاهما ـ .

٣ ـ مِائة وصية ذهبية من وصايا منقذ البشرية ﷺ، طبع على نفقة الشيخة فاطمة بنت مبارك حفظها اللَّه ورعاها، على روح الوالدة الغالية سمو الشيخة سلامة بنت بطي رحمها اللَّه تعالى.

٤ ـ سورة الأنفال دراسة تحليلية وتطبيقية.

٥ ـ خواطري حول سورة يس.

٦ ـ فتاوى تهم المرأة المعاصرة (١٠) أجزاء.

٧ ـ وهذه نصيحتي للشباب (٣) أجزاء.

٨ ـ وهذه نصيحتي للفتيات (٣) أجزاء.

٩ ـ المرأة بين نور الإسلام وغياهب الظلام.

١٠ ـ نظرات في سورة الفاتحة وجزء عمَّ ـ مجلدان كبيران.

١١ ـ تأملات في عروس القرآن (سورة الرحمن).

١٢ ـ تيسير العزيز الغفور في تفسير سورة النور.

١٣ ـ رسالة عاجلة إلى العالم، هذا هو الإسلام.

١٤ ـ وَقَفَات مع سورة الحجرات.

١٥ ـ أذكار الصباح والمساء.

١٦ ـ مناسك الحج والعمرة وَفْقَ الكتاب والسنة.

١٧ ـ الذِّكْر والدُّعاء من الكتاب والسُّنة.

١٨ ـ كيف تستقبلين مولودك الحبيب؟ مع بيان نشأة الطفل وتربيته.

١٩ ـ أول الخلفاء الراشدين أبوبكر الصديق رضي اللَّه عنه.

٢٠ ـ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه.

٢١ ـ الجنّة ونعيمها.

٢٢ ـ النّار وعذابها.

٢٣ ـ مؤمناتٌ أحبّهنّ اللَّهُ ورسولُهُ ﷺ.

٢٤ ـ واتقوا اللَّه ويعلمكم اللَّه.

٢٥ ـ دراسات في الثقافة الإسلامية والفكر المعاصر.

فِهْرِسُ المُحْتَوَيَاتِ

إهداء ٧

مناجاةُ محبٍّ ٩

مقدِّمة ١١

تمهيد ١٧

القسم الأول

مؤمنات خَلَّدَ اللَّهُ ذكرهَنَّ في مُحْكَمِ آياتِه!!!

السَّيدةُ حَوَّاءُ أُمُّ البَشَرِ رضي اللَّهُ عنها ٢١

المرأة قسيمة الرجل في عمارة الكون ٢١

وعاش الزوجان الحبيبان في الجنة حيناً من الدهر ٢٣

لا علاقة لحواءَ بخروج آدم من الجنة!! ٢٤

ما هي جنة آدم عليه السلام؟ ٢٥

السَّيدةُ سارَّةُ بِنْتُ هَارَان ٢٧

ولادة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ٢٧

ارتحال إبراهيم عليه السلام من العراق إلى مصر ٢٨

إمرأة ما عرف التاريخ صابرة مثلها!! ٢٩

ثناء اللَّه جلّ جلاله عليهما!! ٣٠

سارّة تغار من هاجر غَيرة محمودة لا مذمومة! ٣١

الملائكة تبشر إبراهيم بغلام عليم بعد أن ناهز المِائة!! ٣١

السيدة سارّة تلد وهي ابنة تسعين عاماً!! ٣٣

زواج إسحاق وتبليغه دعوة اللَّه سبحانه وتعالى ٣٣

الدروس والعبر المستفادة من قصة هذه المؤمنة العظيمة! ٣٣

السَّيدةُ هَاجَرُ أُمُّ إِسْمَاعِيل ٣٥

هكذا فلتكن نساء العالمين!! ٣٥

ونبع ماء زمزم ٣٦

هكذا فليكن الآباء والأبناء ٣٧

العظات والعبر من هذه القصة ٣٨

ويتزوج إسماعيل عليه السلام بعد المحنة ٣٨
ويتعاون الأب والإبن على بناء البيت الحرام ٣٩
وفاة السيدة هاجر عليها السلام ٤٠
السَّيدةُ بِلْقِيسُ مَلِكَةُ سَبَأ ٤١
امرأة فريدة في سماتها النفسية والعقلية والخلقية!! ٤١
الهدهد أستاذ وعبقري في الذكاء!!! ٤٢
الهدهد يعطي سليمان عليه السلام درسين عظيمين!!! ٤٣
سليمان عليه السلام يسمع قول الهدهد ويبادر الاتصال!! ٤٤
ويمضي السّفير السليماني ـ الهدهد ـ ويلقي الكتاب إلى الملكة!! ٤٥
التهور والتسرع من شأنه أن يهلك الأخضر واليابس!!! ٤٧
الملك سليمان عليه السلام يجمع حاشيته ويستشيرهم ٤٧
سليمان عليه السلام يختبر ذكاء الملكة! ٤٨
وتعلن الملكة إسلامها مع سليمان للّه رب العالمين ٤٨
الدروس المستفادة من قصة هذه الملكة العظيمة ٥٠
السَّيدَةُ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِم رضي اللّه عنها المرأة الكاملة الصالحة الصابرة ٥٤
ثناء القرآن الكريم عليها ٥٥
السَّيدةُ أمُّ مُوسَى عليه السلام ٥٧
وحي اللّه عزّ وجلّ لامرأة ٥٧
معنى وحي اللّه تعالى لها ٥٧
سيدنا موسى عليه السلام يُرَبّى في بيت الطاغية فرعون!! ٥٨
ويُكلم قلب الأم الحزين ٥٨
ويجمع اللّه الحبيبين بعد طول غياب! ٥٩
كوني كأمّ موسى! ٥٩
السَّيدَةُ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَان رضي اللّه عنها ٦٠
المرأة التي كمّلها اللّه عزّ وجلّ من النساء ٦٠
كفالة زكريا عليه السلام لها ٦٠
اعتزال السيدة العذراء لتتفرغ لعبادة ربها ٦١
المحنة الكبرى التي ألمّت بالسيدة العذراء!! ٦٢
معجزة من أعظم معجزات الكون!! ٦٣
القرآن الكريم يسطّر ذكرها على مرّ العصور ٦٤
الدروس المستفادة من قصة مريم الصدّيقة ٦٥

القسم الثاني
أُمَّهات سيّدِ الأنامِ محمَّدٍ ﷺ

السَّيدةُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ ٦٩
نسبها ٦٩
أمّها ٦٩
نَذر عبد المطلب ـ شيبة الحمد ـ والفداء ٦٩
الخِطبة المباركة والزواج الميمون ٦٩
سفر الزوج الحبيب للتجارة ٧٠
الفاجعة العظمى!! ٧٠
ولادة منقذ الإنسانية وهدية اللّه للبشرية ﷺ ٧٠
وفاتها ٧١
وتتسارع الأيام والسنون ٧١
السيدةُ حَلِيمَةُ السَّعدية رضي اللّه عنها ٧٢
اسمها ونسبها ٧٢
زوجها ٧٢
قدومها لمكةَ للحصول على رضيع ٧٣
ظهور بركة الحبيب محمد ﷺ تظهر لحليمة!! ٧٣
بركة الحبيب ﷺ تظهر أكثر وأكثر!! ٧٤
وتتشرّف مدينة الطائف بقدوم خير البشرية محمد ﷺ ٧٤
حليمة ترغب بمدّ فترة هذه النَسَمة المباركة لديها ٧٤
وتتوالى المعجزات، وتكون حادثة شق الصدر!! ٧٥
صاحب الوفاء محمد ﷺ يردّ الجميل لأمه حليمة ٧٦
ويبسط سيد الأنام ﷺ رداءه لتجلس عليه امرأة!! ٧٧
السَّيدةُ بَرَكَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ (أمُّ أيمنَ) رضي اللّه عنها ٧٨
اسمها ونسبها ٧٨
زوجها ٧٨
إسلامها وهجرتها إلى الحبشة ثم المدينة رضي اللّه عنها ٧٨
إكرام اللّه لأُمِّ النبي ﷺ بركة أمّ أيمن ٧٩
بركة تحوز وسام الشرف بالجنة من الصادق المصدوق ﷺ ٧٩
زيد بن حارثة يحظى بشرف الزواج منها ٧٩
الحبيب ﷺ يداعب أمّه بركة أمّ أيمن ٨٠

عُسْرُ لسانها ٨٠
السيّدة الفاضلة تحزن على فقد ولدها الحبيب محمد ﷺ ٨٠
حزنها على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ٨١
فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ الهَاشِمِيَّة ٨٢
اسمها ونسبها ٨٢
والدها ٨٢
زوجها ٨٢
تربيتها لسيد الأنام محمد بن عبد اللّه ﷺ ٨٢
السيدة الفاضلة تفرح بزواج ابنها عليٍّ من سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء رضي اللّه عنها ٨٣
صاحب الوفاء سيدنا محمد ﷺ يكفِّن فاطمة في قميصه وينزل قبرها رضي اللّه عنها!!! ٨٣

القسم الثالث
أمهاتُ المؤمنين ـ السَّيداتُ الطّاهراتُ العفيفاتُ ـ

من خصائص الحبيب الأعظم ﷺ في الزواج ٨٥
الطَّاهِرَةُ أمُّ المُؤمِنِينَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ قُرَيشٍ ٩١
النَّسب الشريف ٩١
والدها ٩١
أمُّها ٩١
ابنُ عمِّها ٩١
من تزوجت قبل النبي الأكرم ﷺ ٩٢
أعظم زواج عرفته البشرية ٩٢
ليلة الزِفاف والهناء!! ٩٥
موازين الاختيار الصحيح ٩٦
الزوجة والأم المثالية: خديجة الزوجة المثالية ٩٦
خديجة الأم الرؤوم ٩٧
الوحي ٩٨
إن لم تكونوا مثلهم فتشبّهوا!! ٩٩
المقاطعة الظالمة!! ١٠٠
الوفاة والوفاء!! ١٠١
وفاة خديجة رضي اللّه عنها ١٠١
الوفاء العظيم من النبي العظيم ﷺ ١٠١
من أمثلة الوفاء ١٠٢

فضل الطاهرة الكريمة ١٠٢
الزوجة الأولى ١٠٢
المؤمنة الأولى ١٠٢
كوني خديجةَ يا حفيدةَ خديجة!! ١٠٣
فِرْيَةٌ سيئة!! والردُّ عليها ١٠٤
فيا أُجَرَاءَ الاستعمار والماسونية! ١٠٤
أُمُّ المُؤمِنِينَ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمعةَ رضيَ اللَّهُ عَنهَا المُهَاجِرَةُ زَوْجَةُ المُهَاجِرِ ١٠٥
اسمها وكُنيتها ١٠٥
إسلامها رضي اللّه عنها ١٠٦
الهجرة المباركة إلى الحبشة! ١٠٦
وتصبح سودة عروساً لسيد الأنام محمد ﷺ ١٠٧
هجرتها إلى المدينة ١٠٨
هبتها يومها لعائشة رضي اللّه عنها!! ١٠٩
كرمها وزهدها رضي اللّه عنها ١١٠
ما نزل بها من قرآن ١١٠
في ساحات الجهاد والبطولة!! ١١٠
وفاتها وعمرها المبارك ١١١
حكمة زواج الحبيب ﷺ منها ١١١
أُمُّ المُؤمِنِينَ الصِّدِّيقَةُ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِيق رضيَ اللّهُ عنهما ١١٢
الصدّيقة الوفيّة المخلصة الغيور العتيقة: نسبها ومولدها ١١٢
أبوها ١١٢
أمُّها ١١٣
نشأتها رضي اللّه عنها ١١٣
زواجها من سيد الأنام ﷺ ١١٤
أمين السماء جبريل يأتي الأمين محمداً عليهما السلام بصورة عائشة!! ١١٤
العروس العظيمة عائشة تصف عُرسها ١١٥
بيت العروس ١١٥
زوجان ضرب التاريخ بهما المثل الأعلى!! ١١٦
النبي ﷺ ينظر إلى لهوها ولعبها ويفرح لذلك!! ١١٧
فضل شهر شوال وإبطال التشاؤم والطِّيَرَة من التزوج فيه ١١٨
السيدة عائشة وحديث النفقة ١١٨

عائشة قدوة عمليّة وأمّة كاملة!! ١١٨
أمر الحبيب ﷺ لها بالاسترقاء ١١٩
الحبيب ﷺ يبشرها بأنها زوجه في الجنة ١٢٠
علامة رضاها عن حبيب الله ﷺ ١٢٠
تحري الناس يوم عائشة لإهداء النبي ﷺ ١٢٠
الصدّيقة عائشة وحقوق المرأة!! ١٢٢
الصدّيقة وعليّ رضي الله عنهما ١٢٤
الطاهرة وبَضْعة المختار ﷺ ورضي الله عنهما ١٢٥
كلمة عصماء في يوم (الجمل)!! ١٢٦
في عهد كاتب الوحي (معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه) ١٢٦
السيدة العظيمة تودّع الدنيا رضي الله عنها ١٢٧
ويتشرف البقيع بالجثمان الطاهر! ١٢٨
الأستاذة الكبيرة معلِّمة الرجال والأجيال!!! ١٢٨
علمها ١٢٨
معلمة العلماء!!! ١٢٩
الأسلوب الاستدلالي! ١٣٠
أكابر الصحابة يسألونها! ١٣١
ما رأيت أحداً أعلم من عائشة! ١٣١
كان علمها بحراً ممدوداً!! ١٣١
من مأثور حِكَمها ١٣٢
يا معاشر النساء ١٣٢
حادث الإفك!!! ١٣٣
المستفاد من حادث الإفك ١٣٦
موقف أمهات المؤمنين ١٣٦
طمأنينة وثبات ١٣٦
فوائد جامعة ١٣٦
ما نقل في سَعة علمها وفقهها ١٣٧
وفي ساحات الجهاد!! ١٣٨
سخاء وجود ١٣٨
عبادتها ١٣٩
إيثار جميل!! ١٣٩
عاشت بعد الحبيب ﷺ قريباً من خمسين سنة فما معنى هذا؟ ١٣٩

كان علمها بحراً ممدوداً! ١٤٠
أُمُّ المُؤمنينَ السَّيدةُ حفصةُ بنتُ عمَرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللَّهُ عنهما ١٤١
مولدها ونسبها ١٤١
والدها ١٤١
أمها ١٤١
أخوها ١٤١
زواجها قبل النبيّ ﷺ ١٤١
عرضُ عمرَ حفصةَ على عثمانَ وأبي بكرٍ رضي اللّه عنهم بعد وفاة زوجها خنيس! ١٤١
وقت زواجها من النبي ﷺ ١٤٢
طلاق النبيّ ﷺ لها ومراجعتُها ١٤٢
توعد عمر رضي اللّه عنه بمقاطعتها ١٤٣
تحريم النبي ﷺ ماريّة على نفسه استرضاء لها!!! ١٤٣
اعتدادها بنفسها ١٤٥
تسامح النبي ﷺ معها لمكانة أبيها ١٤٥
عدد الأحاديث التي روتها عن النبي ﷺ ١٤٧
تاريخ وفاتها وعمرها ١٤٧
أُمُّ المُؤمِنِينَ زَينَبُ بنتُ خُزيمَةَ رضيَ اللَّهُ عنها (أمُّ المسَاكين) ١٤٨
وأمها ١٤٨
وتكون أمّاً للمؤمنين بعد حفصة بنت عمر رضي اللّه عنهم جميعاً ١٤٨
زواجها قبل حبيب اللّه ﷺ ١٤٩
الطيّبة الكريمة العطوفة على الفقراء والمساكين ١٥٠
وتلحق بالرفيق الأعلى ١٥٠
أمُّ المؤمنينَ السَّيدةُ (هندُ بنتُ أبي أميّة) أمُّ سلمةَ رضيَ اللَّهُ عنها، القرشيَّةُ المخزوميّةُ ١٥١
اسمها ونسبها ١٥١
والدها ١٥١
أمها ١٥١
اخوتها ١٥١
تزوجها أبو سلمة رضي اللّه عنه قبل النبي ﷺ ١٥١
لحوق أبي سلمة بالرفيق الأعلى أمام النبي ﷺ وهو يعوده ١٥٢
إرشاد الحبيب ﷺ إلى ما يقال عند المصيبة ١٥٢

الزوج الصادق يطلب من زوجه أن تتزوج بعد موته!! ١٥٤
حبيب الله ﷺ يبدأ بأمِّ سلمة إذا ما دار على نسائه ١٥٤
وسامُ شرف من سيد الأنام ﷺ لأم سلمة ١٥٥
السيدة أم سلمة تُنقذ الأمة من محنة قاسية!! ١٥٥
من زوَّج أم سلمة من النبيّ ﷺ من أولادها ١٦٠
اللحوق بالرفيق الأعلى ١٦١
أمُّ المُؤمنينَ السَّيدةُ زَيْنَبُ بنتُ جحشٍ رضيَ اللَّهُ عنْها ١٦٢
اسمها ونسبها ١٦٢
كنيتها ١٦٢
والدها ١٦٢
أمها ١٦٢
زوجها قبل النبي ﷺ زيد بن حارثة ١٦٢
تزويج النبي ﷺ بها وأن الله جلّ جلاله زوَّجها!! ١٦٣
نزول الحجاب ١٦٤
إثبات وليمة العرس ١٦٤
ظهور البركة في وليمة زواجها!!! ١٦٥
فخرها ١٦٦
مساماتها لعائشة ١٦٦
ورع السيدة رضي الله عنها ١٦٦
الحبيب ﷺ يشهد لها بالكرم! ١٦٧
وصفها النبيّ ﷺ بأنها أوّاهة ١٦٧
زهدها ١٦٧
وفاتها وعمرها ١٦٨
أمُّ المُؤمنينَ السَّيدةُ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحَارِثِ رضيَ اللَّهُ عنها ١٦٩
التعريف بها ١٦٩
والدها ١٦٩
قومها ١٦٩
زواجها قبل رسول الله ﷺ ١٦٩
زواجها من النبي ﷺ ١٧٠
رؤيا جميلة!! ١٧٠
جويرية والخيار العظيم ١٧١

الحكمة من الزواج بالسيدة جويرية ١٧١
حياتها مع سيد الأنام محمد ﷺ ١٧٢
السيدة المكرّمة في ساحات الجهاد!! ١٧٣
ذكريات عاطرة مشرّفة ١٧٣
جويرية وسكرات موت حبيب اللّه محمد ﷺ ١٧٣
أمُّ الفقراء والمساكين ١٧٤
وفاتها رضي اللّه عنها ١٧٤
فضلها رضي اللّه عنها ١٧٤
أمُّ المُؤمِنِينَ صَفِيَّةُ بِنتُ حُيَيٍّ رضيَ اللّهُ عنها الصفيَّةُ الصَّافيةُ ١٧٦
اليهود الخبثاء وخطرهم في المدينة المنورة!! ١٧٦
الحبيب الأعظم ﷺ يخطب صفية لنفسه ١٧٨
السيدة صفية تخاف على زوجها المكرّم ﷺ من اليهود بني جلدتها!!! ١٧٩
الحب الحقيقي الصادق!!! ١٧٩
أمهات المؤمنين يهنئن صفية بالزواج الميمون ١٨٠
السيدة صفية وحلمها العظيم! ١٨٢
أسهمها الكبيرة في نشر العلم ١٨٢
رفقه ﷺ ولطفه بالسيدة صفية ١٨٣
في إرادة احتباسه ﷺ وجملة الحجيج مراعاة لصفية رضي اللّه عنها!! ١٨٣
خروجه ﷺ من معتكفه تكرمة لصفية رضي اللّه عنها!! ١٨٣
وفاتها رضي اللّه عنها ١٨٤
الحكمة من هذا الزواج ١٨٤
حكم الزواج بالكتابيات ١٨٥
القيد الأول ١٨٥
القيد الثاني ١٨٥
القيد الثالث ١٨٥
القيد الرابع ١٨٦
أمُّ المُؤمِنِينَ السَّيدةُ (أمُّ حَبِيبَةَ) القرشيَّةُ العدويَّةُ رملةُ بنتُ أبي سفيانَ رضيَ اللّهُ عنهما ١٨٧
اسمها ونسبها ١٨٧
والدها ١٨٧
أمها ١٨٧

كنيتها ١٨٧
رؤياها وتأويلها ١٨٧
حبيب الله محمد ﷺ يخطبها من النجاشي ١٨٨
امتداح أبيها وهو مشرك زواجَها من سيد الكائنات ﷺ ١٨٨
موقف مشرِّف من السيدة أم حبيبة!! ١٨٩
تزويج النبي ﷺ لها مِن قِبَل النجاشي ١٨٩
إهداؤها بعضَ الهدايا لخادمة النجاشي ١٨٩
خُطبة عصماءُ من النجاشي رضي الله عنه في وليمة زواجها للنبي ﷺ!!! ١٨٩
النجاشي رضي الله عنه يأمر نساءه بإهدائها العطر ١٩٠
وتصبح أمُّ حبيبة أمّاً للمؤمنين ١٩٠
القرآن يتكلّم بزواجها من سيد الكائنات ﷺ!! ١٩٠
فضائلها وورعها ١٩٠
استجابة الله تعالى لدعائها ١٩١
وفاتها ١٩١
أمُّ المُؤمِنِينَ السَّيدةُ مَيمُونَةُ بِنتُ الحَارِثِ رضيَ اللَّهُ عنها ١٩٢
أمها ١٩٢
أخواتها ١٩٢
زواجها قبل النبي ﷺ ١٩٣
تزويج النبي ﷺ بها ١٩٣
السيدة ميمونة في بيت سيد الأنام محمد ﷺ ١٩٥
أمُّ المؤمنين وحبّة الرمان! ١٩٧
ورعها رضي الله عنها ١٩٨
وجاء الأجل المحتوم ١٩٩
أمُّ المُؤمنِينَ السَّيدةُ ماريَةُ القِبْطِيَّة رضيَ اللَّهُ عنها ٢٠٠
السيدة مارية القطبية رضي الله عنها ٢٠٠
اسمها واسم أبيها ٢٠٠
المصلح العظيم ﷺ يبعث رسالة إلى المقوقس ٢٠٠
المقوقس يقرأ الكتاب، لكنه لم يسلم! ٢٠١
السيدة مارية تزفّ بشرى الحمل إلى الحبيب ﷺ ٢٠١
ويفجع قلب النبي ﷺ بوفاة ولده إبراهيم! ٢٠١
وفاتها ولحوقها بالرفيق الأعلى ٢٠٢

القسم الرابع
بَناتُ النبيِّ الحبيبِ ﷺ

الطَّاهِرَةُ زَيْنَبُ الكُبْرَى رضيَ اللَّهُ عنها ٢٠٥
بشرى أول حمل لسيد الكائنات محمد ﷺ ٢٠٥
طفلة حبيبة من أمٍّ حبيبة! ٢٠٦
وتدور الأيام والسنون... .... ٢٠٦
الحبيب ﷺ يستشير ابنته (زينب) في زواجها!! ٢٠٧
وتحل السيدة زينب عروساً مكرمة هانئة ٢٠٨
ويتنزل الوحي على الحبيب ﷺ! ٢٠٨
وكانت الصدمة القاسية للسيدة زينب!! ٢١١
الطاهرة تفدي زوجها من الأسر بمالها! ٢١٢
ويبقى الزوج مصراً على الكفر!! ٢١٣
وتهاجر السيدة إلى اللّه ورسوله ﷺ! ٢١٤
ويعلن الزوج الحنون شهادة الحق! ٢١٦
مرحباً بابن الخالة، مرحباً بك أبا علي وأمامة!!! ٢١٦
ويعود الفراق ثانية! لكنه فراق الموت! ٢١٧
الطَّاهِرَةُ السَّيدةُ رُقَيَّةُ رضيَ اللَّهُ عنها ٢١٩
ويفرح المصطفى ﷺ بقدوم المولود الثاني بنتاً! ٢١٩
وتمرّ الأيام سريعاً وتخطب الفتاتان ٢١٩
وتمّ العقدان في هدوء، لكنهما مصحوبان بقلق!!! ٢٢٠
وتُعوض العروسان بأفضلَ من ابني عدو اللّه! ٢٢٢
ويهاجر العروسان إلى الحبشة!! ٢٢٣
مصابُ السيدة بوفاة السيدة خديجة ٢٢٤
وتكون الهجرة الثانية إلى المدينة المنورة ٢٢٤
وتلتحق السيدة رقية بالرفيق الأعلى ٢٢٥
الطَّاهِرَةُ السَّيدةُ أمُّ كُلثوم رضيَ اللَّهُ عنها الصَّابِرَةُ المُهَاجِرَةُ ٢٢٦
وأتى المولود الثالث أنثى من صُلب طاهر! ٢٢٦
رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد!!! ٢٢٧
مفاوضة سخيفة أشبه ببعض المفاوضات اليوم!! ٢٢٧
أمُّ كلثوم تسحّ الدموع على فقد الغالية السيدة خديجة ٢٢٨
وتُهاجر السيدة أم كلثوم وتُستقبل بالحفاوة والترحاب! ٢٢٩

وتترادف الصور المفجعة في خيال أم كلثوم! ٢٣٠
فإنَّ مع العسر يسراً!! ٢٣٠
وكانت ساعة الرحيل ٢٣١

الطَّاهِرَةُ العَفِيْفَةُ فاطمةُ الزهراءِ رضيَ اللَّهُ عنها سيِّدةُ نساءِ أهلِ الجَنَّة

السيدة الزهراء الناسكة الصفية البَضعة الشبيهة بالرسول ﷺ ٢٣٣

المولد الشريف، والنشؤ المبارك! ٢٣٣
وبدأ التحول الكبير للزهراء في سن الخامسة من عمرها!! ٢٣٤
السيدة الزهراء تشارك أباها ﷺ أفراحه وأتراحه! ٢٣٦
وتقاسي آلامَ الحصار وآلامَ الوفاة! ٢٣٧
الزهراء ترعى والدها وتمسح عن قلبه حزنه الكبير! ٢٣٨
ويتقدم لخِطبة السيدة كبار الصحابة رضي اللّه عنهم! ٢٣٩
ويحظى بالشرف علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ٢٤٠
وتمّ الزواج الميمون ٢٤٠
وحانت ساعة الولادة والبشرى! ٢٤١
ويأتي المولود الحبيب ٢٤١
السيدة الزهراء مجاهدة في يوم أحد!! ٢٤١
وجاء المولود الثالث (زينب) ٢٤٢
سيد الكائنات ﷺ يقوم للزهراء ويقبلها!! ٢٤٢
الحبيب ﷺ لا يرضى الضرّة للزهراء!! ٢٤٣
الزهراء والفاجعة العظمى!! ٢٤٥
الزهراء وقضية الميراث!! ٢٤٧
السيدة تستعدُّ للقاء الحبيب جلّ جلاله! ٢٤٧
الكرّار عليٌّ رضي اللّه عنه يرثي الزهراء ويناجي حبيبه محمداً ﷺ!! ٢٤٩

القسم الخامس

مؤمناتٌ عظيماتٌ لهنّ في جَبِيْنِ التاريخِ بصماتٌ منْ نورٍ!!!

السَّيدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنهما ذاتُ النِّطاقَيْن ٢٥٣

وسام شرف من سيد الكائنات محمد ﷺ لأسماء ٢٥٣
لم تستقبل أمها الكافرة حتى تستشير النبي ﷺ! ٢٥٣
الحبيب ﷺ كان يُؤمّنها على سرّ الدعوة! ٢٥٤
دور أسماء المشرّف في الهجرة النبوية الشريفة ٢٥٥
أسماء تقنع جدّها أبا قحافة بحكمتها العظيمة! ٢٥٥

السيدة العظيمة أسماء تروي لنا قصة زواجها من الزبير ٢٥٦
السيدة ذات النطاقين تشهد وفاة رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه ٢٥٧
أمٌّ عظيمة والعظماء قليل!! ٢٥٩
وتحين ساعة اللقاء بالحبيب جلّ جلاله ٢٥٩
السَّيدةُ أَسْماءُ بنتُ عُميس رضيَ اللَّهُ عنْها صَاحبَةُ الهِجْرَتين ٢٦١
تزوجت شيخ الإسلام أبابكر ثم علي بن أبي طالب بعد جعفر رضي الله عنهم جميعاً ٢٦١
السيدة أسماء معينة لزوجها في إبلاغ الدعوة في الحبشة! ٢٦٢
عودتها من أرض الحبشة مسرورة سعيدة ٢٦٣
الزوج الوفية تروي لنا قصة وفاة زوجها ٢٦٤
وتتفرغ الأم الصالحة الصابرة على تربية أطفالها!! ٢٦٥
وتأتيها المصائب تترى، لكنها صامدة صابرة!! ٢٦٥
الإمام عليٌّ رضي اللَّه عنه يتقدم لخِطبة السيدة أسماء! ٢٦٧
الفاجعة الكبرى في حياتها! ٢٦٨
الصَّحَابيَة أمُّ عُمَارة رضيَ اللَّهُ عنْها الفِدائيَّةُ المجاهِدة ٢٦٩
أمّ عمارة من أوائل النساء اللواتي سارعن إلى الإسلام ٢٦٩
إمرأة بطلة تدافع بنفسها عن القائد الأعظم محمد ﷺ!! ٢٧٠
وتدخل المعركة ثانية!!! ٢٧٠
وتمضي الأيام، وتظل الفدائية تخدُم الإسلام ٢٧٢
وتخرج أمّ عمارة إلى معركة اليمامة طالبة الثأر لولدها ٢٧٣
وتحين ساعة الفراق ٢٧٤
السَّيدةُ أمُّ سُليم بنتُ مِلحان الرُّميصاءُ ٢٧٥
صاحبة الذكاء النادر تخطب لابن عمها ٢٧٥
ويتقدم الصحابي أبو طلحة لخِطبتها بعد وفاة زوجها ٢٧٦
عروس مهرها الإسلام!! ٢٧٧
حبّ أبي طلحة للَّه ورسوله ﷺ ٢٧٨
عظمة أم سليم في مصابها بولدها وتصبير زوجها!! ٢٧٩
هل في الدنيا امرأة مثل أم سليم!! ٢٧٩
الجزاء من جنس العمل! ٢٨٠
أمُّ سُليم داعية كبيرة للَّه جلّ جلاله، وبطلة في ميادين الجهاد! ٢٨٠
سيد الكائنات محمد ﷺ يبشرها بالجنة! ٢٨١
جواز التبرك بآثار المصطفى ﷺ ٢٨١

حياة إسلامية رائعة لهذه الصحابية الجليلة ٢٨٢
السَّيدةُ أمُّ حَرَام بنتُ مِلحان رضيَ اللَّهُ عنها شهيدةُ البَحْر ٢٨٣
حبُّ الحبيبِ ﷺ لها ٢٨٣
بشارة الحبيب الأعظم ﷺ لها بالغزو في سبيل اللَّه عزّ وجلّ ٢٨٤
نالت وسام شرف الشهادة في سبيل اللَّه تعالى في البحر! ٢٨٤
المرأةُ التي سَمِعَ اللَّهُ شكواها!! ٢٨٦
الصَّحابيَّةُ خَوْلةُ بنتُ ثَعْلَبَة رضيَ اللَّهُ عنها ٢٨٦
توضيح حكم الظِّهار في الإسلام ٢٨٦
موقف مشرِّف يكتب على جبين التاريخ بحروف من نور!! ٢٨٧
السماء تعلن حالة الطوارىء من أجل إمرأة!! ٢٨٧
وقوفها أمام عملاق الإسلام عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه، واعظة ناصحة داعية!! ٢٨٩
أمير المؤمنين عمر رضي اللَّه عنه يقف أمامها بأدب وتواضع ويسمع لها!! ٢٨٩
السَّيدةُ الخَنسَاءُ رضيَ اللَّهُ عنها أمُّ الشُّهَداء ٢٩٠
إمرأة جمعت المروءة والبطولة والإخلاص والتربية ٢٩٠
وتُسلم الخنساء، ويُعجب النبيَّ ﷺ شعرُها!!! ٢٩١
الإسلام يغيّر من كيماويات النفس البشرية!! ٢٩٢
وتدخل الخنساء امتحانها الثاني بأغلى شيء عندها!! ٢٩٢
كلمات من نور تعجز عباقرة الكون عن قول مثلها!!! ٢٩٣
أبطال أربعة تبيعهم الخنساء للَّه سبحانه وتعالى!! ٢٩٣
شعراء وأبطال يستعذبون الموت في سبيل اللَّه عزّ وجلّ!! ٢٩٣
هل في التاريخ صبرٌ مثل هذا الصبر!! ٢٩٤
خلاصة وخاتمة ٢٩٦
أهمُّ مصادرِ ومراجع الكتابِ العلميَّة ٢٩٩
كُتُبٌ للمصنِّف غفرَ اللَّهُ لهُ ولوالديهِ وللمُسْلمين ٣٠٥

